توفيق الحكيم

سجن العمر

الجمهورية العربية الليبية
مركز - مكتبة أوباري الثقافي
إدارة المراكز الثقافية
مركز أوباري الثقافي

ملتزم الطبع والنشر
مكتبة الآداب ومطبعتها بالجماميز ت ٩١٩٣٧٧

المطبعة النموذجية
٦ سكة الشابوري بالحلمية الجديدة

« أملى أكبر من جهـدى ...
وجهدى أكبر من موهبتى...
وموهبتى سجينة طبـعى ...
ولـكنى أقاوم ......»

هذه الصفحات ليست مجرد سرد وتاريخ لحياة ... إنها تحليل وتفسير لحياة ... إنى أرفع فيها الغطاء عن جهازى الآدمى لأفحص تركيب ذلك « المحرك » الذى نسميه الطبيعة أو الطبع . . . هذا المحرك المتحكم فى قدرتى ، الموجه لمصيرى ...

من أى شىء صنع ؟ ... من أى الأجزاء شكل وركب ؟ ...

لنبدأ إذن من البداية : من يوم وجدت على هذه الأرض كما يوجد كل مخلوق حى . بالميلاد من أب وأم ...

وما دمنا لانستطيع أن نختار والدينا ... ما دمنا لانستطيع أن نختار الأجزاء التى منها نصنع ، فلنفحص إذن هذه الأجزاء التى منها تتكوننا ، فحصاً دقيقاً صادقاً ، ولا نتحرج من الخروج قليلا عما اعتدناه فى بلادنا من وضع الأهل والآباء داخل قوالب جامدة وأطر ثابتة لصور الكمال والورع والصلاح إلى حد يحول دون أى تحليل إنسانى ... لابد إذن من بعض الشجاعة والصراحة لنعرف على الأقل شيئاً عن تركيب طبعنا ؛ هذا الطبع الذى يسجننا طول العمر ...

لم يرنى والدى يوم ولدت ... كان متغيباً فى عمله بعيداً ، فى بلدة صغيرة من بلاد الريف ... كان وقتئذ وكيلا لنيابة مركز « السنطة » فترك والدتى تذهب لتلدنى فى بلدها « الإسكندرية » حيث تتوفر لها العناية الصحية ... وهناك ... فى هذا الثغر ، وفى حى « محرم بك » بمنزل أخيها الكبرى هبطتُ إلى الدنيا ... وقد بعث زوج الأخت : أى عديل والدى بخطاب إليه يقول فيه بالنص :

« أرسلنا إليكم اليوم تلغرافا تبشيراً بقدوم نجلكم السعيد ... وتفصيل الخبر أنه فى الساعة العاشرة مساء الأمس شعرت السيدة حرمكم بألم يشبه الطلق ، فأردت إرسال الخادم إلى القابلة ، فامتنعت بقولها : ربما لايكون الأمر كذلك ... ولم نزل مترقبين حالها إلى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حيث اشتد الألم ، ولم يعد هناك شك فى اقتراب الوضع . وعندها أرسلنا الخادم ... وفى الساعة الثالثة حضرت القابلة وباشرت أعمالها . . . إلى أن كانت الرابعة أقبل « أخينا » مصحوبا بسلامة الوصول وقد رأيته

صباح اليوم فوجدته مثل أبيه ، ولكن بدون « شوارب « !!! » ...

انتهى كلام العديل الفاضل . . . وقد أشر والدى على هذا الخطاب بالقلم الرصاص ، موضحاً بما فطر عليه من دقة سنرى دلائلها فيما بعد ... كتب يقول :

« كنت هذا اليوم موجوداً بالسنطة ، فورد لى تلغراف من الأخ عديلى صورته :

« رزقتم ولداً فاطمئنكم واهنئكم »

وقد كنت فى ذلك الوقت فى أودة الجلسة أتكلم مع القاضى على بك جلال فى شئون مختلفة ، وكانت الساعة وقتئذ ١٢ ونصف أفرنجى . »

ونقل والدى هذه التأشيرة إلى دفتر صغير خاص اعتاد أن يدوّن فيه بعض شئونه — عثرت على هذا الدفتر بين مخلفاته بعد وفاته — أضاف فيه إلى ما تقدم هذه العبارة : « تحرر إلىّ خطاب آخر من عديلى يطلب تسمية المولود ، فلم أوفق إلى اسم له ، فحررت إليه جواباً بأنى فوضت الأمر إلى والدته فى التسمية ... ثم ذهبت إلى الإسكندرية وزرت زوجى فوجدتها متمتعة الصحة وأخبرتنى

أن الغلام سمى باسم «حسين توفيق الحكيم» فلم يرق هذا الإسم عندى ، وصممت على تغييره بالطريقة القانونية ... وفى نفس اليوم توجهت إلى المصوراتى «مظهر حاوى» ، وطلبت منه أن يصورنى فى ست لوحات ، لأنى أردت الاشتراك فى السكة الحديدية بين محل عملى فى الريف والإسكندرية ... »

هذا ما كتبه والدى فى دفتره خاصاً بمولدى ... ولست أعرف شيئاً بالطبع عن اللحظة التى ولدت فيها .. وهذا من سوء حظى ؛ بل من سوء حظ البشر جميعاً أن نولد فى غيبوبة تامة من عقولنا ... فكل عضو من أعضائنا يتحرك حين نولد ، إلا ذلك الجزء منا الذى ندرك به الحياة التى هبطنا إليها ... ترى ماذا كان يحدث لو أننا واجهنا الحياة بعقول مدركة منذ اللحظة الأولى ؟... كان يحدث العجب ... كنا نفقد عقولنا للفور من هول الأعجوبة ... أعجوبة الحياة فى انكشافها المفاجىء أمام القادم من عالم الظلام والعدم !...

ولكن الحياة تتكشف لنا على مهل ستراً بعد ستر وحجابا بعد حجاب ، وتتمزق من حولنا الأغلفة ، غلافا بعد غلاف ... فنعتاد الحياة ونغفل عن الأعجوبة فيها ...

روت والدتى — فيما بعد — أنى هبطت إلى الدنيا فى صمت ، دون بكاء أو صخب أو عويل، شأن الكثير من الأطفال، فحسبتنى نزلت ميتا ، فارتاعت وهى على فراش وضعها ، وسألت القابلة، التى ألقت بى بعيداً لتعنى بالأم : «لماذا لا يبكى ويصيح ككل المواليد الأصحاء ؟... والتفت الجميع إلى ناحيتى فوجدونى أنظر - كما زعموا - إلى ضوء المصباح وإصبعى فى فمى شأن المتعجب ! . . . يا له من زعم ! .. إن كل أم تريد أن ترى فى ابنها معجزة كمعجزة المسيح ! ... لأنها فى هذه الحالة ستكون هى مريم ! ... إذا ثبت حقاً أنى نزلت بغير صياح ، فلعل السبب هو أنى كنت مجهداً تعباً مكدوداً من شدة الجذب إلى هذه الدنيا ، أو أنه كان بلسانى علة من العلل ، أو أنه الضعف العام ... وربما كان أفضل من ذلك جميعاً أن يقال — كما قيل فى الكبر — إنى آثرت الصمت والسكون بخلا أو اقتصاداً فى صياح لا طائل تحته ! ... ومع ذلك ، فلماذا لا تحاك مثل هذه الأساطير عن ساعة الميلاد إلا فيما بعد دائماً ... عندما تحدد لنا صورة ما فى المجتمع الذى نعيش فيه ... كذلك الحال فى ساعة الوفاة ... ساعة نولد وساعة نموت .. ساعتان يلعب فيهما خيال

الآخرين ، لأنهما ليستا فى حوزتنا ...

لا أستطيع كذلك بالطبع أن أصف الحجرة التى ولدت فيها ... ولكن الذى أعلمه أن منزل العديل — زوج خالتى — الذى هبطت إلى الدنيا فيه لابد أن يكون مناسباً لوضعه الاجتماعى ... فقد كان على شىء من اليسار ... كان موظفاً بالدائرة السنية ومستحقاً فى وقف ... رأيت هذا المنزل فيما بعد عندما بلغت الخامسة أو السادسة ، وبدأت أعى ... إنه منزل صغير مكون من طابق واحد ؛ به حديقة صغيرة فيها تكعيبة عنب خيل إلى يومئذ أنها حرش من الأحراش .

وكان ينفق كثيراً ... خصوصاً على شرابه وسهراته ... فقد كان وقت مولدى فى شبابه يحب الكاس والطاس وعشرة الظرفاء من الناس ، يسمرون ويعمرون الليالى بالفكاهات والنكات ، وكان هو نفسه — كما قيل لى وكما رأيت بنفسى فيما بعد — شيق الحديث بارع الدعابة ، على قدر طيب من التعليم والاطلاع ، يبدو ذلك من أسلوبه فى الخطاب الذى أرسله إلى والدى معلناً قدومى « بغير شوارب » ! ...

كان العهد عهد « كرومر » ، وكل من وفد على مصر يومئذ

اعتبر نفسه سيداً لنا أو مرشحاً للسيادة .

يروى زوج خالتى هذا أنه كان جالساً بين أصحابه ذات يوم فجاءه ماسح أحذية من الأجانب الوافدين ... فبعد الانتهاء من مسح حذائه أخرج مع الأجر بطاقته وقدمها للماسح الأجنبى قائلا بنبرة الجد :

هاك اسمى وعنوانى لتتذكرنى وتشملنى بنظرة عندما تصبح فى بلادنا من أصحاب الجاه والمال والمناصب ! ...

أما زوجته الأخت الكبرى لوالدتى فكانت أمية لا تقرأ ولا تكتب ، بل ولا تحسن غير التفكير فى الخرافات الشائعة بين نساء جيلها . كانت على غرار أمها — جدتى — ولعل هذا كان السر فى فرار زوجها المتعلم الأريب إلى مجالس السهر والسكر والظرفاء والأدباء ... أما والدتى فكانت الابنة الصغرى . بينها وبين أختها الكبرى ستة أولاد ماتوا كلهم قبل الوضع ولهذا الموت الملح سر فى رأى جدتى ، إنها تعزو ذلك إلى « جنية » تحت الأرض اسمها « القطاية » . تظهر أحياناً فى صورة قطة سوداء ... وفى ذات ليلة ظهرت أمامها ساعة العشاء ، وكانت تأكل سمكاً مشوياً . فماءت القطة تطلب قطعة ، فلطمتها جدتى بظهر

كفها فاختفت . . . منذ تلك الليلة ما حملت مرة إلا وشعرت كأن لطمة تصيب بطنها فيسقط الحمل لتوه . . . إلى أن جاء الحمل السابع ، فنصحها الناصحون أن تأتى بمنجم معروف وقتئذ اسمه «أبو عجيلة» ليحجبها بالأحجبة التى تدرأ عنها السوء ... فجاءت به وحجبها بسبعة أحجبة ، وعاشت والدتى ... كانت هذه الجدة طيبة القلب هادئة الطبع ، هكذا بدت لى عندما أخذت أعى وأشب وأترعرع ، لقد بدت لى على نقيض ابنتيها الكبرى والصغرى ، بما ركبتا عليه من طبع حاد ، تثير أعصابهما أقل كلمة وأتفه حادث ... على أنى لم أعرف الجدة إلا فى كهولتها . أما فى شبابها ، فقد كانت — كما قيل لى — تماثل الإبنتين فى الطبع الحاد والخلق النارى ... ولم أر قط - منذ وعيت - الأختين على وفاق ، كانت الخصومة والمقاطعة بينهما هى الحياة العادية ... أما لحظات الصلح فكانت عابرة كسحب الصيف ، أو استثناء أو شذوذاً لا يصدق إمكان بقائه الطرفان ... وهل يمكن أن يقوم برد وسلام بين نار ونار ؟! ... لن أنسى أبداً حيرة جدتى المسكينة بين ابنتيها المتخاصمتين على الدوام . كان لا هم لها ولا شاغل إلا التوفيق بينهما دون جدوى ...

كانت أسرة والدتى من أهل البحر ... ممن أطلق عليهم اسم «البوغازية» ... ويظهر أن أصل هذه الأسرة من الترك أو الفرس أو البانيا ... لا أدرى بالضبط ، إن سحنة والدتى وجدتى وما لهما من عيون زرقاء تنم عن أصل غريب على كل حال . ولم أرث أنا ولا شقيقى هذه الزرقة ولا ما يقرب منها ، لأن سحنة والدى الفلاح القح كانت فيما يبدو قديرة على صبغ بحر أزرق بأكله ... وكان جد والدتى لأمها يسمى «كلا يوسف» ، وقيل إنه من «قولة» ، وجدها لأبيها كان يسمى الحاج «ميلاد البسطاى» ، وابنه ، وهو أبوها ، اسمه «سليمان البسطامى» . وقيل إنه كانت لديه شجرة نسب تلحقه بأبى يزيد البسطامى الصوفى المعروف . وقد ذكرت لى والدتى أن أصلهم من فارس ، ولكن أهلهم نزحوا إلى تركيا ثم وفدوا بعد ذلك إلى مصر ... كل هذا سمعته دون أن ألقى إليه بالا أو أعيره اهتماما ؛ إنما أنا أروى هنا ما لحق بذاكرتى مما حكى حولى وأنا صغير ...
كان رجال البوغاز هؤلاء يتوارثون المهنة أباً عن جد ، ويحذقونها بالممارسة . وكانت لهم قواربهم البخارية التى يقودون بها السفن إلى البوغاز . . . كانوا يشترونها بأموالهم الخاصة شركة بينهم ،

ويقتسمون أرباح العمل بمقتضى حصص توزع على الأسرة بعد وفاة عائلها ... فلما مات جدى لوالدتى ورثت عنه حصة .

وكانت هى صغيرة السن ، لم تجاوز عامها الثالث يوم مات والدها ، وهو لم يزل شاباً فى الخامسة والثلاثين ... مات ولم تره ولم تعرفه . فظلت طول حياتها تسأل عنه من رآه ومن عرفه : ما شكله؟... ما صورته؟... ما خلقه؟... ما صفاته؟... قالت لى إنه كان ممن أطلق عليهم الخديو فى ذلك العهد اسم « العصاة » لأنه كان من أنصار عرابى . ولبثت عمرها كله ترسم له فى مخيلتها صورة الأبطال والأنبياء والقديسين ، فما كان عندها قسم أغلظ ولا أهم من القسم « بسيدى البسطامى » هكذا كانت تعلمنى وأنا صغير . وربما كان قولى يحتمل الكذب عندها إذا قلت : « وحياة النبى » . أما إذا قلت : « وحياة سيدى البسطامى » فما كان يغتفر لى أن أحنث به ... كان لا بد لقولى أن يكون صادقا ، وإلا فهو الجرم فى نظرها الذى لا جرم بعده ...

كانت جدتى أيضاً فى أوج شبابها حين مات عنها زوجها . فنصحها الناصحون أن تقبل الاقتران بزوج أختها المتوفاة ... بذلك

ترعى أولاد أختها كما ترعى أولادها فى كنف زوج ليس بالغريب عنها ولا الدخيل على الأسرة ... رأى طيب ومعقول ... ولكن الذى حدث ، كما يحدث فى كثير من الأحيان ، هو أن الآراء الطيبة والمعقولة تنقلب إلى نقيضها عندما تتحول إلى واقع . فقد احتضنت جدتى أولادها هى ، أى البنتين ، وخصتهما بكل رعاية وإعزاز ، ونبذت وأهملت أولاد الأخت ، وعاملتهم كما تعامل أولاد الأعادى ، وكان الزوج يلحظ ذلك ويتغاضى ... وقد بلغ من تدليلها لابنتيها أن والدتى لم يكن يحلو لها أن تنصب « أرجوحتها » إلا على باب حجرة زوج أمها ، وتظل معلقة بحبال الأرجوحة ، تهزها هزاً عنيفاً حتى تنخلع مفاصل الباب ، فإذا عاد الرجل إلى بيته متعباً مكدوداً بعد عمل مرهق فى البحر ، ورأى ما حل بباب حجرته ، وأبدى ملاحظة ، هبت فى وجهه البنت الصغيرة باكية وسارعت إلى أمها شاكية ، فتقوم قيامة الأم لإغضابه « اليتيمة » ابنتها ! ... أما الابنة اليتيمة فكانت تخرج لتوها إلى الحارة تتباكى وتصيح كذبا :

« زوج أمى ضربنى ! ... زوج أمى ضربنى ! ...

فيمصمص الجيران بشفاههم قائلين مترحمين :

« لا حول ولا قول إلا بالله ! ... مسكينة البنت ! ... طبعاً زوج أم وماذا ينتظر من زوج الأم !!!...

كان من بين أولاد هـذا الزوج ابن شاب قد تعلم القراءة ، وهوى قراءة القصص ... فإذا فرغ من المطالعة جعل يقص على الأسرة ما قرأ من أعاجيب قصص ألف ليلة وغيرها ... وكانت والدتى تسر لسماع هذه القصص سروراً كبيراً ؛ فكانت بدلالها على جميع أهل البيت وبقوة شخصيتها منذ صغرها ترغم ابن خالتها هذا على أن يترك عمله فى البوغاز ، أو يتأخر عنه قليلا ، ويسهر الليل ، ليقص عليها المزيد مما فى تلك الروايات والقصص ...

ويبدو أن الفضل كان له فى دفعها إلى تعلم القراءة والكتابة... ذلك الأمر المعيب بالنسبة إلى فتاة فى ذلك العصر ... إن كل ما كان يسمح لبنت مثلها أن تتلقاه من ضروب التعليم هو الإلمام بمبادئ التطريز والحياكة والتفصيل عند « المعلمة » ، وكانت بالأسكندرية وقتئذ معلمة أجنبية فتحت مدرسة أو شيئاً كهذا ذهبت إليها أمى مع أترابها فتلقت عندها ضرباً من التعليم ...

لكن هذا الشاب ابن الخالة ظل بأبيه والبنت وأمها حتى سمح

له بأن يحضر لها شيخاً يحفظها القرآن ويلقنها حروف الهجاء ...

وانتهى بها الأمر إلى تعلم مبادىء القراءة والكتابة ، وتكفل بالباقى طبعها الحديدى ومافيه من عناد وإرادة وإصرار مع ذكائها الفطرى ، وروحها المتوثب الطامح ورغبتها الجامحة فى أن تقرأ بنفسها القصص والروايات التى سحرت لبها ... فلم يمض عليها قليل وقت حتى كانت قد تعلمت فك الخط ، واستطاعت أن تصل إلى شىء من العلم بالقراءة والكتابة ، مكنها من الاطلاع على ما تريد الاطلاع عليه ...

وبذلك أصبحت أكثر تنوراً من كل نساء جيلها فى أسرتها.

وكان هناك بون شاسع وهوة سحيقة بينها وبين أمها وأختها الكبرى ؛ إذ لم يكن العلم أو التعليم كلمات لها وجود فى دنيا تلك الأم والأخت قد يبدو غريباً فى عصرنا أن نتصور عالماً بأسره عاش يوماً — وربما ظل يعيش حتى الآن فى مكان ما — وليس فى قاموس لغته كلمة علم أو معرفة . فنحن اليوم فى عالم يتميز بأن الناس فيه يريدون أن يفتحوا عيونهم كل صباح على شىء جديد يعرفونه . والمعرفة تأتيهم كل صباح مع فنجان القهوة أو الشاى ،

فى صورة جريدة من الجرائد ، أو إذاعة من إذاعات الراديو . فمن لا يستطيع القراءة ، يستطيع الاستماع .

مامن أحد يستطيع اليوم أن يكون بمعزل تام عن مصادر المعرفة الجارية كما يجرى الماء فى الأنابيب . ولقد تغير منى المعرفة تبعاً لذلك ، فأصبحت أنواعاً ودرجات ... منها العميق ، ومنها الضحل منها الهام ، ومنها التافه . والخيار للناس فيما يتناولون من ألوان المعرفة . هذا الخيار لم يكن معروفاً لأهل العصور السابقة . وهذه الوسائل السهلة لم تكن مهيأة لهم ... فدونهم وأى نوع من أنواع العلم أو المعرفة حواجز قائمة لابد لهم من اجتيازها بالكفاح والإرادة . لذلك أدرك قيمة إرادة كإرادة والدتى فى أن تتعلم لتقرأ . كما أدرك الصعوبات التى قامت فى وجه امرأة كجدتى لتكون شيئاً آخر غير ماكانت عليه ...

وهى لم تكن الوحيدة فى بيئتها وعصرها . كان كل اهتمامها منحصراً فى وسائل السيطرة على بيت زوجها وعلى أولاده ، وقد تم لها ما أرادت ... فقد فهمت عن والدتى أنها هى وأختها الكبرى كانتا حقاً الآمرتين مع أمها فى البيت .

ولم يكن الجميع - من زوج الأم إلى أولاده العديدين - إلا رهن إشارتهما فى كل رغبة ونزوة. كانت الهدايا واللعب وعرائس الحلوى فى الأعياد والموالد لاتأتى إلا لهما . وكان كل هذا محتملا ويؤدى عن طيب خاطر . إلى أن حدث ما ألقى ستار الختام على هذا الحال : فقد تزوجت الإبنة الكبرى ، أخت والدتى ، وجهزت وزفت إلى زوجها فى بيته ... منذ ذلك الحين طار ما تبقى من عقل فى رأس جدتى ؛ فإذا هى لا توجد إلا فى بيت ابنتها الكبرى . تجلس بجوارها وتعاونها وتدلل كل مولود لها جديد ، وكانوا بحمد الله كثيرين ، كل منهم فوق رأس الآخر كما يقولون ... هذا فضلا عن تشابه الأم وابنتها الكبرى فى العقلية ، واتفاق وقتهما الخالى فى السحر لزوج الأم حتى يدب الخلاف بينه وبين أولاده فيخلو لهما الجو ... وبلغ الحال من السوء حداً لم يستطع معه زوج الأم صبراً ، ففى ذات يوم ذهبت زوجته تمضى أياماً عند ابنتها الكبرى ؛ فإذا هى تباغت بورقة الطلاق مرسلة إليها مع خادم ...

طول طفولتى وأنا أسمع من والدتى وجدتى مأساة الطلاق هذه وكأنها مأساة مقتل الحسين فى كربلاء ! ...

كنت وأنا غلام أجلس إلى جوارها وهى تصنع قهوتها بنفسها ؛ أصغى إلى مأساتها وأتحسر معها . كانت تحبنى كثيراً لأنى كنت أحسن الإصغاء إليها وإلى أملها الوحيد فى الحياة وقتئذ وهو أن يسود الوفاق بين الأختين . إذ لم يكن لها من مأوى غير بيتيهما .

تلك هى جدتى وابنتها الكبرى . أما الإبنة الصغرى ، وهى والدتى فقد سارت حياتها على النحو الذى تقدم وصفه إلى أن تزوجت هى الأخرى . وحكت لى قصة هذا الزواج فقالت : إن عمة العريس وأخته وهما من أهل الريف حضرتا إلى الإسكندرية للبحث عن عروس ؛ لأن أمه متوفاه وإذا القدر أو المصادفات أو الحكمة الخفية المجهولة حتى الآن لبنى الإنسان ، تلك التى تتجلى دائماً فى هذه الظروف ، فتجمع بين اثنين من دون الملايين ، لينتج عن اجتماعهما من النتائج ما لا يخطر على بال . قادهما القدر إلى والدتى ، أبصراها فى فرح من الأفراح فإذا هى فى نظرهما المطلب والبغية فهى يتيمة لا أب لها ، ومثلها يعيش فى كنف الزوج بلا تدلل ولا تكبر . . . جاءت العمة والأخت مرتديتين « الملس » لامعاً جديداً ، يفوح منهما العطر الفلاحى من الخزام والزعفران ، وأحضرتا معهما صورة شمسية على الصفيح ـ شأن التصوير فى ذلك العهد ـ للعريس وهو متشح بوسام عضو النيابة . فما كادت أمى

بطموحها ترى هذا الوسام حتى ذهب لبها وعقدت العزم فى سرها على التمسك به ... ذلك أنها كانت تعلم معنى هذا الوسام ، فقد كان لمنزل أسرتها نوافذ تطل على ما كان يسمى « سكة الباشا » أى الطريق الموصل إلى سراى رأس التين حيث كانت تمر يوم العيد مواكب رجال الحكومة الكبار فى ملابس التشريفة ، ومن بينهم رجال القضاء بمثل هذه الأوسمة ؛ من يومها وهى تمنى نفسها بزوج له مثل هذا الوسام . تلك كانت أحلامها كفتاة . لقد تقدم إليها تجار وبوغازية من رجال البحر فكانت تبكى وترغم أمها على الرفض ... أما هذا المتشح بالوسام فقد تهلل له وجهها ؛ إلا أن أهل هذا العريس لم يتقدموا بمهر محترم . قالوا إنه شاب فى مستهل حياته عظمه مازال طريا ، لا يحتمل كاهله المبلغ الطائل بعد ... وهاجت الأم وماجت . ورفضت وهى تضرب على صدرها : «ياشماتة الاعادى أسلم بنتى بتراب الفلوس ؟ ! » ويظهر أن المهر كان ضئيلا حقاً . لا يجاوز الخمسين « بنتو » . والبنتو هى العملة الذهبية فى ذلك الوقت الى تقل عن الجنيه ... طردت الأم أهل العريس ، ولكن البنت الراغبة أرسلت خلفهم خفية خادمة لها تقول لهم سراً أن ارجعوا

فالأم قد قبلت ... ولم يسع الأم إلا النزول آخر الأمر على إرادة ابنتها المصرة ... ولم ينفع التعنيف ولا التقريع ... ولا صياحها بلهجتها الاسكندرانية القحة :

« ما يهاش أى ما بقاش غير البنات يحكموا رأيهم ويختاروا العرسان ! ... »

لكن ما من شىء كان يقف أمام إرادة والدتى إذا طلبت شيئاً وصممت عليه فلابد أن تناله ... وإن لها لمقدرة عجيبة فى إخضاع جميع من معها لإرادتها ... كان هذا شأنها مع أمها وزوج أمها وأولاده جميعاً ، ثم زوجها هى فيما بعد ... لم يقف أحد فى وجهها إلا أختها ، ولهذا خاصمتها وعادتها طول العمر ...

أما والدى فقد كتب بالقلم الرصاص فى دفتره الصغير المعهود صفحة عنوانها « تاريخ الزواج » قال فيها بالنص والحرف « ليلة الدخول كانت ليلة الجمعة أى مساء الخميس الموافق ٢٥ إبريل الموافق ليلة ٧ محرم بالاسكندرية بمنزل حضرة « زوج الأم » ... وأقمت بالمنزل بصفة ضيف مع العروس إلى يوم الخميس الموافق ٢ مايو ... ثم قمت قاصداً العزبة بصفط الملوك — يقصد عزبة والده الشيخ

أحمد الحكيم » — وفى نفس اليوم سافرت إلى ناحية زرقون للاحتفال بعرس أولاد الحاج ... « من الأقرباء » ورجعت مع والدى إلى العزبة يوم السبت ٤ منه ... وفى يوم الأحد قمت قاصداً المحلة الكبرى حيث محل وظيفتى ، لانتهاء الأجازة المصرح بها لمدة عشرين يوما ، وفى يوم الأربعاء مساء قمت قاصداً الإسكندرية ، وقابلنى على المحطة حضرة عديلى وذهبت معه توا إلى منزله ، وهناك كانت عروسى ، فأقمت إلى يوم السبت ٩ مايو ، ثم حضرنا جميعاً أنا وعروسى وحماتى إلى المحلة الكبرى » ...

هذا كل ما كتبه والدى فى هذا الموضوع ... فإذا قلبنا الصفحة وجدناه قد كتب عنوانا آخر فى رأسها بهذا النص والحرف :

« بيان ما صرف بسبب الزواج ابتداء من ١٥ إبريل من جيبى الخاص ... »

ثم يمضى بعد ذلك فى سرد قائمة طويلة طريفة فى تفصيلاتها ودقتها ... أذكر منها ما يلى وهى أيضاً بالحرف والنص :

١٧ قرشاً صاغا تذكرة درجة ثانية من المحلة إلى صفط الملوك فى ١٤ إبريل ...

١٠ قروش صاغ ليد عبده الخادم من ماهيته .

٢ قرشا صاغا أجرة حمار فى تاريخه .

٥ قروش صاغ أجرة التخليص على فراخ إلى الأسكندرية .

٥ قروش صاغ بقشيش للخدم يوم تاريخه .

ولم يذكر فى دفتره مناسبات هذه المصروفات ، فلست أدرى أين ركب هذا الحمار المدون أجره بقرشين ؟! ... ولماذا كان ركوب الحمار بسبب الزواج ؟! ... كما أنه لم يوضح من هم الخدم الذين نفحهم الخمسة القروش ؟! ... لكن مادام هذا كله قد دون تحت بند الزواج وبسببه فلابد أن يكونوا من خدم أهل العروس ، أى ممن يخدمون فى بيت زوج الأم وبيت العديل ؛ لأنه كان قد تنقل بين البيتين بصفة ضيف ! ...

لست أعتقد مع ذلك أن والدى كان بخيلا بطبعه . . . لأن البخل الحقيقى يجب أن يقترن بالرغبة فى كنز المال . وهو لم يكن لديه مال ليكنزه . كان فقيراً ، كل اعتماده على مرتبه البسيط فى ذلك الوقت ... حقاً كان والده يمتلك فى صفط الملوك بمديرية البحيرة نحو ثمانين فدانا . لكن ما نفع ذلك والوالد له على

ذمته أربع زوجات ، عدا المطلقات . ولكل زوجة ومطلقة أولاد منه بلغوا فى مجموعهم عدداً كبيراً ... لقد كان يحكى أن المزواجين فى الريف ، ما كان يعرف الواحد منهم أولاده أو يميز بعضهم من بعض ... كان إذا جلس على المسطبة ومر أمامه صبي منهم أو غلام سأله : « انت ابن مين ياولد؟ » فيجيبه مثلا « أنا ابن ستوتة أو خدوجة أو هانم أو خضره » وهلم جراً .. وما كانت هناك طريقة للفرز أو التمييز سوى ملابس الأولاد . يكفى النظر إلى ثياب الولد فإذا كانت سابغة متقنة التفصيل فهو من أولاد زوجة جديدة . أما من كانت أثوابهم لا تغطى الركب فهم قطعاً من أبناء القديمات ! ... فالوالد الكبير فى الريف كان يأتى أيام الأعياد بالقماش ويسلمه كله للجديدة المحظية على أنه للجميع ، فتبدأ هى بنفسها وأولادها فتفصل منه ماشاءت ، ثم تلقى بما فضل للأخريات.

كان والدى ابن الزوجة الأولى ... وقد ماتت وهو صبى . ولست أعرف بالضبط تفصيلات طفولته ، ولا ظروف تربيته الأولى فقد كان بطبعه قليل الكلام كثير الكتمان فيما يتعلق بشخصه وشؤونه . كل ما سمعت فى هذا الصدد هو أن فكرة التعليم أو

الاستمرار فيه كانت تلقى دائماً معارضة من أكثر الآباء فى الريف فى ذلك العهد . كانوا يريدون من أبنائهم البقاء فى الأرض يزرعون غير أن والدى كان يصف أباه دائماً بأنه رجل متنور وأنه جاور فى الأزهر وزامل الشيخ محمد عبده فى مبدإ الدراسة ثم عاد إلى بلدته يزرع الأرض التى ورثها عن آبائه ، وأنه لولا هذه الأفدنة التى آلت إليه لاستمر فى العلم كما استمر زميله القديم العظيم ... ولقد أدركت جدى هذا فى أواخر حياته ، فرأيت فيه شيخاً جليلا مهيب الطلعة ، يرتدى الجبة والقفطان والعمامة ، ويضع على عينيه نظارة سميكة . كانت هيئته حقاً أقرب إلى صورة الشيخ محمد عبده التى نعرفها جميعاً .

وكان والدى باراً بأبيه معظماً له مدافعاً عنه وعن تصرفاته . كان يذكر مثلا أنه لم يكثر من الزواج إلا لعدم توفيقه إلى الزوجة المرتفعة إلى مداركه ، وأنه كلما ظن أنه وفق خاب أمله . وإذا هو يخرج من خطأ إلى خطأ ، وهو مصر على تصحيح الأخطاء ، لأن تصحيح الخطأ فضيلة . إلى أن اهتدى ووفق آخر الأمر إلى الزوجة المتمدنة فسكن إليها . وهو قول معقول ... ولقد كان والدى يصف لى

دائماً ما كان يقتضيه حب العلم والتعليم يومئذ من جهد وجهاد ... فما كان يصل إلى آخر الشوط فيه إلا المصر المتشبث . فقد كان هو وبعض إخوة له ممن أحبوا كتاب القرية وتعلقوا بالتعليم ، يأتون فى كل عام دراسى جديد بمن يتشفع لهم لدى والدهم كى يستمروا عاماً آخر ... فكان – مع رغبته فى تعليمهم – يقبل بشرط أن يكون العام المطلوب هو العام الأخير ثم يعودون بعده إلى الزراعة . فإذا مضى العام عادوا إلى الرجاء مرة أخرى مقسمين أنه الأخير ... ويظل العام يلد العام إلى أن اجتازوا مراحل الدراسة التجهيزية ، وأصبح والدى على أبواب مدرسة الحقوق . فسكت عنه والده وقد طمع فى أن يرى أحد أولاده من الحكام ! ... كانوا شباباً يجاهد جهاد المستميت فى سبيل الحصول على التعليم . كل القوى كانت ضدهم : أهلهم ومجتمعهم وحكومتهم ! ... وكانوا يقنعون بالقليل ، بل بأقل القليل . كان والدى مع بعض إخوته وأقاربهم وزملائهم ممن نزحوا إلى القاهرة للطلب ، يعيشون فى سكن واحد ؟ ... ويطبخون لأنفسهم الطعام مرة كل أسبوع . هو يوم الجمعة : يوم العطلة ... أما فى بقية الأيام فكان طعامهم مما يجلب

من السوق كالجبن أو الفول . لأن إنهماكهم فى الدراسة كان يشغلهم عن إعداد طعام منزلى ... أما يوم الجمعة فهو يوم الترف والتنعم عندهم . يقبلون فيه على الطبخ . وماذا كانوا يطبخون؟... صنفاً واحداً لا يتغير لرخصه . وحسبه فخراً ولذة وإمتاعا أنه مما يطبخ على نار ... وهذا وحده يكفى : إنه العدس ...

وفى يوم جمعة اضطروا إلى ترك حلة العدس فوق النار ، فى عهدة أخيهم الأصغر وخرجوا لبعض شأنهم ، فما أن ذهبوا حتى خرج أخوهم هذا بدوره يلهو مع رفاق له – كان هو من دونهم الذى يكثر من اللعب والهرب من الدراسة ولم يفلح فى مدرسة رغم تعنيفهم له وضربهم إياه – فلما تذكر حلة العدس التى فى عهدته وعاد إليها وجد ما فيها قد غلى وفار وفاض على أرض الحجرة وامتزج بترابها ، فما كان منه إلا أن غرف بكفيه العدس الممتزج بالتراب وأعاده إلى الحلة ، ورجع اخوته بالفجل والكرات يمنون النفس بالأكلة الشهية ، وأقبلوا على الطعام فاكتشفوا التراب فى أفواههم أكثر من العدس ، فانقضوا على أخيهم وظلوا به حتى اعترف ... فضربوه – وقد أضاع عليهم طبيخهم الأسبوعى الوحيد – فهرب ...

وكان جهدهم فى البحث عنه أشق من جهدهم فى تقويمه وحثه على الدرس... وأخيراً وجدوه.. ورأى والدى بعدئذ — كى يأمن هروبه مرة أخرى — أن يربطه من وسطه بحبل ويعلقه بواسطة بكرة فى سقف الحجرة !... وهكذا كانوا إذا تركوه وحده كتفوه ثم شدوا الحبل المتصل بالبكرة فإذا جسمه قد ارتفع ولاصق السقف كأنه مصباح «كاوب» غاز !.. فكرة عجيبة تدل على عبقرية والدى لست أدرى كيف خطرت له !.. على أن كل هذا التأديب لم يمنع أخاهم هذا من ألاعيبه ؛ فقد حدث يوماً أن عاد أحدهم من البلد : أى القرية ، ومعه قدر من الأرز وأزواج من الحمام ، فاحتفلوا جميعا بالأكلة الباذخة النادرة ، وجاءوا بقصعة كبيرة يسمونها فى الريف «المنسف».. فوضعوا فيها الأرز — بعد طهوه — فصار كومة كبيرة عالية ، وسلقوا الحمام ، وكان نصيب كل واحد منهم حمامة ، جعلها أمامه فوق الأرز ، واجتمعوا كلهم حول القصعة ، وأخذوا فى الأكل... فما كان أسرع الأخ الأصغر إلى التهام حمامته بعظمها ، ثم دس يده بخفة تحت كومة الأرز ، وتسلل بأصابعه فى شبه نفق أو شبه غواصة حتى صارت تحت الحمامة التى أمام الجالس فى مواجهته

فسحبها بمهارة إلى أسفل وجذبها ناحيته... وكان صاحبها مشغولا بازدراد الأرز ، فما شعر إلا وحمامته قد اختفت من أمامه فجأة دون أن يرى يداً امتدت إليها ، ولم يتبين الحقيقة إلا عندما لمحها فى فم ذلك الأخ الأصغر... فهاج وماج وهاج الجميع لهياجه...

وقام والدى يصيح :

«هاتوا كماشة أخلع أسنان هذا الملعون !...

وخاف الأخ الأصغر من تنفيذ الوعيد فهرب... ترك لهم القطر كله هذه المرة ومضى إلى الشام على مركب شراعى ، عمل به نوتيا... ثم ظهر بعد سنوات فى بلدته وعاش فيها يزرع ويمرح ، ويمرح أكثر مما يزرع...

أما والدى فقد استمر مع البقية فى الدرس باجتهاد وصبر ، ولم يذهب مع ذلك إلى مدرسة الحقوق مباشرة كأغلب الزملاء ؛ بل فضل الإلتحاق بمدرسة الألسن مع زميل له هو «عبد العزيز فهمى» إلى أن تبين لهما فيما بعد أن مستقبل مدرسة الحقوق أفضل ؛ فسارعا بترك الألسن إلى الحقوق...

وكان فيما يبدو من خيرة طلبة مدرسة الحقوق .. عثرت بين

أوراقه وأشيائه وأنا صبى على قطعة نحاسية كنت ألعب بها ولا أعرف معناها... فلما بدأت ألم بالقراءة طالعت منقوشا عليها: «مجلة الشرائع»... وإذا هى ختم مما يختم به إيصالات الإشتراك ...

ثم وقع بين يدى عدد قديم من هذه المجلة ، قرأت عليه أن مؤسسيها هم ثلاثة من طلاب الحقوق : « إسماعيل صدقى » و « لطفى السيد » و « إسماعيل الحكيم » ... كان هؤلاء الطلاب إذن على جانب من النضج وسعة الأفق ... ما من شك أن كثيراً من طلبة ذلك العهد كانوا يدركون قيمة التكوين الثقافى ، وكان لهم جلد عجيب على الاطلاع والتحصيل — بعضهم ومنهم والدى و « عبد العزيز فهمى » — كانوا ممن اتصلوا بالأزهر بعض الاتصال وداوموا القراءة فى القرآن وكتب الفقه وغاصوا فى كتب الشعر والأدب القديمة ... وجدت فى بيتنا من تلك الكتب الصفراء عدداً يملأ صناديق وصحاحير ، انتفعت ببعضها فيما بعد ... كان جيلا مدهشا فى رجولته ... يبدو ذلك حتى فى مداعباته ومعابثاته ... ما أرى صورة تبرز هذا الجانب الفكه خيراً من تلك الصورة التى رسمها «عباس محمود العقاد» ونشرها فى أخبار اليوم «يونيه ١٩٥٤» يوم

شاءلى القدر العجيب أن أنتخب عضوا فى المجمع اللغوى فى كرسى « عبد العزيز فهمى » بالذات ... كتب العقاد يقول :

« هذه فكرة ... تأتى فى أوانها بعد استقبال زميلنا « توفيق الحكيم » بالمجمع اللغوى ... وبعد استقباله فى مكان « عبد العزيز فهمى » رحمه الله ... لم يكن يدور بخلد الأديب الفقيد الكبير أن يقدم إلينا خليفته فى المجمع حين حدثنى نحو ساعة عن توفيق الحكيم وإسماعيل الحكيم ... قال :

« الله يرحم والده ... كان مثل ابنه صاحب «تواليف» ...

ومضى يحدثنى عن إسماعيل زميله فى المدرسة ، ثم فى سلك القضاء ، فقال :

إنه «طلع فى رأسه» ذات مرة أن يخترع نوعا من التبغ غير الذى يدخنه الناس ، وتساءل :

من ذا الذى فرض علينا تبغ أمريكا وحرم علينا أن ندخن تبغا من زرع بلادنا ؟! ... وكانت تجربته الأولى فى «السعتر الجاف» وبعض الأعشاب التى يبيعها العطارون ، ولكنه لم يثابر على هذه التجربة غير أيام ... قال الأديب الفقيه الكبير رحمه الله :

وكان زميلنا فى المدرسة محمود عبد الغفار مفلوقا من زميلنا إسماعيل كرامة لهـذه التواليف أو لهذه « الفلسفة » أو لهذه «القنزحة» ... فتعمد يوما — عندما جاء دوره فى طبع المذكرات المدرسية — أن ينقص منها واحدة ، ووزع المذكرات على طلبة الفصـل جميعا ، وعددهم اثنى عشر طالبا ، ما عدا إسماعيل ...

وجاء دور إسماعيل فى طبع المذكرات بعد أسبوع ، فلم ينس ثأره القريب ، وأحال الأمر على قلة الغراء فى المطبعة ... ولكنه كشف السر ببيتين من نظمه ، أثبتهما على ذيل المذكرة وقال فيهما :

طبعت من الملازم ستتين ... وقصر فى مطابعنا الغراء

فمن يحرم فلا يعتب علينا ... فواحدة بواحدة جزاء

وقهقه الشيخ الوقور ضاحكا وهو يستطرد فى حديثه قائلا :

واطلعت على النسخ وعلمت أنها «عيطة» بين محمود عبدالغفار بسطوته الريفية ، وإسماعيل الحكيم بتقاليعه الشعرية ، وذهبت إلى عبد الغفار أقول له :

«الحق ! ... ليس لك مذكرة فى هذا الأسبوع» ...

فهجم عبد الغفار على حجرة المطبعة وانتزع الأوراق وبسطها جميعاً أمامه وانتقى أوضحها وأنظفها ومضى بها ، وإسماعيل ينظر إليه ويستمع له وهو يناديه بعد أن تخطى الباب : امضغ الستتين يا حضرة الفيلسوف ! ...

ثم روى لى قصة من قصص كثيرة بينه وبين لطفى - يعنى الأستاذ الجليل أحمد لطفى السيد - وإسماعيل الحكيم قال :

كنا نجلس على قهوة بميدان الأوبرا ، إذ أقبل علينا إسماعيل من بعيد فناديته مداعباً :

« يا مرحباً بالفلسفه ... »

فما كان أسرع منه أن قال مجيباً :

« إن لم يكن فيها سفه ... »

وعقب الأستاذ عبد العزيز فقال :

« وهكذا غلبنا ، وكان يغلبنا دائماً بسرعة الجواب وارتجال الشعر والخطاب » ...

انتهى مقال العقاد .

غير أنه عاد فكتب فى نفس هذا الموضوع بمناسبة أخرى

فى جريدة الأخبار بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٦٣ ما نصه :

« قرأت اليوم فى الصحف بشرى للمدخنين ؛ لأنهم يستطيعون قريبا أن يدخنوا سجائر محشوة بالتفاح والبنجر والخضر والفاكهة بدلا من السجائر المحشوة بالنيكوتين . . . وقبل أكثر من عشر سنوات سمعت عن خلطة جديدة للسجاير من اختراع « اسماعيل الحكيم » والد زميلنا « توفيق الحكيم » وقوامها نخبة من الأعشاب ، والزعتر على الخصوص . . . على أثر معركه من معارك اللغة فى المجمع دعانى زميلنا الكبير عبد العزيز فهمى « باشا » إلى تناول الغذاء معه بمنزله فى شارع بطرس باشا المجاور للشارع الذى أسكن فيه .

وجد شيخ القضاة عند دخوله حجرة الاستقبال نسخة من كتاب جديد للأستاذ توفيق الحكيم ، فقال متمتما :

الله يرحم والده ... هل صاحبكم ياترى كأبيه فى فلسفته ؟ ... »

قلت :

وهل كان أبوه فيلسوفا ؟ ... » قال :

« على نحو ما نعم ... كان يحب أن يبتدع له بدعة فى كل

شئ ، حتى التدخين . وخطر له يوماً أن يسأل نفسه لماذا يصنع الناس السجائر من الدخان ولايصنعونها من الأعشاب الكثيرة التى تمتلىء بها أحقاق العطارين عندنا ؟ . . . من الزعتر مثلا ، وهو أطيب رائحة وأحسن مذاقا .. وجاءنا يوما وكنت أنا ولطفى على قهوة بميدان الأوبرا ، وفى يده سيجارة من تلك السجاير الفلسفية ... ثم أخذ فى شرح فلسفته التدخينية مع فلسفات أخرى فى شتى مسائل القانون والاجتماع ، وقد كنا ندرسها معاً بمدرسة الحقوق » ... انتهى كلام عبد العزيز فهمى . ويختم العقاد مقاله بقوله : « ذكرت ذلك الاختراع القديم حين قرأت هذا الاختراع الأمريكانى الجديد وأحببت أن أذكر به زميلنا توفيق الحكيم لكيلا تفوته المطالبة بحق الاختراع الأول إذا نجحت التجربة ... وليست حجته القانونية بالتى تخفى عليه » ...

هذه الصورة الغريبة التى نقلها العقاد عن عبدالعزيز فهمى لم أرها أنا فى والدى مع الأسف . فسرعة الجواب والخطاب كانت فيما يظهر قد انتهت واختفت عندما شببت ووعيت ... اختفت صورة الشاعر الفيلسوف المتفنن بعثنونه أو لحيته الصغيرة التى كان

يربيها - كما علمت - ويتحدى بها الجميع .. إلى أن حلقها له زملاؤه إسماعيل صدقى والآخرون ليلة زفافه «رحمة بالعروس كما قالوا» ... اختفت معالم تلك الشخصية بطرافتها .

ولم أجد أنا أمامى إلا رجلا رزينا وقوراً مطيلا فى التفكر متأملا فى الكلام قبل النطق به إلى حد يكاد يوحى ببطء الفهم والبديهة ، مما أطمع والدتى وأثار فيها شعوراً بالتفوق ، فكانت تقول لى دائماً :

أنا أذكى من أبيك ... أنا أسرع فهماً من أبيك ...

كانت صورة والدى حقاً أقرب إلى الانطفاء . أما تواليفه وتفانينه وفلسفته فإنى لأعجب أنها كانت له يوماً ! ... فإن الأب الذى عرفته كان أبعد الناس عن كل هذه الأوصاف ... أترى مسئوليات القضاء والزواج والأسرة قد حطمت فيه كل شاعرية ؟! ... لست أدرى ... هنالك مع ذلك لحظات وتصرفات وأحـــوال تبدو منه أحياناً فتكشف عن المعدن القديم ؛ إلا أن لونها قد تغير ، كما تغير إطارها ؛ فهى هنا تنصب على الواقع اليومى ... واقع حياته العملية والوظيفية والزوجية ، ولا علاقة لها بالشعر والفكر والتفنن ،

ولم أسمع منه هو قط وصفا أو ذكراً لأيام شبابه تلك ، وكأنى به قد نسيها أو تناساها ...

ما الذى حدث له بالضبط ؟ ... أهو مجرد الزواج وأعبائه ؟ ... أهى والدتى بشخصيتها القوية الثائرة العنيفة المسيطرة وجهت مصير زوجها كما أرادت هى ؟ ... فحصرت نشاطه داخل الإطار العائلى المادى وحده ؟ ... لقد كانت والدتى فعلا شديدة القلق دائماً على أمر معاشها ولم يكن والدى يملك غير مرتبه ... فإن أمه كانت معدمة ، وأبوه لم يرث عنه غير خمسة أفدنة مرهونة ضاعت فى ديون التركة ... مرتب وظيفته كان إذن هو كل الضمان عند والدتى ... ظل هذا هو اعتقادى الذى نفرنى من الزواج زمنا طويلا ... لكن والدتى أكدت لى أنها لم تكن مسئولة عن ذلك ... وأن طبيعة والدى هى المسئولة ، إنه فعلا ينطوى على قلب طيب يأبى عليه أن يسير فى طريق يتعارض مع واجباته كرب أسرة ... إن الشعور بالمسئولية والواجب أقوى عنده دائماً من كل شىء ، ولكى يحتفظ بصورته المتحررة القديمة ، كان لا بد أن يصدر عنه من المخاطرات ما قد يزعزع الحياة الزوجية ... وهو لا يرضى أن يحدث ضرراً بأهل بيته

الأبريا ... هناك طريق يحتـاج أحيانا إلى الحركة الجنونية ...
لاحظت ذلك فى بعض مواقف الحياة ، وكنت أقول :

— إن مالا يحل بالعقل يجب أن يحل بالجنون ...

ولكن هناك أيضاً طبائع تأبى هـذا الحل مهما يكن الأمر إذا أضر بالآخرين ... وهذه طبيعة والدى ... إن شعوره القوى بالواجب والمسئولية كرب أسرة كان يتضاءل أيضا أمام شعوره بالتبعة والواجب كقاض ... امتحن هـذا الشعور يوم عرضت أمامه قضية التعذيب المشهورة فى البحيرة خلال الحرب العالمية الأولى : يوم دبر الإنجليز مؤامرة ضد مدير البحيرة وحكمدارها تنكيلا بهما ؛ لأنهما لم يظهرا روح التعاون معهم ... وشم والدى رائحة التهـديد والإرهاب تحـوم حوله وأحس بأن منصبه مهدد إذا عارض أو اعترض ... فما التفت إلا إلى صوت ضميره وحده وحكم بعـكس ما أراد الإنجليز ... فـكسروا حكمه وجاءوا بمن أعاد النظر فيه وحكم لهم بما أرادوا ... وتأخر والدى بسببها فى الترقية ... ثم ما كان من أمره يوم رأس محكمة أحد أعضائها انجليزى ... فلما دقت ساعة الظهـر طلب العضو

الإنجليزى وقف الجلسة ليذهب إلى منزله ويتغدى مع زوجته ؛ فقال له والدى بحزم :

جلستنا مستمرة حتى الثالثة ، وربما الرابعة ... واعمل حسابك على ذلك يامستر ما دمت معنا هنا ... أما وقف الجلسة من أجل أن تتغدى فى بيتك فمستحيل ! ...

وكظمها القاضى الانجليزى ... وجاء صاغراً فى اليوم التالى يحمل سلة صغيرة فيها وجبة خفيفة يتناولها فى الاستراحة ...

احترامه للواجب وطبعه الذى ينكر الدوران مع المصلحة والوصول .. هذا الطبع كان من أهم أسباب تخلفه عن زملائه فى سلك الوظائف ، فهو ما قفز فيها قط قفزة ، ولا روعى أى مراعاة أو حوبى أى محاباة ؛ إنما هو قد سار فيها من أول الطريق إلى آخره ببطء السائر الطبيعى الذى لا يسنده غير مجرد عمله ...

ولنعد إلى دفتره أيام شبابه ، فهو وحده الذى نجد فيه بعض الإشارات إلى حياته الماضية ، كتب يقول فى إحدى صفحاته :

« خرجت من مدرسة الحقوق ، وحصلت على الشهادة النهائية فى علم الحقوق «ليسانسيه» وانسلكت ضمن مستخدمى الحكومة ،

وعينت كاتبا «ظهورات» فى محكمة طنطا مع قاضى التحقيق محمد بك صالح وأحمد أفندى عبد الرازق » ... انتهى كلامه .

ولعل ما يستلفت النظر فيه هو أن الحاصلين على الليسانس فى ذلك الوقت على ندرتهم — كانت الدفعة تتراوح ما بين عشرة واثنى عشر طالباً — كان المتخرج منهم يوضع فى أول درجات السلم ... فلم يكن هناك من هو دونهم كما نرى ، غير السعاة والفراشين ، ومن هنا جاءت ولاشك متانة تكوينهم ؛ فقد عرفوا العمل من أساسه ، وفى مراتبه الدنيا ، وكانوا يصعدون بعد ذلك درجة درجة ... يقول والدى فى نفس الصفحة :

« وعينت معاوناً للنيابة ، ونقلت إلى ملوى ، وأقمت بها ثلاثة شهور ، ثم نقلت إلى أسيوط ، ثم إلى جرجا ... ثم عينت مساعداً للنيابة فى إيتاى البارود ، ونظراً لكون بلدنا « صفط الملوك » هى فى دائرة تلك النيابة نقلت إلى سوهاج . واعترانى مرض الدوسنطاريا ولازمنى ثلاثة أشهر ؛ فحررت خطاباً بالعربية إلى جناب النائب العمومى « كوربت بك » لنقلى إلى نيابة فى الوجه البحرى ، فنقلت إلى نيابة بنها ... ومكثت بها إلى أن نقلت إلى نيابة المحلة الكبرى ... »

وفى صفحة أخرى من الدفتر كتب يقول :

« قررت نظارة الحقانية ترقيتى مساعداً للنيابة بمرتب عشرة جنيهات شهريا ... » .

ويظهر أن والدى منذ أن بلغ مرتبه هذا المقدار بدأ يفكر فى الزواج ...

ولعل ما كان فيه من وحدة ، وما اعتراه من مرض دفعه إلى ذلك دفعاً ، وكان لابد للبحث عن العروس من معاونة الأهل ... ولم يكن بين النساء من أهله فى الريف من تستطيع القيام بهذه المهمة فى البنادر غير واحـــدة : هى زوجة أبيه الجديدة : سيدة اسكندرانية الأصل ، بيضاء البشرة ، على جانب من الجمال والتمدن جعل منها سيدة الناحية ذات الحظوة عند رب الأسرة وأولاده ونسائه القديمات جميعاً ... فأوصاها والدى كما أوصى العمة والأخت السابق ذكرهما بالبحث عن بغيته .. وأوضح طلبه قائلا :

إنه لا يريد زوجة من بيوت الباشوات التى يجلس على أبوابها الأغوات ...

كان المعروف وقتئذ أن رجال القضاء تتخاطفهم الأسر الكبيرة الثرية ، لما ينتظرهم من مستقبل فى حكم البلاد ، وقد تزوج أكثر زملائه بالفعل من بنات الباشوات . ولكنه هو — ربما لطبيعته الشعرية — لم يكن ذا مطامع من هذا القبيل ... كان كل مطلبه زوجة ذات وجه حسن وعلى قدر من التعليم والتنور . . .

وهكذا تم العثور على والدتى . . .

وذهبت العروس إلى الحلة الكبرى ... وما كادت تدخل بيت زوجها حتى صدمت ... لم تجد هناك شيئاً يؤكل ... اللهم إلا علبة صغيرة بها قليل من السمن ، قد أغلق عليها بالقفل والمفتاح كأنها علبة جواهر ! ... وسألت زوجها عن مرتبه الحقيقى فقال : عشرة جنيهات . . . فصرخت من الفزع وقالت : فقط ؟ ! . . . إن أهله عند خطبتها قالوا : مرتبه أكثر من عشرين جنيها غير اللى يخش له » ! ... فصاح فيها :

« يخش لى ؟ ... أنا وكيل نيابة ؟ ! ... أيمكن لوكيل نيابه نزيه أن يدخل له شىء غير مرتبه الرسمى . . . ومع ذلك فالعشرة الجنيهات مخصوم منها أيضا احتياطى المعاش ...

وهنا لطمت صدغيها ، كما قالت لى ، وشعرت بالخوف من المستقبل . . . فقد كانت ذات طبيعة متناقضة : فيها جرأة وفيها خوف فى نفس الوقت . . . جرأة على الناس ، وخوف على نفسها ! . . . وجعلت تفكر طويلا فى طريقة تؤمن بها

حياتها ... قالت فى سرها : إذا مات هذا الرجل فى اليوم التالى فماذا تصنع ؟ ... أما والدى فكان يرى الأمر طبيعياً ؛ لأن هذا هو الوضع بالنسبة إلى أكثر زملائه . فقال لزوجته :

احمدى ربك أنى لم أتزوجك بعد تعيينى كاتباً «ظهورات» بخمسة جنيهات كما فعل بعض الزملاء ! ... ماذا كنت ستفعلين إذن ؟! ...

على أن الأمور أخذت بعد ذلك فى التطور الحسن ... فلم يلبث أن رقى وكيلا للنيابة من الدرجة الرابعة بمرتب خمسة عشر جنيها . ورأى أن يرفه عن زوجته فعرض عليها السفر معه إلى أهله فى صفط الملوك ، ليقدمها إلى أبيه ؛ لعله يظفر منه بشىء من المساعدة . وكنت قد ولدت منذ شهور ؛ فحملتنى والدتى بين ذراعيها وركبت القطار ، ووالدى إلى جوارها . وهى فرحة بالرحلة تمنى نفسها بنزهة فى الريف جميلة : شهر عسل حقيقى وإن جاء متأخراً . . .

ولم تكن وهى التى عاشت طول حياتها أمام البحر — قد شاهدت الريف قط ؛ فكانت تخلط بين البقرة والجاموسة وهى تراهما فى الحقول من نافذة القطار ... وفجأة أحست كأن زوجها يريد أن يقول لها شيئاً ويتردد . ثم رأته قد تشجع ومال على أذنها قائلا :

« عندى كلمة أحب أن تسمعيها ، فأصغت إليه وقد توجست من نبرته ما أثار قلقها ... قال :

« إذا وجهت إليك زوجة أبى كلمة جافية فتحمليها ، ...

شعرت والدتى عندئذ — كما وصفت لى فيما بعد — بالدم الحار إياه يصعد إلى رأسها وأجابت على الفور :

« والله لو قالت لى كلمة لأرد عليها بعشرين ! ... »

فجعل والدى يستعطفها :

« أرجوك ! ... لأجل خاطرى وخاطر أبى ! ... »

فلم تجب ... ولبثت طول الرحلة مغلقة الشفتين منغصة البال ، وقد ضاعت منها لذة السفر وبهجته ... ووصلت إلى العزبة ، فوجدت هناك بيتا كبيراً ، أنزلوها هى وزوجها وطفلها فى حجرة منه ... بالجناح الذى تقيم فيه الزوجات القديمات ... كانت كل واحدة منهن تختص بحجرة هى وأولادها ... أما الجناح الآخر الأنظف فى حجراته الأحسن فى موقعه فقد كان مخصصا لرب الأسرة الكبير وزوجته الجديدة المتمدنة وأولادها ... ولم تلبث الزوجات القديمات أن أحطن بوالدتى وجعلن يحذرنها

من غطرسة الجديدة وكبريائها ... وكانت إحداهن تفصل ثوباً بمقص فى يدها وهى تقول :

« غداً ترشقك بكلامها الحاد كالسيف » ...

فأجابت والدتى فى انطلاقة السهم :

« والله لأقطع لسانها بهذا المقص الذى فى يدك ! ... »

ولم تمض ساعة حتى كانت هذه الكلمة قد نقلت بنصها إلى سيدة المكان ! ... ولا تدرى والدتى كيف نقلت ولا من التى نقلتها من بين الحاضرات ... كل الذى تعلمه وتذكره دائماً طول حياتها ولا تنساه هو أن الدنيا قامت وقعدت ... وإذا بمحكمة تنصب ، وإذا بسيدة البيت تصيح بأعلى صوتها :

« نادوا سيدكم الكبير ! ... »

وإذا برب البيت يحضر بوقاره وشيبته وجبته وقفطانه ويجلس فى صدر المكان ويطلب والدى ويأمره بأحضار زوجته لتسأل هل تلفظت حقاً بهذه الكلمة ؟! ...

وحضرت والدتى تحملنى بين ذراعيها ، ووقف بجوارها والدى يهمس فى أذنها أن تكذب مانقل عنها .. ولكنها قالت له بعصبيتها :

قلتها وأقولها مرة أخرى فى مواجهتها .

فأفهمها والدى أنها إذا أصرت على هذا الموقف فإنه سيضطر إلى طلاقها ... كانت والدتى تذكر لى مركزها هذا الدقيق وهى مهددة بالطلاق وعلى ذراعها طفل ... وليس أمامها إذا وقعت الواقعة إلا شماتة زوج أمها الذى كان يعتقد دائماً أن مثلها لن يفلح فى زواج ... لن يكون لها من مصير إلا المعيشة فى بيت أختها التى تكرهها ، والموت أهون لها من ذلك ... لكنها على الرغم من هذا كله لم تفكر فى تلك اللحظة إلا فى موقفها المهين أمام تلك المحكمة العجيبة المنصوبة لأذلالها ، وهى العروس الضيفة ! ...

وجعلت تنظر إلى الوجوه المحيطة بها .. إن جميع من فى هذا البيت الكبير قد حضر المحاكمة ... كل الزوجات القديمات وأولادهن ومن كان بالدربة من إخوة زوجها ونسائهم ... لم يبق أحد لم يحضر ليشاهد ، أو ليشهد بالحق وبالباطل إرضاء لسيد البيت ونفاقاً لزوجته المفضلة .. لم يكن لها وقتئذ — وهى الغريبة — من سند وظهير بين كل هؤلاء إلا زوجها ... ولكن زوجها كان كل همه أن لا يثير أزمة ... كان يريدها أن تكذب

أو تعتذر . . . وكانت هى تنتظر منه أن يقف إلى جانبها وأن يثور لها وأن ينافح عنها ضد زوجة أبيه ... ولو أدى الأمر إلى انسحابه والعودة معها فوراً من حيث جاءا ... لكنه وقف إلى جوارها كى يحثها على الإنكار أو الاعتذار ... ولم تقبل هى واحداً منهما ... لقد أصرت على أنها قالت ما قالت ، وأن من يتجرأ على إهانتها فإنها تقطع لسانه بالمقص ..وكررت الكلمة ... وعند ذلك صرخت سيدة البيت وأهابت بالسيد الكبير أن ينزل سخطه ونقمته على زوجة ابنه السليطة ...

تقول والدتى إن والدى سحبها من يدها وهو يهمهم بكلمة الطلاق أو يهدد بها ... وخرج بها إلى حجرتها ... كانت تقص علىّ والدتى هذا الموقف وهى منفعلة وتختم بقولها :

« خذلنى أبوك يومها ... خذلنى بنذالة ! ... » .

لم أكن مع الأسف فى السن التى تعى ما حدث ، لأصدر رأيى ، ولم أسمع القصة من والدى ولا رأيه فيها . . . ولكن الذى أعلمه أن والدى كان باراً بأبيه ، شديد الحرص على إرضائه ، وعلى إرضاء زوجة أبيه كرامة لأبيه .. قالت والدتى إن الموقف

لم ينقذه إلا السيد الكبير نفسه ... فقد احترم فيها الشجاعة ... وأدرك أنها ليست من طراز أولئك الزوجات القديمات ، وأنه لا بد لها من معاملة أخرى ... فسعى إليها فى حجرتها ، ولاطفها وأصلح الأمور بينها وبين زوجته ...

لكن والدتى خرجت من رحلة الريف هذه بأمرين : الأول تهيئة أطرتها المتشائمة إلى مثل هذه الحياة الزوجية ... والثانى ضرورة إيجاد مورد مالى لها يحميها من غوائل الدهر ... فما أن عاد الوفاق بينها وبين زوجها على أتمه ، وآنست منه إخلاصا وعطفاً ، حتى فاتحته بهدفها ، فقال لها إنه فلاح ولا يفهم إلا فى الأرض ! ... وكان لها من حصتها فى البوغاز ومن نصيبها فى البيت الكبير الموروث عن أبيها قدر من المال ، استطاع زوج أختها بما طبع عليه من شهامة ومروءة وأخلاق كريمة أن يستخلصه ويدخره لها ... جهزت بجزء منه ، والجزء الباقى اشترى لها به عقاراً صغيراً فى حى رأس التين ... ولم يكن جهازها قد تم نقله كله إلى المحلة الكبرى ، فكتبت إلى زوج أختها تسأله أن يعرض الجهاز المتبقى للبيع وكذلك العقار ... وقد تجمع لها من كل ذلك ما يقرب من

ألف جنيه وعادتها والدى خير معاونة وأصدقها فى هذا المشروع ... وجعل يبحث لها طويلا عن بغيتها ...

فى صفحة من دفتره الصغير فقرة لا أدرى أكانت تتعلق بهذا الموضوع أم بغيره ... هذا نصها :

« ١٥٧٠ (ألف وخمسمائة وسبعون فدانا) ... بناحية البلقون تعلق المرحوم أمين باشا سيد أحمد صهر حضرة اسماعيل بك صدقى ... الوصول إليها بطريق الترمواى من كفر الدوار إلى محطة سيدى غازى ... الأرض المذكورة هى بجوار عزبة الخواجة مترى وعزبة الخواجة بابا المعروفة بعزبة شاكر شقير وعزبة الخواجة صيدناوى ، الثمن المطلوب خمسة جنيها للفدان ... ولكن المراد أخذها من ٢ جنيه إلى ٣ جنيه ... »

هذا ماسطره والدى بالحرف ... ولم يتم بالطبع شراء هذه الصفقة ... لكن من جهة أخرى هذا الفدان الذى عرض للبيع بمبلغ خمسة جنيهات ، وأراده والدى بجنيهين أو ثلاثة ، ماذا كان نوعه وصفته ؟ ... وماذا كان يمكن أن يثمر ؟ ... لاشك أنه كان سيحتاج إلى استصلاح بأضعاف ثمنه ، وكان سيغرق فى رماله وسبخه

وملحه ما ادخرته أمى وما يمكن أن تدخره طول حياتها ...

ووالدى له من النصائح المالية ما يغرق للآذان ، كما سنرى فيما بعد ... فعلها معى أنا نفسى مرة عقب الحرب العالمية الأولى ... عندما هبطت قيمة المارك الألمانى بعد هزيمة ألمانيا ... كنت قد ادخرت عشرة جنيهات ، جمعتها من مصروفى طول عهود دراستى بالصبر والحرمان ... فجاء ذات يوم يزف البشرى ويقول :

إن المليون من الماركات سعره الآن فى البورصة عشرة جنيهات ...

وظل بى يغرينى حتى دفعت له الجنيهات العشرة مدخرى كله ، فذهب بها وعاد إلى بشيك طويل عريض على « الدويتش بنك » تحرر عليه بالألمانية مليون مارك .. قدمه إلىّ وقال بلهجة الانتصار :

« أنت الآن يا ولد مليونير » ! ... كان دائماً ينادينى بلفظ « يا ولد » أو « يا ولد يا توفيق » ... حتى بعد تعيينى عضواً بالنيابة ! ... وجعل يحسب لى بالقلم والورقة وهو يقول :

« لابد من ارتفاع سعر المارك غداً ... لأنه من غير المعقول أن يظل هكذا فى ألمانيا عندما تستتب الأمور ... فلنفرض مثلا

أن قيمته ستصبح قرشا واحداً ... إذن سيصبح معك عشرة آلاف جنيه ... فلنفرض أسوأ الفروض ولنقل أنه أصبح بنصف قرش إذن سيكون عندك خمسة آلاف ! ... خمسة آلاف جنيه على أسوأ فرض ! ... ما رأيك ؟ ...

وجعلت أحلم بهـذه الآلاف ... إلى أن أعلنت الحقيقة ذات يوم ... الحقيقة المرة ... لقد قررت ألمانيا إلغاء هـذا المارك ... وأصبح الشيك الطويل العريض الذى فى يدى حبراً على ورق ! ... وضاعت جنيهاتى العشرة ! ..

لم أغتفر لوالدى يومئذ تلك النصيحة المالية التى خربتنى ! ... لذلك لست أشك فى أن تلك السطور التى دونها فى دفتره هى من وحيه المالى ، وأن اتجاهه إلى البحث عن الأطيان التى تعد بالألوف وتشترى بالقروش إنما هى من بنات أفكاره ! ... ولكن الله سلم ! ... لم يتحقق حلمه الذهبى ... بل تحقق شئ آخر :

ظهر فى ذلك الوقت قريب لإحدى زوجات جدى القديمات ، كان رجلا طيباً يحب والدى وأراد أن يخدم والدتى ... سمع بنصح من نصحها بشراء عشرة فدادين فقط جيدة بمبلغها هذا ... فرفض

هذا الرأى وقال لوالدتى : والله لأعثر لك على عزبة لا تقل عن سبعين فدانا يمكن مع العمل أن تصبح جيدة . » وكان ما قال وعثر لها فعلا على عزبة بهذا القدر بناحية أبى مسعود ... كانت تسمى عزبة نورى ، معروضة للبيع بثلاثين جنيها للفدان ... صالح أكثرها للزراعة ...

وهنا برزت عقبة كبرى . جملة المبلغ المطلوب ٢١٠٠ جنيه ... وكل المتحصل الموجود فى يد والدتى حوالى ألف لا غير .. ما العمل ؟ ... لم يكن هنالك من سبيل لشراء هذه الأرض إلا اقتراض الباقى من البنك العقارى ... وتم السعى لدى البنك فقبل بشرط أن يوفد خبيراً يقدر قيمة الأطيان ... وكان الخبير ـ لحسن المصادفة ـ من أصدقاء والدى منذ عهد الدراسة ... كانا متجاورين فى الحارة المذكورة التى سكنوا فيها أيام الطلب ... أصبح مهندساً ومقاولا وخبيراً ... وقد ظل صديقاً للعائلة طول حياته ... سيأتى ذكره هنا فيما بعد ، فلأذكر إسمه الأول فقط « يوسف » ... هذا المهندس الصديق « يوسـف » ... قدر الأرض تقديراً طيباً سمح للبنك أن يقرض المبلغ على أن ترهن له الأطيان ، ويسدد الدين على مدى ثلاثين عاما بالفائدة ... أسرد هذه التفاصيل ، لأنى عشت طول شبابى الأول ،

وتخرجت فى مدرسة الحقوق ، وسافرت إلى أوربا وعدت منها وعينت عضواً بالنيابة ، والرهن قائم والفوائد تدفع والأقساط تسدد ، وهذا القرض لا يزال راسخاً عتيداً لا يريد أن يزول !...

ووالدتى تعترف دائماً لوالدى بجميل سعيه وجريه واجتهاده بكل همة واخلاص فى موضوع شراء هذه الأرض ، حتى تمت كل تلك الإجراءات المضنية اللازمة لعقد شراء الأطيان وتسجيله .

غير أنها فوجئت - كما تقول - ذات يوم فى غيبة والدى باستلام أوراق ، ما أن اطلعت عليها حتى جن جنونها : لقد اكتشفت أن زوجها كتب لنفسه ثلاثين فدانا من الأطيان وكتب باسمها الأربعين الأخرى . ولكنها ليست باللقمة السائغة ولا الفريسة الهيّنة . إنها لم تكد ترى وجهه حتى استقبلته بالصراخ والزعيق واتهمته بسوء استغلال التوكيل عنها ، ورمته بألفاظ النصب والاحتيال ، وظلت به تنكد عليه عيشته بما طبعت عليه من صلابة إرادة حتى استسلم وأذعن . ونهض يصحح الوضع كما شاءت هى . وبذلك أصبحت حجج الأطيان كلها باسمها هى وحدها ...

كل هذا وقع وأنا فى السنوات الأولى من عمرى ... فى تلك السن التى لا تستطيع معها الذاكرة أن تخترق الضباب الكثيف المحيط بها ... فنحن عندما نريد أن نرتد بذاكرتنا إلى الطفولة نجدها قد انتهت إلى شبه جدار أسود أصم نصطدم به ... لا نبصر بعده شيئاً ... اللهم إلا بعض صور مبتورة غامضة ، نحار فى معناها ، ومهما يحاول الكبار تفسيرها لنا ، فإن هذا التفسير يبدو أضأل بكثير من الحجم الهائل الذى تبدت لنا فيه ... ذلك أن كل شىء لمرك فى عالم الطفولة اتخذ أشكالا لا يستطيع عقل الكبار أن يحيطوا به ليفسروه على حقيقته التى ظهر بها فى ذلك العالم الصغير الكبير الغامض ... من ذلك منظر تلك العفاريت ، المتدثرة فى البياض أو السواد ، التى كانت تظهر لى خلف الأبواب ، ثم تختفى بسرعة البرق ! ... كنت أرتاع منها أشد الروع ، وكنت أحار فى تعليل طريقة ظهورها واختفائها ... قيل لى فيما بعد إنها الخادم والمرضعة كانتا تتدثران فى ملاءة الفرش البيضاء أحياناً وفى ملاءة سوداء ،

لتخيفانى وتسكتانى... ذلك أنى كما يروون كنت طفلا مزعجاً ... « بشقاوته وعفرتته » ... كان همى إلقاء أدوات المنزل وأوانيه من ملاعق وشوك وسكاكين وأطباق وغيرها من النافذة . والفرجة عليها والمرح بمنظرها وهى ملقاة بالطريق ... وتعدى الأمر ذات يوم إلى « نميسة » ذهبية للمرضع اشترتها بكل ما ادخرته من أجرها غافلتها وانتزعتها من صدرها وألقيت بها فى الطريق ... وكان باب المنزل قد أغلقته علينا والدتى بالمفتاح .. كعادتها عند خروجها لزيارة ، حتى لا تنزل بى المرضعة إلى الطرقات . . . فلما ألقيت بالحلية الذهبية ، وقفت صاحبتها فى النافذة تنظر إليها وهى ملقاة فى الشارع وقد أصابها الخبل وجعلت تصيح وتستغيث بالمارة والجيران ، وأنا أنظر إليها ضاحكا من منظرها كما قالوا . . .

لا أذكر تماما مثل هذه الحوادث . . إنها وقعت ولا شك فى مرحلة خارج منطقة الوعى عندى . . . كل ما أستطيع أن أذكره وأعيه فى تلك المرحلة هى صور العفاريت المتدثرة فى البياض أو السواد ! . . . هذا ما استطاع أن يعلق بذاكرتى على نحو باهت غامض . . .

ثم عقب هذا العهد مرحلة أخرى أكثر وضوحا : مرضى الطويل . . . لقد ولدت فيما علمت ممتلىء الصحة ... ولكن هذه الصحة لم تدم أكثر من سنوات قلائل ، أربع أو خمس . . . ثم ألمت بى الأمراض ... إنى أذكر هذه المرحلة ... يخيل إلى أن المرض كان مقيما بجسمى لا يزول إلا ليعود ... لست أدرى أى نوع من الأمراض ... لم تكن فقط مجرد أمراض الأطفال المعتادة ، من حصبة وسعال ديكى وإسهال ونحو ذلك . . . إنها كانت أمراضاً أخرى ، علاوة على أمراض الطفولة تلك ، استغرقت عندى سنوات متتالية . . . كانت فترات الشفاء أندر من فترات المرض ... أذكر أن جدتى قالت لى يوما ونحن فى الاسكندرية ذات صيف : سآخذك لزيارة مقام سيدى الطرطوشى ! ... وهو مشهور بشفائه للأمراض ، وخاصة للحمى التى كانت تلازمنى ملازمة الرفيق السوء ... كان هنالك شرط لا بد منه : أن أفى بنذره المعروف : وهو الامتناع التام عن أكل الجبن الرومى ... كان يقال إنه يمقت الجبن الرومى ... وكنت بالطبع أصغر سناً من أن أناقش هذا القول ، وأسأل : هل سيدى الطرطوشى ، وهو من أولياء الله

الغابرين ، كان معاصراً لظهور الجبن الرومى ؟! ...

نذرت له ذلك النذر بكل إخلاص الطفل المؤمن الساذج ، ونفذته بكل أمانة ودقة ... أذكر أنى لبثت مدة طويلة لا أقرب هذا الجبن ولا أمسه بشفتى مع حبى الشديد له ... وشفيت فعلا ...

صورة أخرى أذكرها باهتة هى الأخرى فى تلك المرحلة ... هى مرض أمى الطويل .. فقد رأيتها صفراء الوجه ، كثيرة الرقاد فى فراشها ، نحيلة إلى حد مخيف ... قيل إنها منذ ولدتنى أصابتها العلل ... كانت قبل حملها بى ممتلئة بالصحة إلى حد جعلها لا تشبع من الطعام ... وكانت تخجل من إظهار جوعها أمام زوجها ، وهى العروس الجديدة فى بيت الزوجية ... فكانت تكمل وجباتها خفية فى غيبة زوجها بما تقع عليه يدها من أى شىء يؤكل تصادفه ... ولكن الحمل الأول بى ، ثم الولادة ، قد أضرت بها ضرراً بليغاً ... قال لها أحد الأطباء إن كلية من كليتيها انخلعت من مكانها ، وإنها ربما ارتدت إلى موضعها بحمل آخر ... وتعلق بذاكرتى حتى الآن صورة سلة صغيرة حمراء بها فاكهة كانت دائماً بجوار فراشها ... فقد كان موصوفا لها الإفطار بالفاكهة ... كنت أختلس النظر إلى

هذه الفاكهة ويسيل لها لعابى ولا يباح لى الدنو منها ... فقد قيل لى إنها دواء من الأدوية ... وكان والدى طول مرض والدتى لا هم له إلا العمل على شفائها واستشارة الأطباء فى كل مكان ... ولما طال المرض وتغير شكل والدتى نصحه أقرباؤه فى الريف أن يكف عن شغل نفسه بامرأة مريضة ، وأن يفكر فى الزواج من أخرى صحيحة سليمة ... فكان يأنف من الإصغاء إلى هذا الكلام ... وعكف على الاطلاع بنفسه فى كتب الطب ليتحرى عن دائها ، بعد أن يئس من الأدوية والأطباء ... رأيت كتابا بالفرنسية جاء به والدى ، ضخما من ثلاثة أجزاء — لم يزل عندى حتى الساعة — يبحث فى الجسم البشرى ، ويصور أعضاءه الداخلية فى لوحات ملونة مكبرة ... فالكلية تملأ صفحة ظهرت فيها كل تفاصيل تكوينها مع شرح لوظيفتها وما تحتاج إليه لاستمرار عملها بانتظام ... كان والدى الذى لا يكل ولا يمل يأتى من عمله القضائى فيطالع هذا الكتاب بدقته المعهودة ، ليقف بنفسه على سر المرض ... كل شىء كان يدرسه بنفسه — بما فطر عليه من صبر وجلد ومثابرة وقوة احتمال — دراسة دقيقة مستفيضة ، كأنها قضية من

القضايا ، لعل ذلك أيضاً أثر من آثار التكوين الأول لجيله المتين القديم الدؤوب على البحث والتمحيص ...

وكنت أنا ألهو بصور هذا الكتاب أحياناً ، وتجذبني إليه ألوانه الزاهية وجلدته المذهبة ، يدهشني أن هذا الكتاب بقي حتى اليوم في حوزتي ، ينتقل معي من بيت إلى بيت ، ومن عمر إلى عمر ، دون أن يفقد ، وبغير أن يلقى مني عناية خاصة في الاحتفاظ به ... يظهر أن للكتب أقداراً وأعماراً مماثلة لأقدار الناس وأعمارهم يعمر منها مايعمر بغير ماسبب ، ويختفي منها ما يختفي بغير ماسبب أيضاً !.. هذا الاخلاص من والدي كان له أعمق الأثر في نفس والدتي ، كما تقول ... فقد أدركت منه مبلغ تقديسه للواجب وحرصه على الزوجية ... وقد أخلصت له هي أيضاً وأحبته كثيراً .

وبعد ميلادي بعدة سنوات وضعت والدتي أخي الأصغر والوحيد ... وسماه والدي «زهير» ... تيمنا باسم الشاعر الجاهلي «زهير بن أبي سلمى ، الذي كان يحفظ معلقته المشهورة ... ومامن شك أن والدي لو كان حاضراً ولادتي لأسماني باسم من هذه الأسماء !... فكنت اليوم أدعى «امرؤ القيس الحكيم» أو طرفة أو لبيد

ونحو ذلك ... ولكن الله سلم ! ...

وتريد سخرية القدر أن يكون «زهير» أخي هذا من أبعد أهل الأرض عن الشعر وسيرته !... لم ينطق فمه يوما ، ولو على سبيل المصادفة ، ببيت واحد من الشعر . كان اتجاهه في الحياة منذ نعومة أظفاره إلى نقيض الشعر والأدب والفن وكل مايقترب من هذه المنطقة ... وجهاته في الحياة — كوالدتي — مادية عملية بحتة ... وهواياته هي الرماية والصيد والسباحة والرقص ولعب الورق وغير ذلك مما لا أستطيع أنا وصفه أو التفكير فيه .

وظلت أمي بعد ولادته على مرضها قليلا ، ثم أخذت في التحسن البطيء إلى أن اقتربت من الشفاء ... وكانت تحب الحلوى وتأكلها بعد وجبة الغذاء ، وتقول لي عندما أمد يدي إليها بخوف ورجاء : إنها أيضاً دواء وصفه لها الطبيب ... ولكن يظهر أني لم أعد أقتنع بهذا القول ... فكانت إزاء وقفتي الطويلة المستجدية كشحاذ صغير يلتمس الحسنة ، تلقي إليّ بقطعة منها قائلة : «خذ ورح في داهية !...» فإذا جاء موعد الغذاء التالي ذهبت إليها أمد يدي وأقول : «اعطيني واحدة وقولي لي رح في داهية !...» أما أخي الأصغر فإنه عندما

كبر قليلا لم يكن يمد يده بالسؤال ، بل كان يقتحم ويخطف من
يدها خطفاً ما يراه قبل أن يختفى فى فمها . . . فعمدت إلى غلق
حجرتها عليها بالمفتاح عندما تتناول حلواها ، تحاشياً من هجومه
وخطفه . . . لكنه كان أحرص وأمكر . . . فما يكاد موعد
الوجبة يقترب حتى يكون هو أسبق إلى الحجرة ، يختفى تحت
فراشها ، ويتربص بها حتى إذا أغلقت بابها واطمأنت وأخرجت
الحلوى ودنت بها من فمها ، خرج هو من مكمنه منقضاً خاطفاً
ناهباً كالصقر ، لا يفلت منه شئ ! ...

كان أخى منذ طفولته عنيفاً جريئاً ... ولعله ورث ذلك عن
والدته ميراثاً كاملا ... فكانا بذلك من معدن واحد ... مما سبب
لها هى كثيراً من المتاعب ... أما أنا فكنت كلما كبرت ملت إلى
الهدوء والتأمل واتخذت الكثير من سمات أبى ، لكن مع بركان
داخلى فى أعماقى هو « والدتى » مثل بركان « فيزوف » ينشط ويخمد
فى فترات ودورات . . . كانوا فى صغرنا يضعوننى أنا وأخى
فى سرير واحد ، لضيق المساكن التى كنا نقطنها . . فإذا جاء الشتاء
تنازعنا طول الليل الغطاء ... وما كنت أشعر إلا وأخى قد شد عليه

الغطاء كله بعنف وتركنى فى العراء ، ثم ما يلبث هو أيضاً من
كثرة حركته العصبية العنيفة أن يترك الغطاء ينحدر من فوق
جسمه ... فكان يصاب كلانا بأمراض البرد ، مما ألجأ أهلنا إلى اختراع
عجيب ، طالما ضايقنا : فصلوا لنا غطاءنا من البطاطين على شكل
كيسين مثل أكياس القطن ، يدخلون كل واحد منا فى كيس بجسمه
وذراعيه ، فلا يظهر من فتحته إلا الرأس فقط ، ثم يشدون على
العنق رباطاً كرباط التكة ، ويلقون بالكيسين فوق السرير ، لنمكث
هكذا ونحن داخلهما بلا حراك حتى الصباح . . . كنت أدخل
أنا كل ليلة فى زكيبتى وأنا أكتم تضررى وضيقى ، ولكن أخى
ما كان يكتم شيئاً ... طبيعته فى هذا أيضاً كطبيعة والدته . . .
وعلى عكس طبيعة والدى . . . لا يستطيع أن يكتم أو يكظم . . .
لذلك كان يصيح ويحتج ويلعن ويسب ويحرن ويأبى الدخول
فى كيسه ... ويظلون به يلاطفونه ويحتالون عليه بمختلف الحيل
حتى يرضى ويلين ... كان له من الصياح والزعيق طريقة يخيف بها
والديه أحياناً ويضحكهم أحياناً ، فينتهون دائماً إلى النزول على
إرادته ... كنت أرتكب أنا وهو نفس الذنب ... كأن نتسلق معاً

جداراً للجيران لنسرق ليمونة من شجرة ، أو نتقاذف شيئاً فنصيب به لوح زجاج فيكسر ... ويأتى أبى بالفلقة ليضربنا ... فإذا أنا الذى أتقبل العقوبة وأضرب بالفعل ، أما أخى فما يكاد يجئ دوره حتى يصيح ويتشنج ويبكى ويلعن ، مما يحمل والدى على الذهول عنه أو الضحك منه ، ويفسد بذلك موقف الجد ، فيضطر إلى أن يتركه ويمضى ...

على أن طفولتنا بوجه عام لم تكن طفولة مدللة . . . فأنا لا أذكر أنى تلقيت من أهلى لعبة من اللعب ... إلا مرة : دخل علينا والدى وفى يده وابور صفيح صغير فى حجم الأصبع ، يباع فى الشوارع بنصف قرش ، قدمه إلىّ بزهو وهو يقول :

« خد العب ياوله ! » ...

فلم أفرح به كثيراً ؛ لأنه كان ضئيلا جداً ، ولا يسير إلا دفعا باليد ... لا يملأ بمفتاح ، ولا يبهر لونه النظر . . . ولم نكن نعرف هذا الذى يسمونه اليوم عيد الميلاد ، ويصر على الاحتفال به أولادنا وأحفادنا ، ويطالبون فيه بالحلوى والشموع والهدايا وإرسال الدعوات ... ما كنا نذكر قط أو نعرف لنا أيام

ميلاد ... ما كنا قط نعطى ولا كان أحد يعطى لحياتنا أو تاريخ وجودنا مثل هذه الأهمية ! ... اليوم الوحيد الذى كنا نشعر فيه بجديد هو يوم العيد ، الكبير أو الصغير ؛ فقد كنا نتلقى فيه خمسة قروش « عيدية » ... كنت أنا شخصياً أكتفى باللعب بها طوال أيام العيد ؛ ثم أردها بعد ذلك إلى أهلى دون أن أنفقها ...

غير أن قدوم العيد كان هو حقاً كل فرصتنا لشراء ما يلزمنا من ملابس جديدة تنفعنا طول عامنا ... فكانوا يأخذوننا إلى محل يسمى « ماير » ثم إلى آخر يسمى « ستاين » ، وهناك يقوم دائماً بيننا العراك والصراع ... فوالدى يبدأ أول ما يبدأ بقراءة بطاقة الثمن ... ثم يأخذ فى تقريظ وتحبيذ النوع الأرخص ، أما نحن فلا ننظر فى بطاقات ، ولكن نتجه بأبصارنا تواً إلى ما يحلو لنا ، فإذا بنا قد وقعنا على الأصناف الغالية ! ... لكن من ذا الذى كان يستمع إلينا ؟ ... كان والدى يشير من طرف خفى إلى البائع فيلف لنا فى الورق بسرعة ما اختاره هو لنا ... فنمضى به صاغرين ...

تأتى بعد ذلك مرحلة أكثر وضوحاً .. مرحلة عجيبة لا أدرى كنهها حتى الآن .. ظاهرة لم أستطع لها حتى اليوم تعليلا طبياً ...

كنت أصاب بحمى تلزمنى الفراش نحو ثلاثة أيام ، كلما وقع بصرى على جنازة مارة فى الطريق . . . وعرف أهلى ذلك عنى فكانوا يحرصون على تجنيبي منظر الجنازات ... أذكر يوماً كنت مع جدتى فى مركبة عائدة بنا من السوق إلى البيت ، وكنت فى أتم صحة وسرور وإذا جنازة تظهر فجأة عابرة شارعا بعيداً ، أبصرتها عين جدتى فسارعت تهمس للحوذى أن يحيد بمركبته عن ذلك الشارع ، وحسبت المسكينة أنها قد أفلحت فى إنقاذى من الحمى هذه المرة ... ولكنها شعرت برعدتى ورأت وجهى يشحب ويتصبب منه العرق فأدركت أنى لمحت الجنازة ساعة لمحتها هى وأن الحمى سرت فى جسمى وانتهى الأمر ...

ما العلاقة بين شىء معنوى خارجى كمنظر جنازة مارة ، وهذه الإصابة السريعة بمرض مادى جثمانى كالحمى ؟! ... لم يخطر على بال أحد هذا السؤال ... كانوا يكتفون بعلاج الحمى بكمدات الملح والخل ونحو ذلك حتى أبرأ ، وتتكرر الإصابة لعين السبب ، ويتكرر عين العلاج ، وهكذا دواليك . . . أتراها قصة ملك الموت . . . التى رواها « جوته » فى إحدى قصائده الرائعة ؟ . . .

حكى أن طفلا تعلق بصدر أبيه ليحميه من صوت خفى يغريه برائع الهدايا واللعب والأزهار كى يذهب إليه ... ويمضى معه... وحسب الأب كلام ابنه عبث أطفال فلم يأخذه مأخذ الجد ، فما بلغ به عتبة البيت حتى كان الطفل قد فارق الحياة ! ...

أترى الأطفال فى صفائهم الملائكى يحسون ويسمعون دبيب أقدام ملك الموت ؟! ... أذكر فى طفولتى أيضاً مثل هذا الحدث الغريب وقع لطفلة لطيفة رقيقة هى عمتى ... ابنة الزوجة المتمدنة لجدى ... ذهبنا إلى عزبتهم فى صفط الملوك مرة أخرى ذات صيف ، وقد صفت المودة بين تلك الزوجة ووالدتى ... وكان أطفالها أى أعمامى وعماتى يقاربوننى فى السن ... فكنا نمضى يومنا فى اللعب بجوار ساقية مهجورة تحف بها زراعة قصب وذرة ... وجعلنا فيما أذكر نصطاد العصافير ونجرى خلف طائر أبى الفصاد... لكن تلك العمة الطفلة الجميلة كانت ترغمنا إرغاماً على لعبة واحدة لا تتغير ، تصر على تكرارها هى بعينها كل يوم : كانت تقع على الأرض ممثلة دور المريضة ثم تتصنع كأنها تموت ما من مرة لعبنا فيها معاً إلا ومثلت دور الموت ! ... أذكر أن قلبى

كان ينقبض انقباضاً شديداً لهذه اللعبة ... إلى أن رحلنا وفارقتنا عمتى الطفلة ... فما كاد يمضى عام حتى سمعتهم يقولون إنها ماتت ...

إنى فيما وقع لى أعتقد أنى كنت محلا لصراع عنيف بين قوتين : قوة الموت وقوة الحياة ... وكانت الحرب بينهما سجالا ... ولكن الجسم كان يتخاذل منهوكاً محموماً فى ميدان ذلك الصراع الخفى ، وانتصرت قوة الحياة ... وولت أيام الطفولة ، وأسدل العقل ستاره الصفيق على صفاء الروح ، فلم تعد تسمع دبيب خطوات ملك الموت ... ولم يعد منظر الجنازات يهزنى . وشفيت من الحمى ، لكن داءاً آخر بدأ ينمو عندى بنمو العقل : إنه القلق ... لم أستطع منه فكاكا طول عمرى ، إنى فى حالة قلق دائم طول حياتى ... حتى عندما لا أجد مبرراً لأى قلق ، سرعان ماينبع فجأة من تلقاء نفسه ... هذا القلق الروحى والفكرى لا ينتهى عندى أبداً ولا يهدأ ... إنى سجينة سجن الأبد ... ولا أدرى له تعليلا ...

شىء آخر لا تعليل له عندى أيضاً : كنت أنطق أحياناً بكلام يشبه التنبؤ ... من ذلك أننا كنا نقطن — بمدينة ريفية

صغيرة — بيتاً يشرف على السكة الحديدية ... وفى ذات يوم وذات ساعة مر قطار من تلك القطارات التى تمر بنا كل يوم كل ساعة ... ولكنى أشرت ساعتئذ إلى ذلك القطار بالذات وصحت بلا مناسبة : جدتى فى هذا القطار ! ... وما كان أحد يذكرها أو يتوقع حضورها ... فقد كانت مقيمة منذ شهور طويلة عند بنتها الكبرى فى الأسكندرية ... ولم تمض لحظات حتى ظهرت جدتى بالفعل داخلة بحقيبتها على غير انتظار ! ... وفى يوم آخر جاءنا تلغراف بأن أحد أعمامى الكبار توفى .. كان يدعى محمود... لم يذهب إلى مدارس كما فعل أبى ... بل اشتغل من أول الأمر بالزراعة ... ثم استأجر أطيان والدتى التى اشترتها ، لمدة خمس سنوات كما اشترط ... فزع والدى ووالدتى للخبر وقاما فلبسا السواد للتعزية وجهزت الحقائب لسفر والدى ... ولكنى ضحكت — كما قالوا — وصحت بهم :

لا تسافروا ... إنه لم يمت ! ...

ولم تمض ساعات إلا وكان عمى هذا داخلا علينا يحمل سلة كبيرة بها بيض وجبن وطواجن الحمام بالأرز الفلاحى ... واتضح

أن التلغرف محرف ... كان المقصود « محمود توجه اليوم ... »

فأخطأ عامل التلغراف وكتب « توفى » بدلا من « توجه » ...

فى ذلك الزمن كان الخطأ شائعاً فى التلغرافات لحداثة العهد بها وقلة مران الموظفين عليها ...

روى لى أهلى فيما بعد أنهم كانوا يعجبون لمثل هذه الحوادث منى ... أما أنا فما كنت بالطبع أرى فيما أفعل عجباً .. لأنى ما كنت أعى أو أعقل ما أقول وأفعل ...

لست أعتقد أنى كنت مختلفا عن غيرى من الأطفال فى تلك السن ، التى هى دون العاشرة ، أو على أبوابها ... لعل تلك هى إحساسات الجميع فى مثل هذا العالم الصغير العميق العجيب ... حاولت أن أرجع بذاكرتى إلى حدود تلك المنطقة لأعرف: هل كان لى وقتئذ نوع من الإحساس بالجمال والشعور بالحب؟... يبدو لى أنى شعرت بشىء كهذا ... على نحو غامض بالطبع ... يخيل إلىّ أنى كنت أحس بإحساس خاص نحو طفلة فى مثل سنى أو أصغر قليلا ... أذكر أنها كانت شقراء الشعر ... هى ابنة لإحدى الأسر فى الأقاليم ، كان بيننا وبينها تزاور ... كنت أحلم ليلا بهذه الشقراء الصغيرة ... وكنت أتلهف على لقائها واللعب معها ، والغضب المكتوم والحسرة والحزن والاكتئاب كلما لمحت منها اهتماما بغيرى من الأطفال ، كما كنت أشعر بسعادة دافقة إذا أقبلت على وفضلتنى فى اللعب معها على سواى ... ثم كان أن أحضروا من الريف طفلة فى العاشرة لتعمل خادما لدينا ... تأملت وجهها فوجدته دقيق

القسمات خمرى اللون ... لست أدرى ماذا حدث فى قلبى الصغير يومئذ ... كل ما أعرف هو أن ميلا غامضاً جذبنى إلى هذه الصبية اللطيفة ، فصرت أعطف عليها عطفاً خاصاً وأحميها ممن يغضبها أو ينتهرها ... إلى أن اختفت يوما من حياتى ... جاء أهلها فيما يظهر ذات يوم فى غفلة منى وأخذوها ... فحزنت كثيراً على ذهابها ...

فى تلك المرحلة كنت أذهب إلى الكتاتيب فى كل بلدة نحل بها ... ولابد أنهم أرسلونى إليها منذ سن مبكرة جداً ... لأنى أذكر صوراً غامضة عن حاجتى الملحة الضاغطة إلى التبول والمرحاض ولكن خشيتى من المقرعة الجريد المرفوعة فى يد شيخ يحفظنا القرآن كانت تفزعنى وتلجم لسانى عن الإفصاح بحاجتى ، فكنت أكتم ما بى وأعود إلى البيت كل يوم وقد فعلتها فى سراويلى ! ... إلى أن كبرت قليلا واستقر بنا المقام فى مدينة صغيرة ... هى دسوق فيما أذكر ... فالتحقت بمدرستها الكبرى الوحيدة فى البلد : مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية ... لم تكن هناك يومئذ مدرسة أميرية ... وبدأت أحل رموز حروف الهجاء ... كان والدى قاضى البلد ... وكنا نقطن بيتاً بينه وبين المدرسة أرض خلاء تتخذها المدرسة

فناء تجتمع فيه الطوابير ... ولا أنسى ذات يوم وقفنا فيه صفوفاً بطابور الصباح والناظر يشرف علينا ... وإذا رجل قد مر أمامنا حياه ناظرنا باحترام ، ثم نادى فى الطوابير « سلام أل » – نداء التحية بالتركية فى ذلك العهد – فدقت المدرسة كلها بأرجلها فى الأرض وارتفعت الأيدى إلى الطرابيش بالسلام ... لم يكن هذا الرجل الذى حياه الناظر والمدرسة سوى والدى ... خرج من البيت مصادفة ساعة وقوفنا فى الطابور فأدى خروجه إلى هذا الاستقبال بالاحترام من المدرسة وناظرها ... إنه قاضى البلد ... كان شعورى وقتئذ مزيجاً من فخر داخلى قليل مع الكثير من الخجل والحياء ... لست أدرى لماذا كنت أود لو أختفى فى باطن الأرض ... وأن يجهل التلاميذ كل علاقة لى بهذا الرجل الذى يحيونه بالسلام الرسمى ! ... ولو كان الناظر قد خطر له تلك اللحظة أن يخرجنى من الصف ليضعنى إلى جوار والدى أمام الحشد من الطوابير لكنت قد سقطت ولاشك مغشياً على ... لست أدرى تعليلا لهذا الشعور ... إنى لم أزل حتى الساعة محتفظا بصورة منه ... لذلك لم أدهش كثيراً لما حدث لابنى فى موقف مماثل ... جاء يروى ذات يوم

أن مدرساً ناداه من بين صفوف فصله ، وأصعده إلى المنصة ووقف بجواره يلقى خطبة طويلة عريضة تقريظا لوالده الفائز بتقدير أدبي رسمى ... أردت أن أعرف شعور ابنى ... وقد كان هو أيضاً فى العاشرة ... خجل أن يفضى إلىّ مواجهة ... لكنى استطعت أن أعلم أنه كان متبرما أشد التبرم ... لم يكن مضطربا ولا مرتبكا ولا فزعاً كما كنت ... وتلك مزية الجيل الحاضر... لكنه كان يقول فى نفسه أثناء خطبة المدرس :

« وأنا مالى أنا ؟ ! ... » .

لم يكن يشعر أن الأمر يهمه على الإطلاق ... إلى أن اختتم المدرس كلامه الطويل بقوله :

« وعسى أن يكون الإبن مثل أبيه » ...

فإذا بزملائه الخبثاء يصيحون :

« دا بليد فى العربي ! ... » .

فأشار إليهم بقبضة يده متوعداً من خلف ظهر المدرس : أن اصبروا حتى أخرج لكم فى الفسحة ! ... ولم يتغير شعوره عندما كبر قليلا ... فقد ظل يشعر بالضيق كلما

أثار لفت النظر إليه بسبب أبيه ...

لست أذكر بالضبط متى كان أول انفعال لى بالجمال الفنى ؟... لعل أول مظهر من مظاهره اتخذ صورة التلاوة القرآنية الجميلة ، يوم كنت فى الريف بأبى مسعود ... أحضروا لى شيخاً يحفظنى القرآن ويعلمنى مبادئ القراءة والكتابة ، فى ذلك الوقت من العام ... وقت الصيف حيث نغادر البنادر بمدارسها ... ولا يوجد فى ناحيتنا تلك من الريف وقتئذ كتاب من الكتاتيب ... كان ذلك الشيخ الذى أحضروه جميل الصوت ... يعلمنى ويحفظنى ساعة ... ويتلو القرآن ساعة ... ويؤذن للصلاة فى المصلى القائمة على حرف الترعة ... كان الإعجاب بصوت هذا الشيخ فى كل الناحية حافزاً لى على محاكاته ... فكنت أحفظ ما يلقننى إياه من الآيات لأتلوها مثله بصوت جميل ... ويظهر أنه كان لى مثل هذا الصوت ... إذ كنت أسمع من يطربه ويثنى عليه ، فيزيدنى ذلك إقبالا على التلاوة وتجويداً لها ... وشعرت لأول مرة فى قرارة نفسى بما يشبه الشعور باللذة الفنية ... ذلك الذى نصفه اليوم بإحساس الفنان وهو يقوم بعمل فنى ...

كان من عادة ذلك الشيخ أن ينام ساعة القيلولة تحت شجرة سنط قرب الترعة ... فإذا أفاق ليؤذن للعصر مسح وجهه بكفيه متشهداً وهو لم يزل مغمض العينين .. ولاحظ أخى الصغير ذلك منه بما جبل عليه من روح المداعبة الخبيثة ، فتربص به حتى غرق فى النوم ماداً كفيه إلى جنبيه ، فذهب وأحضر من الترعة قطعتين من الطين ملأ بهما هاتين الكفين للشيخ النائم ! ... فلما أفاق لصلاة العصر ومسح وجهه بكفيه على عادته تلطخ وجهه بالطين فأثار ضحك الحاضرين ... وقام الشيخ غاضباً لاعناً ساخطاً على قلة الأدب وعبث الصغار وسخرية أهل العزبة وأقسم أن لا يبيت فيها ليلته ... وبذلك فقدت ذلك المنبع الأول من منابع إحساسى الفنى ...

ثم شعرت بعد ذلك بالفن فى صورة أخرى ... مولد سيدى إبراهيم الدسوقى ... والموكب الذى كان يمر من تحت نوافذنا . بركبة الخليفة على حصانه شاهراً سيفه تحف به البيارق والأعلام والبنادير والرايات بمختلف الألوان والطبول الكبيرة والمزامير بمختلف الأحجام ، ثم عربات النقل الكثيرة ، يتلو بعضها البعض

فى صف طويل لا ينتهى ، تجرها كل أنواع الدواب من خيول وبغال وحمير وبقر وجواميس وثيران ، كل عربة تمثل حرفة من الحرف بكل أدواتها وأهل « الكار » فيها ... فالحدادين على عربتهم أمامهم الكور والسندان يضربون بالمطارق ممثلين عملهم ... ثم يأتى النجارون بالمناشير والبناؤون بالمسطرين والفخرانية بالقلل والأباريق والسمكرية بالكيزان وفوانيس رمضان ... كلهم يمثلون أدوارهم فى الحياة ... حتى الفكهانية لهم عربتهم قد علقوا عليها الأغصان يتدلى منها التفاح والبرتقال ... نوع من كرنفال ساذج ... ولكن تأثيره على نفسى فى تلك السن كان عجيباً كان شيئاً لا يمكن وصفه ...

على أن بدء اهتمامى الحقيقى بالفن ، فى صورته المباشرة ... كان يوم هبطت وقتئذ بمدينة دسوق جوقة الشيخ سلامه حجازى ... أو لعلها — وهو الأرجح — إحدى الفرق التى كانت تقلده وتطوف برواياته وتتخذ اسمه فى تنقلاتها بالأقاليم ... نصبوا لهذه الجوقة مسرحا من الخشب ، فى إحدى رحبات البلد ، غطوه بقماش الصواوين رفعت عليه الزينات ، وتدلت « كلوبات » الغاز ... وارتدى أفراد

الجوقة ملابس « شهداء الغرام » أى روميو وجولييت لشكسبير ، « مطعمة بالقصائد والألحان التى لاتخطر له على بال » .. وجعلوا منذ الصباح يطوفون بشوارع البلد فى ملابس التمثيل المزركشة هذه ، وقد تدلت شعورهم الشقراء المستعارة على الأكتاف ، تعلوها قبعات القرون الغابرة المحلاة بالريش الطويل ، والخناجر والسيوف تبرز من أحزمتهم ... فيجرى خلفهم الصبية والغلمان ويترك أهل الحرف أعمالهم وحوانيتهم ، وتقف صفوف الجموع تتفرج عليهم ، وتطل المحجبات من النساء يشاهدن من خلف النوافذ ... ويصبح البلد ولاحديث للناس فيه إلا قدوم جوق الشيخ سلامة ... وكان مأمور البندر وأعوانه والمحكمة والنيابة فى طليعة من يحضرون لياليه وتحجز لهم خير الأمكنة . . . وذهب والدى بالطبع ذات ليلة وأخذنى معه بعد تردد طويل ... خشى على من السهر . . . ولو لم يصطحب معاونوه فى المحكمة أولادهم ، ويسمع إلى من قال له منهم : « لماذا لاتأتى بأولادك يتفرجون ؟ » ... لولا ذلك لما فكر فى اصطحابى إلى ليلة كهذه ! .. لا أنسى تلك الليلة : رفع الستار عن الفرقة كلها بملابسها البراقة تخطف الأبصار ، وقد اصطف رجالها ونساؤها

صفوفا وجعلوا ينشدون جميعاً نشيد الافتتاح ... ثم تفرقوا وبدأ التمثيل ... لم أفهم يومئذ بالطبع شيئاً كثيراً من تفصيلات المسرحية ... كل الذى همنى وخلب لبى هو المبارزات بالسيوف ... فكان أول ما صنعت فى اليوم التالى أن كسرت يد المكنسة وجعلتها سيفاً وطلبت إلى المبارزة خادما كان عندنا .. (على ذكر المكنسة ظهر حوالى ذلك العهد مذنب « هالى » المشهور فى السماء ... فكان أهلى يقومون بالليل إلى السطح لمشاهدته وقمت معهم ذات ليلة وسألتهم عنه فقالوا لى مشيرين إلى السماء : هذا النجم الذى له ذيل مثل رأس المكنسة) ... المكنسة التى اتخذنا منها سيوفاً لنا ... وكان هذا الخادم الذى أبارزه بيد المكنسة يذهب فى الليل إلى مقهى بلدى به شاعر بربابة يروى عليها قصة أبى زيد الهلالى ودياب بن غانم والسفيرة عزيزة ... فكان يحلو له هو أيضاً أن يمسك بقطعة طويلة من الخشب ويصيح بى قائلا :

أنا أبو زيد الهلالى وانت الزناتى خليفة ! ... ثم يسرد على ماسمعه من الشاعر ليلا .. فكانت تقع هذه القصص من نفسى موقعا حسنا ، ونمضى أوقات العصر كلها نمثلها ونتبارز ... على أن الذى

جعلنى أعيش القصص بكل وجــــدانى على نحو أعمق هو ظرف آخر ... طول رقاد والدتى ... فقد اضطرها إلى شغل الوقت بقراءة قصص ألف ليلة ، وعنترة ... وحمزه البهلوان ، وسيف بن ذى يزن، ونحوها ، كانت فى أجزاء طويلة ، مانكاد تنتهى من جزء حتى تقص علينا ماقرأت عندما نجتمع حول فراشها ... كان يحلو لها ذلك ... وكانت تجيد سرد هذه القصص علينا ... لاتترك تفصيلا إلا حاولت تصويره، فكنت أنا وجدتى نجلس إليها وكلنا آذان تصغى بانبهار ... وأحيانا كان ينضم إلينا والدى بعد أن يفرغ من دراسة قضاياه ، وكأنه أصيب بالعدوى منا ... فإذا انتهى السرد بأبطال القصة فى موقف لم يزدنا إلا اشتياقا إلى البقية ... قالت والدتى :

انتظروا حتى أقرأ الجزء التالى ...

وتتركنا على أحر من الجمر ، ونحن نعيش بكل أرواحنا على أولئك الأبطال ننتظر العودة إليهم ... وكانت لا تكتفى بمجرد السرد ، بل تصاحبه بتعليقات من عندها لتقرب الشخصيات من أفهامنا ... فتقول مثلا إن هذه الشخصية الطيبة تشبه فلانا الطيب من أقاربنا أو معارفنا ، وإن هذه الشخصية الشريرة تشبه فلانا أو

فلانة الشريرة ممن نعرف فى محيطنا ... فكنت بذلك أعير فى مخيلتى لأبطال القصص سحناً ووجوهاً ممن نعرفهم فى الحياة ... وفرغت كل تلك الملاحم الشعبية القديمة بطبعاتها الرخيصة المشوهة، وبدأت تظهر فى السوق روايات أوربية مترجمة بأقلام الشوام الذين حذقوا اللغات ونشأوا فى مدارس الرهبان ، فتعلقت بها والدتى أيضاً ، وقصتها علينا كما فعلت بسوابقها ... كان لهذا ولا شك فضل كبير لوالدتى لاينكر فى تنشيط خيالى منذ الصغر ... وظل حالها معنا على هذا النحو إلى أن شفيت وغادرت الفراش ، ثم اتجهت هى بعد ذلك إلى أمور معاشها ، وشغلت بمشكلات الأطيان التى اشترتها ، فانقطع عنا هذا المورد السهل الذى كان يغذينا بالقصص دون جهد منا ...

على أنى كنت قد بدأت أقرأ ، فلم أرَ بُداً من الاعتماد على نفسى ... صرت أبحث عن القصص والروايات التى كنت أراها فى يد والدتى فأستخرجها من صناديق الأمتعة القديمة وأعكف على قراءتها بسرعة ... كلمة أفهمها وكلمة تستغلق على فهمى ... لعل هذا ما ساعدنى على إجادة اللغة العربية قبل الظفر بتعليم منظم ...

فقد كان لتنقل والدى المتكرر بين بلدان الأقاليم ، تبعاً لتعاقب حركات التنقلات القضائية بين العام والعام ما حرمنى الانتظام فى سلك مدرسة واحدة سنة دراسية كاملة ... لقد مسح والدى خريطة القطر المصرى مسحاً فى مدى أعوام قلائل ...

فكان يمر بالبلد الواحد مرات ... مرة كمساعد للنيابة ، ومرة كوكيل ومرة كقاض وهكذا ... ولم يكن فى أكثر هذه البلاد مدارس أميرية على الإطلاق ... كل ما كان بها إما كتاتيب بسيطة أو راقية أو مدارس أهلية مثل مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية أو مدارس الأقباط ونحوها ... وقد مررت بها كلها مراً خاطفاً أو متأنياً على حسب الظروف والأحوال ... لم يستقر بى الحال إلا يوم استقر والدى قاضياً بالقاهرة ... فأصبح فى المقدور عندئذ أن ألتحق بمدرسة أميرية ... كانت سنى وقتئذ قد جاوزت العاشرة .

فنصح لوالدى بتقديمى إلى السنة الثانية الابتدائية مباشرة ... فقدم طلباً بذلك إلى مدرسة محمد على الابتدائية فى حى السيدة زينب .. لكن المدرسة اشترطت امتحانى .. وامتحنونى .. فوجدونى متفوقاً فى اللغة العربية ... إلا أنى فوجئت بهم يسألوننى فى علم

الجغرافيا ... عن البرزخ والأرخبيل ... أشياء أجهلها تمام الجهل ... عندئذ قرروا أن أبدأ من البداية وألتحق بالسنة الأولى ، لأن هذا العلم يدرس فى السنة الأولى ... وقد صدمنى هذا القرار صدمة مازلت أذكر وقعها ... والتحقت بالمدارس الأميرية مبتدئاً بالسنة الأولى ، وأنا أحوج من غيرى إلى تعويض ماضاع على من سنوات عمرى بعيداً عن التعليم الأميرى المنتظم ... كان والدى قد استأجر مسكناً فى شارع الخليج المصرى ... فكنت أنفذ منه إلى مدرستى مخترقاً حارة ضيقة طويلة ... منذ ذلك الوقت غدوت تلميذاً نظامياً ... كنت فى سنى الأولى تلميذاً مجتهداً ... وقد جذبنى علم لم أمارسه من قبل ... لكنى أحسست أنه قريب إلى نفسى ... إلى تلك النفس التى كان يستهويها شىء بالذات مجهول الكنه لى وقتئذ ... عرفت فيما بعد أنه الفن أو النزعة الفنية ...

كان هذا الشىء الجديد الذى انجذبت إليه هو الرسم ... كنت أحبه وأجتهد أن أبرز فيه ... فقد كان ذلك يملؤنى سروراً داخلياً غريباً ... ذلك السرور الذى كنت أحسه وأنا أتلو القرآن بترتيل جميل ، ولكنى لم أستمر فى هواية الرسم إلى حد جدى ، إنما هى

تلبية لذلك الصوت الخفى ، أو اتجاه غريزى إلى أقرب موارد تلك النزعة الكامنة فى أعماق كيانى ... كانت هذه النزعة تتخذ صوراً مختلفة بحسب الأردية التى تتيحها لها الظروف ...

كانت تقترب بسرعة كالمنجذبة بمغناطيس إلى كل ما يلائمها من أوضاع تظهر لها ، كأنها روح شبح يتحسس الأجساد التى كتب عليه أن يحل فى أحدها ... لماذا كانت هذه النزعة عندى؟... الإجابة عن هذا السؤال : هى أحد الأسباب التى من أجلها أكتب هذه الصفحات .. فأنا دائم السؤال لنفسى :

أكان من الممكن أن أتخذ طريقاً آخر فى الحياة ؟ .

ما هو منبع هذه النزعة الدفينة التى سيطرت على وجودى منذ الصغر وتطلبت لتحقيقها من المواهب أكثر مما عندى واقتضتنى من الجهود ما كدت أنوء به ؟ ... هل أنا وحدى مسئول عن إيجادها ... ؟

أهى بذرة تلقيتها عن أب وأم ، لم تنبت عندهما بفعل الظروف ، فألقيا بعبء إنباتها على كاهلى ، دون وعى منهما ، عن طريق رسالة خفية ، ضمناها تلك النطفة التى منها خلقت ؟! ... لست أريد التعجل

بالجواب .. ولكنى أكتفى بأن أعرض هذه التفصيلات عن طباع أبى وأمى ، لعلى أجد فيها المنبع ... للإجابة عن سؤالى ...

لم تستمر هواية الرسم طويلا ... لأن شيئاً آخر بدأ وقتئذ يظهر لى فى الأفق : الموسيقى ...

كانت أسرتى قد عرفت جماعة من «عوالم» الأفراح ، بمناسبة زفاف عم لى يدعى «على» ... عقد قرانه منذ سنوات ... عندما كنت فى التاسعة أو الثامنة ... كان قد وصل فى سلك البوليس إلى وظيفة مأمور بندر شبين الكوم ، وشبع من حياة العزوبة اللاهية العابثة ، وانقطعت صلته بأوساط اللهو المألوفة فى ذلك العصر ... وأراد الزواج ...

فالتجأ إلى أمى يوسطها فى البحث له عن عروس ... كان شرطه الوحيد — على عكس والدى — أن تكون العروس غنية ، حتى ولو كانت قردة عجوزاً ... وبحثت له والدتى واهتدت إلى بغيته : سيدة قد قاربت الخمسين من الجوارى البيض الأتراك تملك مائة فدان من أجود الأطيان ... كانت حكاية الزواج هذه مصدر خير لى أنا وأخى الصغير .. ذلك أن عمى وقد استخفه الفرح بالثروة

المنتظرة الهابطة عليه ، صار لا يدخل دارنا إلا ومعه الهدايا من حلوى وفاكهة ونحوها ... فلما اقترب يوم القران دخل علينا بهدية عظيمة لى ولأخى : هى دراجة بعجلات ثلاث وبندقية أطفال نخمة بكل لوازمها ... فباركنا هذا الزواج وفرحنا به ...

على أن الحدث الهام فى هذا العرس بالنسبة إلىّ أنا خاصة كان أمراً آخر : أصرت العروس على أن لا يزفها إلا « عوالم » من القاهرة لا من بلدة صغيرة مثل شبين الكوم ! ... فهذا فى نظرها هو الذى يليق بمقامها ! ... فأوفدوا الأخ الأصغر للعريس ولأبى، ليذهب إلى القاهرة و « يقاول » جماعة من « العوالم » ويأتى بهن إلى شبين ... وذهبت أنا معه ... ولست أذكر بالضبط مناسبة ذهابى معه؟ ... ومن الذى أوفدنى ؟ ... هل أنا الذى طلبت و«شبطت»؟ ... أو أنهم أرسلونى من تلقاء أنفسهم ؟ ... كل ما أذكر هو أنى ذهبت إلى القاهرة مع عمى الأصغر هذا ومشينا طويلا فى شارع محمد على، نقف بين كل خطوة وأخرى على دكان صغير ضيق، علقت على جدرانه آلات الطرب من عود ورق ودربكة ... كانت تجرى بين عمى وأصحاب تلك الحوانيت مناقشات ومساومات طويلة لا تنتهى

وأنا واقف أتململ من الضجر ... إلى أن انتهى بنا المطاف إلى حانوت أخير تم فيه الاتفاق على شىء ، علمت فيما بعد أن هذه الدكاكين هى أمكنة « المطيباتيه » المختصين بتوريد عوالم الأفراح ...

هذا كل ما شاهدته .. وكل ما فعلناه فى ذلك اليوم ... وعدنا فى نهارنا إلى شبين الكوم ولم أر نساءاً ولا عوالم إلا يوم الفرح ذاته ... فى هذا اليوم المشهود كنت أنا أيضاً ضمن الوفد المكلف بإحضار العروس من بلدها إلى شبين ... أذكر تلك الصورة ولا أنساها ... ركبنا عربة قطار خاصة ألحقت بمؤخرة العربات .. كانت تسمى عربة « صالون » خصوصية ... اعتادت مصلحة السكة الحديد فى ذلك العهد أن تؤجرها للأفراح الكبيرة ، وقد أصرت العروس المزهوة بثروتها على أن يكون انتقالها إلى شبين فى صالون خصوصى يضم « المعازيم » من السيدات وأهل الفرح من الجانبين ... ولست أدرى ما الذى حشرنى أيضاً بين هؤلاء فى هذا الصالون ذلك اليوم ... ولكنى أذكر أنى سافرت بذلك الصالون ووصلنا إلى شبين الكوم بالسلامة ... وهنا قامت القيامة ... سمعت صياحا وصخباً وزعيقاً يملأ الجو فى المحطة ... إنها العروس بسلامتها ! ... ما كادت تنظر

حولها وهى نازلة من القطار حتى صاحت : أين الموسيقى الميرى؟... ورفضت رفضاً باتاً أن تنتقل قدماً من المحطة إلا إذا سارت الموسيقى الميرى أمام عربة العروس « الكوبيل » بخيولها المزوقة بالورد... ولم يكن أحد قد فكر فى ذلك ولا عمل له الترتيب ، لأن العروس لم تكن صغيرة السن ولا كان هذا أول عرس لها ، فقد سبق لها الزواج أكثر من مرة ... ولكن مخها التركى أبى إلا أن تزف فى شوارع المدينة بالموسيقى الميرى ... لم أفهم إلا فيما بعد سبب هذا الضجيج والزعيق ... وأكب الجميع على يد العـــروس يلثمونها متوسلين متضرعين أن تغفر لهم هذه الزلة وأن تركب العربة الكوبيل وتمضى فى هدوء إلى بيت الفرح ، منعاً للفضيحة وتجمع المارة وأهل الفضول . وأخيراً ركبت وسارت معهم وهى تشتمهم باللغة التركية ، وهم يشتمونها فى سرهم باللغة العربية ! ...

وما جاء المغرب حتى وصل «تخت العوالم» ... وقد سمعت منهن دوراً أو دورين وغلبنى النعاس ، فنمت قبل أن أشاهد الزفة ...

على أن أواصر المعرفة كانت قد عقدت بين والدتى وجدتى وبين الأسطى حميده العوادة المطربة رئيسة العوالم ، أثناء هذا الفرح ...

كانت تلك المطربة خفيفة الروح لطيفة المعشر تحمل نفساً كريمة وإن كانت ليست حسنة الصورة ... آنست فى أمى وجدتى ما ارتاحت إليه نفسها وقالت عنهما بخفة روحها المعهودة إنهما وحدهما « اللى آدم من دون أهل الفرح والعروسة الكرب ! ... »

ودعتها والدتى إلى زيارتنا مع « تختها » ... فلم يكد يمضى العام وذهبنا إلى الإسكندرية فى الصيف كعادة والدتى التى لا تستغنى عن مرطبها أبداً — حتى جاءتنا الأسطى حميدة مع بعض المقربات من تختها ... نزلت علينا ضيفة معززة مكرمة ، إلا أنها ما كانت تبخل علينا أو تضن بأغانيها وتقاسيم عودها ... ثم ازداد ترددها على منزلنا عندما انتقلنا بعد ذلك بسنوات إلى القاهرة ، وأصيبت جدتى بالفالج ونصح لها الطبيب بصفاء البال والسرور ، فتعهدت بها الأسطى حميدة ، كلما خلا وقتها من العمل ... فما كان يمضى أسبوع دون تبيت عندنا ليلة أو ليلتين ، إلى أن يأتى « المطيب » فيطلبها من عندنا لسهرة أو فرح ... كان صوتها يشجينى ... وحفظت كثيراً من الأغانى التى كانت تغنيها ... واشتد إعجابى بها إلى حد خيل إلىّ أنها جميلة وشعرت نحوها بإحساس يكاد يشبه الحب ... وكانت تشجعنى

على الغناء معها ، قائلة لى إن لدى قدرة على تأدية النغمات كما أتلقاها منها ... وفى ذات يوم عدت من مدرستى — محمد على الابتدائية فى سنتى الأولى — فوجدتها فى البيت ، وهى تضرب على عودها ... كانت وقتئذ بمفردها فى الحجرة فرجوتها أن تعلمنى العود ... فشرعت تعلمنى بالفعل مطلع « بشرف » ... ولم يمض قليل حتى استطاعت يدى أن تخرج من الأوتار نغما متسقاً لمطلع البشرف ... ودخلت علينا والدتى وهى تحسب العود فى يد العوادة ... فلما ابصرتنى أنا محتضنا العود والأنغام تخرج منه منسجمة أطلقت فى البيت صرخة راعدة غاضبة وهجمت علىّ تنتزع العود منى وتصيح : « لو عرف أبوك يدبحك ! ... » وجعلت تقول إنى لن أفلح فى مدارس إذا أمسكت بالعود مرة أخرى ، وسيكون مصيرى أن أطلع « مغنواتى » ! ... وأرغمتنى على القسم بسيدى البسطامى — الذى ليس بعد الحلف به من يمين — أن لا ألمس العود بيدى طول حياتى ... وأقسمت وبررت بالقسم ... على أن ذلك لم يمنعنى من حفظ الألحان والأغانى حتى الصعب من الأدوار القديمة التى كانت تؤديها الأسطى ذاتها بمشقة كأدوار عبده الحمولى ... كانت والدتى

تحب أدوار عبده الحمولى بنوع خاص ، وتروى لنا عنه الكثير ... وتقول إن أغنيته « تخطرى يازينة » كانت لها خاصة بمناسبة زفافها ... ذلك أن صلة عبده الحمولى بجدى « سيدى البسطامى » والدها كانت فيها روابط وثيقة ... فقد بدأت ذات يوم رأى فيه والدها عند خروجه من بيته عربة « حنطور » بها رجل يبدو عليه المرض يتكىء على وسائد وضعت له ... كانت العربة واقفة أمام منزل مغلق مواجه ... وعاد والدها من عمله بالبوغاز إلى البيت ظهراً فوجد العربة ما زالت واقفة فى موضعها وبها الرجل المريض ... فعجب للأمر واقترب يسأل فعلم أنه عبده الحمولى اشتد به مرض الكبد وجاء يصيف بالاسكندرية واستأجر المنزل المغلق الذى يبحثون عن مفتاحه وصاحبه الغائب ... فتقدم إليه فى الحال ودعاه إلى بيته وأنزله فى « المنظرة » ... وهو المكان المنعزل عن بقية البيت الذى كان يعد للزوار والضيوف من الرجال ، وقام على خدمته بنفسه ، ورفض انتقاله إلى المنزل المستأجر ، وهو على هذا المرض ، محتاجا إلى الخدمة والعناية ... كان جدى هذا فيما تروى والدتى مختلفاً عن

بقية أهله من رجال البحر ... فقد طالما حدثتني عن حبه للكتب وعن مكتبته الثمينة التي فرطت فيها جدتي — لجهلها — بأبخس الأثمان بعد وفاته ، وعن صلته وصداقته بالعالم اللغوى الشيخ حمزه فتح الله — الذى كان أيضا زوجا لإحدى خالات والدتي — وعن حبه لفن الطرب الذى تجلى فى تمسكه بصداقة « سى عبده » كما كانوا يدعون عبده الحمولى . . . وقد نمت هذه الصداقة وترعرعت ، فما كانت تنقطع زيارات المطرب العظيم ، حتى بعد وفاة صديقه جدى . . . فقد أبي عليه وفاؤه إلا أن يسأل عن الأسرة كلما جاء إلى الإسكندرية ، ويتقصى أخبار ابنته اليتيمة الصغيرة ، ويحملها بين ذراعيه ويقبلها ... إلى أن تزوجت جدتي ، فقام زوجها — لازدرائه الفن وأهله — بإغلاق الباب فى وجه المغنى ... فاختفى من حياتهم ... ولم يظهر إلا يوم زفاف والدتي ... رأى ذلك واجباً عليه أمام ذكرى صديقه الراحل الذى كان يقدره حق قدره . . . .

لا تعاق ذاكرتى بشىء ذى بال فى سنتى الأولى الابتدائية ... سوى أنى عرفت زميلا كان يلعب معى أيام العطلة الأسبوعية ... وفى يوم جمعة جاء إلى منزلنا بشارع الخليج المصرى يحمل نفيراً كبيراً مكسوراً لفونغراف قديم صرنا نلعب به ساعة ، وإذا بوالدى يطل علينا فى طريق خروجه متكئاً على عصاه ، فلما رأى زميلى وكان يصغرنى فى السن قال له : « انت مع الولد توفيق فى الفصل ؟ ... فأجابه بالإيجاب ... فسأله عنى هل أنا مجتهد ؟ ... فما كان من زميلى وصديقى الذى كنت ألاعبه منذ لحظة ويلاعبني بكل صفاء وهناء إلا أن قال بكل بساطة : « هو بليد » . . . ثم أردف قائلا عن نفسه : « وأنا شاطر » ... وعندئذ لم أشعر إلا وعصى والدى قد رفعت فى يده لتنهال على جسدى ، دون سؤال أو تحقيق ، ففررت جاريا هارباً واختبأت تحت سريرى ... وتبعنى والدى بالعصا وهو يصيح « ياخايب ياتنبل والله لأوريك ! ... » وسمع صياحه من فى البيت ، وأقبلت والدتى وجدتى تسألان عن الخبر ، فقال لهما والدى وهو

يبعدهما عن طريقه : « الولد بليد وغير فالح فى المدرسة ... الولد الأصغر منه شاطر وهو خائب ! ... وانحنى يبحث عنى بعصاه تحت السرير ... فكنت أبصر طرف العصا يلاحقنى فأتفاداه وأنا أرتعد من الخوف ... ولم أذرف دمعة ولم أصدر شهقة ... فقد جمدت الرهبة والدهشة كل مشاعرى ... لم أبك إلا بعد أن ابتعد عنى والدى ، على أثر دفاع جدتى عنى وسحبها إياه من عصاه إلى خارج الحجرة ، بكيت لا لشعور بألم ... فأنا لم أضرب ولم تمسسنى العصا ... ولكنى بكيت لشعورى بالظلم ... وجاء امتحان آخر العام للنقل إلى السنة الثانية ... فإذا أنا ناجح منقول بتفوق ... وإذا زميلى من الساقطين الراسبين ... وعجب والدى ... واعترف أنه ظلمنى فى ذلك اليوم ...

سرت فى السنة الثانية الابتدائية سيراً حسناً يؤذن بالتفوق ... إلى أن جاء منتصف العام ، فإذا بنا ننتقل من شارع الخليج المصرى إلى منزل آخر فى الحلمية الجديدة ... وعند ذلك نقلونى من مدرسة محمد على إلى المدرسة المحمدية لقربها من منزلنا الجديد ... وهنا اختل كل شىء فى حياتى الدراسية ... لم تكن الدروس تسير بخطى واحدة فى المدرستين ، فوجدت نفسى — خصوصاً فى الحساب —

أمام مسائل جديدة لا عهد لى بها ... كانوا متقدمين فى البرامج ... فكنت أجلس أحملق فى السبورة ولا أفهم شيئاً .. وتعاقبت الدروس وأنا على جهلى .. وتراكم الجهل على الجهل ... فإذا أنا أتدهور تدهوراً سريعاً كان يشعرنى بمرارة شديدة وألم نفسى فظيع ... ولم أجسر بالطبع على مصارحة أهلى بشىء ... لأنهم ما كانوا قط قد عودونى على مصارحتهم بشئونى ... كنت أعرف مقدماً ردهم على كل ضعف عندى : إنه التعنيف والتهديد بالعصا ... خفت أقول لهم إنى غير مستطيع تتبع الدروس ، حتى لا أسمع صياحهم المألوف : لأنك بليد ، لأنك تلعب ! ... لا مناص إذن من كتمان ما بى ... وكنت أتلفت بحسد إلى زملائى الذين يرفعون أصابعهم بنشاط ليجيبوا إجابات صحيحة عن تلك المعميات فى القسمة والمسائل الحسابية العويصة ، بينما كنت أتضاءل فى مقعدى بذلة وفزع ، حتى لا تقع عين المدرس على أصبعى المختفية تحت الدرج ... وحاولت أن أطلب إلى أحد زملائى المجتهدين أن يفهمنى ما لم أفهم فلم يستطع إفهامى ... فقد كانت الفجوة قد اتسعت بين ما أعرفه وما وصلوا إليه هم ... ولم أجرؤ على سؤال المدرس لئلا يتضح له مقدار جهلى ... كنت

بليد الفصل بحق هذه المرة ... وكان مآلى السقوط الذى لاريب فيه عند امتحان آخر السنة ... لولا عناية الله التى أنقذتنى فى الوقت المناسب : فقد نقل والدى إلى دمنهور ... فحولونى إلى مدرسة دمنهور الابتدائية وفى مثل هذه المدينة من مدن الأقاليم كان من الطبيعى وجود صلة بين قاضى المدينة وناظر مدرستها ... فلما علم الناظر بتكرار تنقلى فى عام واحد بين مدارس مختلفة بعد أن لحظ تخلفى بنفسه نصح لوالدى أن يحضر لى مدرساً من بين مدرسى المدرسة يعطينى دروساً خاصة فى المنزل بعد العصر إلى أن أتمكن من متابعة الدروس فى فصلى .. وتم ذلك ... وكان فيه الإنقاذ لى ... وعدت إلى التفوق ... وعادت إلى نفسى الثقة والروح المعنوية القوية .. ونجحت آخر العام ونقلت إلى السنة الثالثة ... وسرت فى دراستى سيراً طبيعياً طيباً ...

على أن إقامتى فى المدرسة المحمدية بالقاهرة ، رغم ما أحمله لها من ذكريات سود ، كان لها ناحية أخرى لا أنسى محاسنها : كان من بين زملائى فيها تلميذ فى مثل سنى صادقته لطول ما كان يحدثنى عن المسارح التى ارتادها ... أذكر أنه حدثنى بتفصيل أدهشنى عن مسرحية فيها شئ كنار الجحيم بلهيبه وأبالسته تظهر فى منظر جعل

يصفه وأنا فاغر فمى كالمخبول ... قال فيما أذكر إنها رواية « تليماك » فى جوقة الشيخ سلامه حجازى ... كما حدثنى أيضاً من بين روايات تلك الجوقة عن رواية « عطيل » بألحانها وقصائدها كما كانت تعرض وقتئذ فى تلك الفرقة ... لست أدرى هل كان يذهب إلى تلك المسارح وحده أو مع أهله ؟ ... ومن أين كانت له النقود ؟ ... كل ما أعرف هو أنه كان يحدثنى صباح كل سبت عما يكون قد رآه ليلة الجمعة من مثل تلك الروايات ... وقد دعانى مرة إلى الذهاب معه ، ولكنى لم أجرؤ على طلب الإذن من أهلى ... فقد كنت أعرف مصير مثل هذا الطلب ... غير أنى تشجعت وسألت أهلى ذات جمعة أن يذهبوا بى إلى مشاهدة الشيخ سلامه ، حتى أستطيع محادثة صديقى ذاك فيما رأيت أنا أيضاً ... وقد كنت فى المرحلة التى أستطيع فيها فهم تمثيله وتقدير غنائه وقصائده أكثر مما استطعت فى دسوق منذ سنوات عدة ... وكان لى ما أردت ... فقد صحبتنى والدتى مع جدتى ذات ليلة إلى رواية « شهداء الغرام » فتتبعتها جيداً وسمعت فيها غناء الشيخ سلامه فى قصيدته المشهورة « أجولييت ما هذا السكوت » ... إلا أن الشيخ فى ذلك الوقت كان يعرج قليلا على المسرح

ويتكئ على كرسى ، كان قد أصيب بالفالج ...

أما فى دمنهور فقد ابتعدنا عن كل فرجة ... وانقطعنا عن كل فن ... وهنا بدأ عهد قراءتى الحقيقية واستغراقى فى القصص على نطاق واسع .. جعلت ألتهم إلتهاماً كل مايقع فى يدى منها ... الجيد والردئ على السواء ... كنت قد اجتزت تلك المرحلة الأولى للقراءة المتعثرة ، تلك التى ذكرتها آنفاً ... عند ما كان الكثير من معانى الكلمات يغمض على ... من ذلك كلمة «نص» ... كنت أقرؤها بضم النون وأفهمها على إنها «نصف» ... فإذا صادفتنى قصة مفتاحها فى خطاب يقول فيه مرسله الذى سيكشف لنا السر الرهيب وصدر بعبارة : «وها هو ذا نص الخطاب» ثرت فى نفسى من الضيق وقلت ولماذا نصه ؟... نحن نريد الخطاب كله لا نصه ... أى نصفه ...

أما فى دمنهور فقد بلغت مرحلة التمكن من لغتى إلى درجة حسنة ...

ومهما يكن من أمر فإن لشغفنا بقراءة القصص فضلا فى تعلمنا اللغة والإنشاء بأمتع وأقرب الوسائل ... ذلك أنه على الرغم من قيمة تلك القصص فإن أسلوبها ، وخاصة المترجم منها بأقلام أولئك الشوام العارفين بلغتهم كان لا يخلو من رصانة ونصاعة وإشراق ...

إلا أن والدى ما كان يرضيه مثل هذه المطالعات ، وما كان يشجع عليها قط ... والويل لى إذا لمح فى يدى رواية منها ! ... إنه كان يريد منى شيئاً آخر ... أذكر ذات يوم — قبل التحاقى بالتعليم الأميرى المنتظم — كان يوم جمعة ... وقد ارتدى والدى جلبابه المنزلى وتناول إفطاره وقرأ جريدته ، ولم يجد بعدئذ ما يفعل بوقته فنادانى قائلا :

«تعال أمتحنك !...» وناولنى كتاب «المعلقات السبع» ... ذلك الكتاب الذى كان يحبه هو ويترنم بأبياته ... وأخرج لى معلقة زهير بن أبى سلمى ... وطلب إلى أن أقرأها بصوت مرتفع ... فلما وصلت إلى ذلك البيت :

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

سألنى عن معنى «يصانع»... ؟ فلم أوفق إلى إجابة صحيحة ...

وأين لمن كان فى مثل سنى وقتئذ أن يعرف حقيقة المصانعة فى الحياة ، وهو يجهل الحياة نفسها ، وعلاقة الناس بعضهم ببعض ، فى ذلك المجتمع المعقد المتشابك ، فلما لم أجب بما يقنعه رفع كفه وضربنى على وجهى ضربة أسالت الدم من أنفى ... وجاءت

على الصوت جدتى التى كانت تحبنى ، فصاحت به ، وأخذتنى من يدى إلى حجرتها ... وأنا ألعن المعلقات وأصحابها ... بل ألعن الشعر كله ... وكان من الطبيعى والمنطقى أن أحبه كما أحبه أبى ، ولكن الدم الذى سال من أنفى بسببه بغضه إلى نفسى مدة طويلة ... وكيف كان يمكن أن أحبه وقتئذ وبينى وبينه دم مسفوك ! ... كرهت الشعر فى تلك المرحلة ، كما كرهت السباحة بسبب أبى أيضاً ... ذلك أنه يوم أراد أن يعلمنى العوم فى الاسكندرية ذات صيف ، لم يفعل غير أن جذبنى من يدى إلى حيث يسبح هو .. فى الأعماق ... دفعة واحدة ... فكنت أتحسس القاع بقدمى فلا أجده فارتفاع ارتياعا شديداً ... وكنت كلما جاءت موجة أشعر كأنها تقتلعنى اقتلاعا لتقذف أبى بعيد عن والدى ... ولم يكن بالإسكندرية وضواحيها فى ذلك العهد ما يسمى « البلاج » .. كانت شواطئ رملية وحشية شبه مهجورة ... لكن أبى على كل حال كان فى إمكانه أن يبدأ بتركى أداعب الماء بقدمى قليلا فى بقعة قليلة الغور على الشاطئ ... كما يحدث لأطفال اليوم ... يعطون الجرادل الصغيرة الملونة يلعبون بها على مقربة من الماء ... فلا يزال بينهم وبين البحر مداعبة وملاعبة

يتقدمون إليه بحذر ثم يبتعدون عن موجه الهادر ، ويتدربون كل يوم على ملاقاته إلى أن تتم الألفة بينهم وبينه ويجدوا أنفسهم ذات يوم أكفاء للعوم على سطحه دون خوف أو مشقة ... أما أنا فلم أعرف البحر إلا وحشا ينتزعنى موجه بعنف إلى القاع العميق ، وأنا أتجلد وأكتم الصياح حتى لا ينتهرنى أبى ... كل ما فعلت هو أنى أقسمت فى قرارة نفسى أنها آخر مرة ، وأنى إذا خرجت منها سالما فلن أضع قدمى فى ماء بحر أبداً .. وخرجت وبررت بالقسم ... فلم تعرف قدمى البحر حتى اليوم . . . كان من الممكن أن أحب الشعر والبحر فى سن مبكرة لو أن أبى أخذنى إلى شاطئيهما برفق ، ولم يدفعنى دفعاً إلى الأعماق ...

لم يكن والدى يدرك أن لكل سن قراءتها ... كان يعاملنى ، كأغلب آباء تلك العهود ، كما لو كنت فى مثل سنه .. كان يفرض على ما يحبه هو وما يقدره من مطالعات .. فكان أهون ما وضع فى يدى من كتب وقتئذ هو كتاب « إميل القرن العشرين » ترجمة أحد زملائه فى القضاء : « عبد العزيز بك محمد » ... وكذلك مسرحية « الإيمان » ترجمة زميل له أيضاً فى القضاء « صالح بك جودت »

عن المسرحى الفرنسى «أوجين بريو»... ظهرت الترجمتان فى ذلك الوقت... وكان كل من الزميلين قد عهد إلى والدى بعشرات النسخ للمعاونة فى توزيعها... إذ لم يكن هناك عندئذ ناشر أو دور نشر... كان المؤلف أو المترجم يطبع ويوزع بنفسه لنفسه... وكنت أجد أكداس هذه الكتب التى لم يتمكن والدى من توزيعها متراكمة فى أركان حجرة مهملة، طالعت هذين الكتابين إرضاء لأبى... ووجدتهما على كل حال أكثر احتمالا من المعلقات...

إنى عندما أجد اليوم كتب الأطفال الملونة بما فيها من قصص وأساطير دينية وتاريخية ومغامرات خيالية ... عندما أجد فى متناول يد ابنى وقتما كان فى السادسة والسابعة والثامنة قصص الأنبياء ملونة الرسوم فى أسلوب لطيف، وقصص الفراعنة واليونان والعرب ... والألياذه والأوديسة كلها ومغامرات «سويفت» «وروبنسون كروسو» و«أقاصيص أندرسن» وغير ذلك من المطالعات الممتعة الموسعة للخيال مبسطة سهلة التناول، أغبط هذا الجيل ...

بل إنى عندما أرى الروايات والقصص والمسرحيات يقرؤها الشباب دون رقابة أو اعتراض من أولياء الأمور... بل على

العكس... أصبحت قراءتها اليوم مما ينصحون به ويدفعون إليه، على اعتبار أنها مطالعات جدية محترمة؛ بعد أن ارتفعت اليوم كلمة الرواية أو القصة أو المسرحية إلى مواضع التبجيل لدى الناس جميعاً من رسميين وآباء... عندما أرى ذلك كله أغبط كذلك شباب هذا الجيل وأطالبه أيضاً بأن يقرن ما حبته به العصور الحديثة من معاونة وتيسير بإجادة منه أكثر وإتقان أعظم... فهو لم يتخبط على الأقل فى مطالعاته، ولم يجد من يقف فى طريق سيره العقلى الطبيعى ...

إنى كنت أختفى بمطالعاتى القصصية عن عيون أهلى، كما لو كنت أرتكب وزراً من الأوزار... مع أنها فى أغلبها كانت على مستوى جيد من حيث التأليف والترجمة ... كنت أتسلل حاملا الكتب لأقرأها تحت سريرى... كان ذلك السرير مفروشا بملاءة تتدلى أطرافها إلى الأرض حاجبة من يختفى تحته كأنها ستارة مسدلة. فما كان أحد يرانى أو يكتشف مكانى... لكن تلك الملاءة أو الستارة كانت تحجب عنى النور... فما كنت أبالى أحياناً... وكنت أمضى أقرأ فى الظلام حتى أعجز عن تمييز الأسطر، فأخرج خفية وأحضر

«شمعة» أشعلها وأعاود القراءة على ضوئها ... هكذا كانت تسير الأمور ... إلى أن حدث ذات يوم أن جاء موعد الغداء ، فجعلوا ينادون علي وأنا مستغرق فى قراءتى ثم فطنت إلى ندائهم المتكرر ، فخرجت من تحت السرير مهرولا تاركا من ارتباكى الشمعة موقدة ... وبينما نحن منهمكون فى طعامنا إذا بصراخ يتعالى فى الطريق والجيران يتصايحون : «حريقة !... حريقة !...» فارتاعت والدتى وأرادت النهوض لتتحرى الخبر ، فأجلسها والدى مطمئناً قائلا «لا ترتاعى إنها ولاشك حريقة فى الشارع بأحد الحوانيت الصغيرة والجيران والمارة من دأبهم التهويل !... لكن ، لم تمض لحظة حتى كان الطرق على بابنا نحن والناس يصيحون بنا «عندكم حريقة !... عندكم حريقة !...» وهنا أفاق أهلى ونهضوا فزعين مرتاعين يبحثون فى أنحاء المنزل ... وإذا الحجرة الى أنام فيها قد تصاعد منها الدخان وتأجج فيها اللهب ... وظل الجميع يكافحون النيران حتى أطفئت ... وظل والدى يبحث عن سبب هذا الحريق ويسأل ويتحرى بدقته وتحقيقه ، وأنا ساكت منكمش لا أنبس بحرف ...

لم تطل إقامتنا بمدينة دمنهور نفسها .. فقد توفى عمى محمود الذى

كان مستأجراً لأطيان والدتى بأبى مسعود ... مات حقيقة هذه المرة ... بعد أن ابتلع إيجار الأطيان طول مدة استحواذه على الأرض ... فلم يكن يدفع إلا مايسدد قسط الرهن مع الفوائد للبنك العقارى ... كان هو المالك الحقيقى طول تلك المدة ... والويل إذا سألته والدتى دجاجة أو أوزة أو صفيحة سمن ... وكان يبدو عليه الضيق والتبرم إذا فكرنا فى الذهاب إلى هذه العزبة لتمضية ولو أسبوع واحد بها ، وكانت زوجته لاتتحدث إلى الناس عن هذه الأرض إلا بقولها «عزبتى» مما جعل أمى تكاد تجن من الغيظ ، وهى التى لاتطيق أن يمس أحد شيئا مما تملك ... لكن ماذا كان فى وسعها أن تصنع وعقد الإيجار طويل مسلط على رأسها !... فما أن جاءها خبر موته حتى أيقنت بالخلاص ... وقامت إلى أرضها تزرعها بنفسها ... أو تؤجر منها قطعاً صغيرة لا تتعدى الفدانين أو الثلاثة لجملة مزارعين .. وقد أقسمت قسما مغلظا أن لا تؤجرها كلها دفعة واحدة لمستأجر واحداً ما بقيت على قيد الحياة ... وبرت بقسمها ... ولم تستأمن بعدئذ أحداً حتى ولا زوجها ! ... أمسكت زمام أرضها بيدها ولم تسمح لمخلوق أن يمس سلطانها عليها ... وقامت على شئونها

بما لها من قوة شخصية وقدرة على التنظيم والتدبير والإدارة ...

ورأت أن خير طريقة لمباشرة الأرض أن تقيم فيها ، وكان بها بيت صغير ... فانتقلنا إليه ... وهكذا عشنا وقتاً طويلا فى الريف ولم تكن المسافة بين أبى مسعود ودمنهور تتجاوز عشرة كيلو مترات ، يقطعها قطار السكة الضيقة «الدلتا» فى نصف الساعة ...

فكنت أنهض فى الصباح المبكر والندى يتساقط علىّ لأستقل قطار الصباح إلى مدرستى فى دمنهور ، وأعود آخر النهار بقطار المساء ، إلا فى أيام الخميس ... حيث كنا نغادر المدرسة فى الظهر ، ولم يكن هنالك قطار فى تلك الساعة ، فكانوا يرسلون إلى حماراً أركبه فيوصلنى إلى أبى مسعود فى ساعتين ... كان قطار الدلتا هذا غاية فى القذارة ، تركب فيه الماعز والغنم إلى جوار أصحابها من الركاب مع الزكايب والمقاطف والقفف والبط والأوز والدجاج بصخبها وزعيقها ... ولم يكن به غير مقصورة واحدة أى «ديوان» يطلق عليه الدرجة الأولى ... وهو نفسه قسم من عربة من عربات الدرجة الثالثة ، ولا يتميز عنها كثيراً ... لم تكن هنالك درجة ثانية . لماذا؟! لست أدرى ... ربما لأنه لا يوجد بالريف فى نظرهم إلا أحد اثنين

إما فلاح ... وإما «بنى آدم» أى رجل نظيف ... وهذا الرجل النظيف لا يشترط فيه أن يكون مأموراً أو قاضياً أو عيناً من الأعيان ... يكفى أن يكون شيخ خفر أو نائب عمدة أو عامل تليفون أو أى شخص يبدو عليه شىء من التنور ويستطيع أن يفرد بين يديه جريدة من الجرائد وأن يموج لبدته ويرتدى جلباباً سابغاً نظيفاً وينتعل «بلغة» لامعة أو صارخة اللون ... مثل هذا الرجل تكفى فيه مجرد النظافة ليكون أهلا لركوب ديوان الدرجة الأولى .. سواء حمل تذكرة أولى حقيقية ، أم تذكرة درجة ثالثة ... دون اعتراض من كمسارى القطار الذى يتغاضى عنه لمجرد نظافته ... فالنظافة هنا هى المعول عليه ، وليست التذكرة ... كان والدى لا يأنف من ركوب الدرجة الأولى هذه ، فى ذهابه وإيابه لحضور الجلسات فى دمنهور .. لكنه مع ذلك كان يشعر بالحرج ... لا بالنسبة إليه ... بل بالنسبة إلى الآخرين الراكبين معه فى نفس «الديوان» ... كان مجرد وجوده يحرم كثيراً من أهل النظافة هؤلاء ممن اعتادوا ركوبها ، أن يقتربوا منها تأدباً واستحياء ، كان يشعر أنهم يتحرجون ويتحاشون الجلوس بجوار قاضى البندر ، فيتركون له المكان كله ...

وفى ذات يوم بينما كان والدى يركب عربة « حنطور » فى دمنهور تقله من المحطة إلى المحكمة ، التفت إلى العربة التى يركبها وفحصها فحصاً دقيقاً ببصره ... كانت عربة قديمة مخلعة متهالكة ولكنها سليمة السلامة التى تمكنها من تأدية عملها المتواضع ... وكان يجرها حصانان هزيلان ، أحدهما أبيض والآخر أحمر ...

أما الأحمر فكان أصغر قامة من زميله الأبيض ، وكان بجواره كأنه يستند إليه و « يتشعلق » به ويحتمى بظله ، وكأنه لولا التوكأ على صاحبه الأكبر لانهدم ! ... ربما كان هذا أيضاً حال الأبيض ... فهو يتوكأ على الأحمر دون أن يبدو عليه ، أو تظهر من هيئته أنه معترف بضعفه ... حصانان يتعاونان على البقاء « ويشجع أحدهما الآخر على مجرد الحياة ... والظاهر أنهما نسيا أو تناسيا أنه لابد لهما من طعام .. فهما يضعان رأسيهما معاً فى « مخلة » واحدة ... يقول الحوذى أن بها تبناً أو دريساً أو عشباً مجففاً ... لكن الخيل لاتتكلم ... ولن تكذبه ... بل تدس رأسها فى تلك المخلاة ولا تتحرك ... وهذا هو كل الدليل على أنها تأكل ...

أما الحوذى فكان أقرع الرأس ، يخفى قرعه بمنديل محلاوى

كبير يربطه دائماً حول رأسه ولا يخلعه صيفاً ولا شتاء ... كان له اسم غريب مازلت أذكره حتى الآن : « خضرجى الرومى » ...

قال له والدى ، وقد عرف اسمه ... لأنه دائماً يسأل أول ما يسأل عن اسم محدثه وعن حياته وعمله ، كأنه متهم أو شاهد فى جلسة بمحكمة :

« اسمع يا خضرجى ! ... كم تساوى هذه العربة بخيلها ؟ ... »

فأجاب الحوذى :

« حوالى ١٨ جنيه يا سعادة البك .... »

فقال له أبى :

« ما قولك لو اشتريت هذه العربة بخيلها وبك أنت أيضاً بهذا المبلغ ؟ ... » .

فاستغرب الحوذى كيف يدخل هو أيضاً ضمن البيعة ؟! ...

فوضح له والدى المراد : إنه يريد شراء العربة بخيلها بهذا المبلغ على شرط أن يأتى هو معها كحوذى فى نظير مرتب شهرى قدره جنيهان ، يقبضه مجمداً أيام المحاصيل ، ويقطن العزبة فى دار من دور الفلاحين يعد له خاصة هو وعائلته بالمجان ...

وقبل خضرجى الرومى ... وأصبحت لنا عربة بحصانين ...

هى التى وصفتها فيما بعد فى رواية « عودة الروح » بأنها العربة الملاكى الفخمة ذات الجوادين المطهمين ! ...

وهكذا أصبحنا نستخدم هـذه العربة فى الانتقال بين أبى مسعود ودمنهور بدلا من قطار الدلتا أو الحمير ... ولن أنسى منظر الحصانين الهزيلين وقد أطلقا فى غيط البرسيم ، أوان الربيع ، ربيع المواشى ... والطعام الأخضر النضر أمامهما كأنه البحر ... وكأنى بهما يسبحان فى السعادة سباحة ! ... وسرعان ما بدت عليهما مظاهر الصحة والسمن ... وإن كان كل منهما قد احتفظ بقامته ... وظل الأحمر قصيراً إلى أن وجد الأقصر منه : ذلك الجحش الذى اشترته لى جدتى بمبلغ « بريزتين » أى ريال واحد ... لبث هو الآخر يمرح فى غيط البرسيم مع زميليه الكبيرين معززاً مكرما مالبثت أنا معه فى الريف ، فما أن وليت ظهرى وغادرته حتى وضعوا على ظهره غبيط السباخ وقادوه ذليلا مع غيره من الحمير إلى أشق المهام وأقذر الأعمال ...

كانت حياة الريف فى تلك المرحلة من حياتى جميلة ... على الرغم مما كان يداخلنى من شعور غامض أحياناً ، واضح أحياناً أخرى ،

بضياع الفلاح وهوانه ... فلقد كان من الأمور العادية أن أرى الفلاحين من حولى يبركون ويمدون أعناقهم إلى الترعة بجوار مواشيهم ليشربوا جميعاً بنفس الطريقة ... وقد فعلت أنا نفسى ذلك مرات معهم ، فقد اندمجت فيهم ولم أعد أفطن إلا أنى منهم .. وكنت أود لو تمتد بى بينهم هذه الحياة ، لو لم يقع لى حادث أبعدنى ... ذلك أنى كنت أواصل هناك أيضا قراءتى للروايات ... فى الليل تحت نور ضئيل لمصباح زيتى فى حجرة تقاسمنى فيها جدتى وأخى الأصغر ... وفى النهار بأى مكان منعزل فى الغيط أو الجرن ... وفى ذات يوم أحسست بألم فى عينى اليمنى ... لكن القصة التى أقرؤها كانت شيقة ممتعة طويلة الأجزاء ، دفعتنى دفعاً إلى مواصلة القراءة رغم الألم ... وإذا بوالدتى تنظر فى وجهى وتصرخ مرتاعة : كانت عينى حمراء ككأس من الدم يملؤها صديد ... فذهبت بى فى الحال إلى دمنهور وعرضتنى على طبيب للعيون فقال : هذا رمد صديدى ... وهو خطر على العين إذا لم تعالج علاجا حاسماً سريعاً وقد يستغرق العلاج وقتاً ... فعدنا إلى الإقامة بدمنهور ... وحاول الطبيب علاجى جاهداً بتلك

الأدوية والوسائل المعروفة فى ذلك العهد . . . « لم يكن البنسلين مع الأسف قد ظهر » . . . ولكن الداء استعصى عليه . . . وانزعج أهلى ... ولم ينكر الطبيب أن عينى اليمنى مهددة بفقدان البصر ... سمعتها بأذنى منه ، يقولها لزائرة فى عيادته وهو يغسل لى عينى ... لم يقلها صراحة . . ولكن بطريقة أفصح من الصراحة .. قالت له الزائرة فى همس سمعته وهى تنظر فى وجهى :

« أظن هذه العين لافائدة ترجى منها يادكتور ؟! .. » لم أسمع رده ... ولكننى شعرت كأنه يسكتها بغمزة من كوعه ... ويظهر أن اليأس خالج نفس الطبيب ، فبدأ ينصح بالالتجاء إلى وصفات مختلفة ... منها أن نأتى بحلاق يفصد لى دما ... فجاءونى بحلاق ... أذكر اسمه جيداً حتى الآن ، لما كان له من فضل فى شفائى ، اسمه : « على النوام » ... فصد لى الدم بواسطة الديدان ... ولم ينفع هذا أيضاً بشىء ... واشتد المرض ولم ينقطع الصديد ... واعترف الطبيب بأن العين ضائعة ، اللهم إلا إذا حدثت معجزة ... وقد تحدث إذا استطاع أهلى السهر ليلة كاملة على عينى يغسلون صديدها دقيقة بدقيقة بالمطهرات ... وجعل أهلى يوزعون فيما بينهم نوبات

السهر ، وهم يتشككون فى مقدرة كل منهم على مقاومة التعب والنعاس ... وإذا بالحلاق « على النوام » ... ينبرى ويتطوع بالقيام هو وحده بالسهر طول الليل على تلك العين ، وقد كان ... فقد لبث إلى جانب فراشى ، لا تكل يده عن غسل العين دقيقة بدقيقة ... لم يكن يرفع القطنة المبللة بالبوريك إلا ليضع قطنة جديدة ... كنت أشعر بحركة يده طول الليل لا تهمد ولا تسكن إلى أن طلع الصبح ... وحضر الطبيب ونظر إلى وجهى فتهلل وجهه ... إن الخطر قد زال ... وإن الشفاء فى الإمكان ... لقد أنقذنى الحلاق « على النوام » الذى لم ينم تلك الليلة لحظة واحدة ! ... من حسن حظى أن هذا المرض حدث فى الصيف ... خلال الأجازة السنوية بعد أن كنت قد امتحنت ونجحت ... ولو أنه حدث أثناء السنة الدراسية لكان سبباً فى رسوبى أو تأخرى عاما آخر ... فقد استغرق هذا المرض وعلاجه نحو ثلاثة شهور ... ولم تستطع العين أن تعود إلى حالتها الطبيعية إلا بعد تلك المدة ... ومع ذلك فهى حتى اليوم لم تزل أضعف من الأخرى ...

كانت السنة الدراسية التى بدأتها بعد المرض هى السنة الرابعة ... أى السنة التى أتقدم فى نهايتها إلى امتحان الشهادة الابتدائية ... على الرغم من خروجى مجهداً من المرض فإنى بذلت جهداً صادقاً فى المذاكرة والتحصيل ، دون الاستعانة بمدرس خاص ... كنت متفوقا فى اللغتين — العربية والانجليزية — إلى حد استرعى التفات المدرسين ... وكان مدرس الانجليزية — الذى سبق أن أعطانى الدرس الخاص فى العام السابق — إذا صحح كراسات الإنشاء تعجب وسألنى بخبث عمن يعطينى درساً خاصاً هذا العام ... فلما كنت أنفى ذلك كان يكذبنى ويسىء معاملتى ويتعمد إحراجى بالأسئلة الصعبة وإظهارى بمظهر الضعف ، ناصحاً لى بضرورة أخذ درس خاص ، كعهدى فى السنة المنصرمة ... كل ذلك وهو لا يستطيع كتمان اعترافه بصحة الإجابة المدونة فى كراريسى ... ولم أصغ إليه وتحملت صابراً تلك المتاعب ... دون أن أخبر أهلى بشىء ... إلى أن انتهى العام وتقدمت إلى امتحان الشهادة الابتدائية الذى عقد

بمدينة الاسكندرية ، فى سرادق ضخم بمدرسة رأس التين ...

كنت من أصغر المتقدمين سناً من مدرسة دمنهور ... على الرغم من أن سنى تلك كانت تعتبر كبيرة على تلك المرحلة نوعاما لتأخرى فى الالتحاق بالمدارس الابتدائية الأميرية ... ولكنها كانت صغيرة بالنسبة إلى تلاميذ الريف فى ذلك العهد ... خاصة من كان منهم من أبناء الأعيان والعمد ... كان أغلبهم فى العشرين أو جاوزها ... يأتون إلى المدرسة الابتدائية بشواربهم المبرمة ، وقد تزوجوا وأنجبوا ... وبعضهم ما كان يتحرج من المجىء بملابس أعيان الريف من جلاليب جوخ وعبيان وشيلان ، دون أن يجرؤ أحد على مخالفتهم . . . أذكر يوم سافرت من دمنهور إلى الإسكندرية لحضور الامتحان ، فهو ليس من الأيام التى تنسى : أوصلنى والدى إلى المحطة ، ومعى حقيبة ملابسى وكتبى .. وقطع لى تذكرة درجة ثالثة . . وأقبل القطار . . وحاذت العربة « الترسو » الرصيف . . فإذا بها محتشدة بركابها من الفلاحين والفلاحات ومن فى حكمهم ، وقد سدوا الأبواب والنوافذ بصررهم وقففهم ومقاطفهم وزكائبهم ... وكان من المستحيل أن أشق طريقاً إلى دخول العربة من الأبواب ..

فما كان من الحمال الذى يحمل حقيبتى إلا أن حملنى أنا وقذف بى وسط العربة من النافذة وقذف خلفى بحقيبتى ، فوقعت فوق رؤوس بعض النسوة المتدثرات فى « الملس » الأسود فصرخن ... وصرخ لصراخهن الرجال :

« إيه ده يا فندى ؟! ... »

فانتصبت واقفاً أعتذر بكلمات لا تكاد تخرج من حلقى ... وأسرعت إلى النافذة أنظر إلى والدى ، فوجدته يشير إلى بيده على الرصيف مودعا ... ثم اقترب فجأة من النافذة ليكرر ما سبق أن أوصانى به ؛ بمجرد وصول القطار إلى الاسكندرية أركب ترام « محرم بك » إلى منزل عديله زوج خالتى ، حيث أنزل طول مدة الامتحان ...

وهكذا سافرت بمفردى فى هذه الدرجة الثالثة ... لم أجلس طول الطريق إلا فوق حقيبتى ، وأنا أتلقى شتائم الركاب ، وقولهم « حاسب يافندى » !.. كلما مرت بى امرأة حاملة طفلها الذى يبكى ويبول ...

ووصل القطار إلى الإسكندرية بسلامة الله ! ... فما كدت

أهبط إلى شوارع هذه المدينة الكبيرة وأرى الجموع المزدحمة أمام دار « سينما تغراف » حتى ذهب عقل !... كانت تلك الدار تسمى « الكوزمغراف الأمريكانى » ... كانت الساعة وقتئذ حوالى الثالثة بعد الظهر والناس يتأهبون لحفلة نهارية ... والاعلانات الملونة تخطف الأبصار ... إنها حلقة مدهشة كلها خفايا وأسرار من حلقات اللص الخطير الشهير « زيجومار » . وبالله كيف كان يستطيع مثلى القادم من الريف أن يقاوم ؟!... لقد أغرانى الشيطان اللعين أن أدخل وأتفرج !.. أنا وحدى الآن ... وحر فى شأنى .. والدى تركته فى دمنهور .. وزوج خالتى لا يعرف بعد بأى قطار أو ساعة سأحضر ... (لم أعلم أن والدى الحريص كان قد كتب إليه بموعد الحضور) .. اقتربت من شباك تذاكر السينما تغراف وأنا أحمل حقيبتى بجهد .. فقيل لى : « هل معك ورقة شيكولاتة بولان ؟ » . ولم أفهم معنى هذا .. وعندئذ تقدم إلىّ أحد الباعة بورقة صغيرة ثمنها نصف قرش ، منتزعة من غلاف « باكو شيكولاته » تسمى « بولان » ، تعطينى الحق فى تذكرة بالدرجة الثانية بثمنها مخفض ... فاشتريتها وأخذت التذكرة بقرش ونصف وحضرت الحفلة ...

يالها من متعة !... ويالها من سعادة أن يكون الإنسان فى مدينة كبيرة كالإسكندرية ، وحده بلا رقيب ولا حسيب ! ... وانتهت الحفلة فى نحو السادسة فبحثت عن ترامواى محرم بك... وذهبت إلى منزل زوج خالتى فما أن رأونى داخلا حتى هدأ ثائرهم وزال انزعاجهم... وسألونى بلهفة : «فى أى قطار جئت»؟.. فتلعثمت... فأفهمونى أن الخطاب الوارد لهم من أهلى أخبرهم أنى حاضر بقطار الثالثة والساعة الآن السادسة ؟ ! ... فقلت لهم متردداً مرتبكا : «حصل تأخير فى وصول القطار».. فنظر زوج خالتى إلى بارتياب: «ثلاث ساعات تأخير ؟!... لماذا ؟... هل برك قطارك كما يبرك الجمل ونام منكم فى الطريق» ؟ !.

مرت أيام الإمتحان الأربعة التحريرى على خير، ثم يوم الامتحان الشفهى... ولم تكن إجابتى سيئة ولا مما يدعو إلى القلق الشديد... على الرغم من مستوى المعرفة المطلوبة وقتئذ لتلك الشهادة .. كنا نكتب فى الإنشاء موضوعات عويصة .. لا فى اللغة العربية وحدها. بل أيضاً فى اللغة الانجليزية... أطلعت عقب تخرجى على كراريس قديمة لم تكن بعد قد فقدت فعجبت غاية العجب كيف أن تلميذاً

فى الرابعة الابتدائية أمكنه أن يكتب بهذا الأسلوب فى العربية والانجليزية ... كنا فى العربية نعرف ونحفظ من الشعر والنثر ما يرقى إلى مستويات تثير الدهشة فى أيامنا الحاضرة وأجيالنا الصاعدة وكنا فى الجغرافيا نتبارى فى رسم الخرائط بالألوان لكل بلدان العالم، بحاصلات كل بلد وطرق مواصلاته وموانيه ومناخه وحالته الاقتصادية ... أما الحساب — ولست أدرى كيف نجحت فيه — فقد لبثت إلى يوم الامتحان أفزع من تلك المسائل التى كالألغاز عن قطارين أحدهما يسير بسرعة كذا والآخر بسرعة كيت ، وعن الماء الدافق من «حنفية» فى بالوعة بكمية كذا تصب كذا فى كذا من الزمن ... هذه القطارات والبالوعات أطارت النوم من عينى قبل الامتحان ساعات وساعات ... لا عجب حقاً أن كانت الشهادة الإبتدائية فى ذلك العهد تعتبر حدثاً من الأحداث ! ... وكان الحاصل عليها يقول عنه القائلون فى زهو وافتخار : «فلان هذا حامل للشهادة الإبتدائية ! ... ويتزوج بعدها من يريد أن يتزوج ، ويتوظف من يريد أن يتوظف ! ... ويظهر أنهم كانوا يعتمدون على هذه المرحلة من التعليم اعتمادا تاماً ، لأنها هى التى

كانت تمد الحكومة بحاجتها من الوظائف الصغيرة ... وكان هذا هو كل ما أرادته حكومات ذلك العصر من التعليم !...

وظهرت النتيجة . . . وكان رقم جلوسى بين الناجحين . . . بينما رسب كثيرون من زملائى فى دمنهور ، ممن يبرمون الشوارب وينجبون الأطفال ...

كان لابد للمضى فى المرحلة الثانوية ، من إقامتى فى الاسكندرية . . . واضطرت الأسرة بالفعل إلى إعداد منزل برمل الاسكندرية لهذا الغرض . . . وحالت أعمالهم فى دمنهور والعزبة بأبى مسعود دون الإقامة المتصلة معى ... فكانت إذا اقتضت مشاغلهم التغيب ، تركوا معى خادمة تقوم على شئونى ... والتحقت بمدرسة رأس التين الثانوية ثم بالعباسية ... وكان للزهو بنجاحى فى الشهادة الابتدائية من أول مرة أثره فى الاستهتار والتراخى والاستهانة والإهمال ... هذا إلى خلو الجو لى بغياب أهلى من حين إلى حين ، ووجود الكوزمغراف الأمريكانى ، والحلقات وسلاسل المغامرات التى كانت تطيش بلبى ... فبعد سلسلة « زيجومار » جاءت حلقات « فانتوماس » . . . هذا إلى روايات

« روكامبول » التى كانت تعرض للإيجار فى المكتبات ... كان تأجير الكتب والروايات نظير اشتراك شهرى أمراً شائعاً فى مكتبات ذلك العهد ... وقد أغرانى هذا التيسير بقراءة مالا يمكن اقتناؤه من الروايات ذات الأجزاء العديدة ... كان يكفى أن أدفع خمسة قروش شهرية لأصبح مشتركا ، فأستأجر وأقرأ الأجزاء العشرين لرواية طويلة مثل « روكامبول » أو مجموعات « اسكندر دوماس الكبير » ... وهكذا كانت الدروس تهمل وتتراكم ... إلى إن جاء آخر العام ... فإذا بى أرسب فى امتحان النقل إلى السنة الثانية الثانوية رسوباً قبيحاً ... وغضب أهلى لذلك غضباً شديداً ... وكرهوا السينما تغراف وسيرته وحرموه على تحريماً ... وانهالوا على ما كان فى حوزتى من روايات تقطيعاً وتمزيقاً ... وحزنت أنا وتألمت لهذا الرسوب .. ولكنى لم أشعر بالفجيعة وفداحة المصيبة إلا فى أول العام الجديد ، إذ رأيت رأى العين زملاء فصلى السابقين وقد انتقلوا إلى فصل أعلى ، ومنهم من كان يصغرنى بعدة أعوام ، وأنا الراسب الباقى فى سنتى الأولى ، أنظر إلى ارتفاعهم وقد تسلموا كتباً جديدة جميلة ، ككتاب عن « السفر إلى القمر » للكاتب

الانجليزى « ويلز » ... جعلت أختلس النظر إلى تلك الكتب واتحسر ... فلن يكون لى غير كتبى القديمة ، وسأوضع أنا القديم مع تلاميذ جدد ... بينما زملائى القدامى قد صعدوا — فى نظرى يومئذ — إلى سماء لا أصل إليها ... إلى القمر ... وتركونى فى الحضيض ...

عولت على أن اجتهد من أول العام ... لأكون على الأقل من المتفوقين ... وبدأت أتفوق بالفعل ... ومضت أسابيع على هذا الاجتهاد ... وإذا بإعلان السينما تغراف يلوح لى عن بعد كأنه شيطان ، كان معى خمسة قروش وفرتها من مصروفى ... فلم أستطع مقاومة الإغراء ودخلت الحفلة السينمائية فى الساعة السادسة ، عقب الانصراف من المدرسة ... وانتهت الحفلة فى التاسعة ... فما أن وصلت إلى المنزل فى آخر الرمل حتى كانت العاشرة تدق مع دقى الباب ... وفتحت لى والدتى شراعة الباب الزجاجية وأطلت منها دون أن تفتح لى ، وسألتنى « أين كنت ؟ ... طبعا فى السينما تغراف ! » فلما حاولت الإنكار طلبت منى أبراز القروش الخمسة التى تعرف أنها معى ... وهنا لم يسعنى إلا الاعتراف بالحقيقة ...

فما كان منها إلا أنها أغلقت فى وجهى شراعة الباب وهى تقول : « امكث فى الشارع إلى أن يأتى أبوك ويتصرف فى أمرك !... » . وحضر والدى وعلم بالقصة فهاج وماج وأقسم أن أبقى كما أنا خارج البيت ، والويل لمن يفتح لى الباب . . . ولبثت على قارعة الطريق طول الليل لا أدرى ما أصنع ! . . . وكان خفير الدرك يمر بى بين لحظة وأخرى ويدق الأرض بنبوته ويتنحنح ، وأنا أذرع الشارع المقفر جيئة وذهابا فى حيرة وخوف ورعدة ويأس من أمرى ... وأمر بين حين وحين ببابنا أنظر إليه نظرة المطرود من باب الجنة ، المنتظر الرحمة ... وأخيراً أحسست بالباب يفتح فى حذر شديد دون أن يبدو ضوء من الداخل . . . كان الجميع قد ناموا إلا جدتى ... لقد جعلت تتحين الفرص إلى أن استوثقت من رقاد أهل البيت فنزلت وفتحت لى وهى تهمس : « أدخل بغير صوت وسأخفيك فى حجرتى ، وفى الصباح يحلها ربنا ! . . . وطلع فذهبت إلى والدى ووالدتى وجعلت تحتال عليهما وتتشفع لى وتقسم لهما عنى بأنها الأولى والأخيرة ، وأنى لن أعود إلى مثلها أبداً ... إلى أن قبلا فى النهاية الصفح عنى

على شرط أن أحلف بالإيمان المغلظة التى لاحنث فيها — وأنا أعرف ما هو القسم الذى لاحنث فيه — على أن لا أضع قدمى فى سينما تغراف إلا بعد حصولى على شهادة البكالوريا . . . عند ذاك أكون حراً فى أمر نفسى ، واتحلل من قسمى . . . وأقسمت وبررت بالفعل بهذا القسم فلم تطأ قدمى السينما قط إلا عندما وطأت قدمى أعتاب مدرسة الحقوق ...

منذ تلك الليلة اللعينة وأنا أسير فى طريق الجد... حتى قراءاتى اتخذت اتجاها جديداً جاداً .. فمن بين كتبى التى لم تفقد واحتفظ بها حتى الآن ، كتاب « المحاسن والأضداد » للجاحظ . . . لا شك أنى اشتريته فى ذلك العهد ؛ لأنه مكتوب عليه بخط يدى اسمى كاملا والسنة الدراسية « سنه أولى ثانوى ... فصل أول » ...

على أن الفضل فى هذا الاتجاه يرجع أيضا إلى مدرس جديد للغة العربية جاءنا ذلك العام ... كان معمما إلا أنه عصرى فى تفكيره لم يشأ التقيد كغيره بالبرامج العتيقة ، فجعل يحبب إلينا الأدب العربى ويجذبنا إليه بالإقلال من شعر المديح والحكم والمواعظ التى كانت تثقل على قلوبنا الفتية ، والإكثار من شعر الغزل الرقيق

للعباس بن الأحنف ومهيار الديلمى وعمرو بن أبى ربيعة ومن شابههم ... وكان الفصل وأغلبه من المراهقين والشبان اليافعين الملهوبين يضج بالإعجاب والاستحسان ويستعيد ويطالب بالمزيد ويسأل عن المصادر ويدون فى الدفاتر ... كنا فى سن العواطف المشتعلة ... فى سن تريد الحديث عن الحب والهيام والشعور الجميل والخيال البديع ... كنا نريد أن نسمع من ينشد :

وابعثوا أطيافكم لى فى الكرى

إن أذنتم لعيونى أن تناما

أو : غيضن من عبراتهن وقلن لى

ماذا لقيت من الهوى ولقينا ؟ ! ...

أو : وناهدة الثديين قلت لها اتكى

على الرمل فى ديمومة لم توسد

ولا نريد أن نسمع ، ولا يهمنا أن نسمع :

علو فى الحياة وفى الممات

لحق أنت إحدى المعجزات

أو : له بفناء البيت سوداء فخمة
تلقم أوصال الجـــزور العراعر

منذ ذلك الحين بدأ اهتمامى الحقيقى الواعى بالأدب العربى وعلى الرغم من أن هذا الأستاذ هو الذى حبب إلينا هذا الأدب ، مما جعل البعض يحشرون فى موضوعات إنشائهم أبيات الشعر يملحون بها أسلوبهم ، وجعل البعض الآخر يستخدم فيه السجع ويرصعه بالعبارات الرصينة ، إلا أنه مع ذلك أدهشنى ذات يوم عندما منحنى أعلى الدرجات إعجاباً بموضوع إنشائى لم أعن فيه بحشر أبيات شعرية ولا برص عبارات محفوظة ... موضوع كتبته وأنا شبه مريض مكدود، أطلقت فيه نفسى على السجية وتركت قلمى يجرى ببساطة من لا يريد أن يبذل جهداً فى الإنشاء أو يتكلف تأنقاً فى البيان . . . كنت أتوقع منه توبيخاً ، فإذا بى أتلقى منه تقريظا ، وهو يسلمنى كراسة الإنشاء بعد تصحيحها قائلا لى :

« احسنت : إن خير البيان مالا يتكلف فيه البيان ... » .

لست أدرى كيف نسيت اسم هذا الشيخ ، وقد كان جديراً أن ينقش فى ذاكرتى دائماً ...

وجاء امتحان آخر العام ... ونجحت ونقلت إلى السنة الثانية الثانوية ... ولكنه نجاح لم أكن فيه من الأوائل المبرزين ، رغم إعادتى للسنة ... كان ضعفى فى الحساب والعلوم الرياضية عموما هو الذى أخرنى ولا شك فى الترتيب ... وكان أن نزل علينا ضيفاً فى ذلك الصيف بعض أعمامى الشبان ... أكبرهم سناً كان قد تخرج منذ قليل فى مدرسة المعلمين وعين مدرساً للحساب فى مدرسة خليل أغا ، ومعه شقيقه الطالب بالسنة الأولى بمدرسة المهندسخانة ، وأختهما الكبرى التى تعنى بشئون مسكنهم بالقاهرة فى شقة متواضعة بشارع سلامة فى حى البغالة بالسيدة زينب .. فلما علموا بضعفى فى الحساب والرياضة اقترح مدرس الحساب أن أحول إلى مدرسة بالقاهرة وأقيم معهم عامى الدراسى المقبل ، لأهميته وخطورته ، فهو عام التقدم إلى شهادة الكفاءة ... وبذلك يتسنى للعم مدرس الحساب أن يعاوننى ويقوينى فى هذه المادة ... وراقت الفكرة لأهلى ... فهم ما عادوا يثقون تماما فى اجتهادى ... وكان أبى كثير التغيب والأسفار ... يذهب لحضور جلسات المحاكم فى بلاد مختلفة ويعود إلينا فى الإسكندرية مرة كل خمسة عشر يوما ،

وكانت أمى مشغولة وقتئذ ببيت اشترته حديثاً بما تجمع لها من مال بعد أن تسلمت زمام أطيانها فى يدها …

أذكر حكاية شراء هذا المنزل . . . فقد كنت أتابع قصته فى صمت دون أن يحفل أحد بإشراكى فى الرأى … بل إن أهلى ما أشركونى قط فى رأى خاص بشئونهم المالية حتى بعد أن صرت وكيلا للنيابة . . . كان والدى يروى عن أبيه أنه كان يتصرف فى أطيانه بالبيع أو الرهن فإذا قيل له : هل استشرت ابنك القاضى أو ابنك المأمور ، أجاب متعجباً …

« كيف ؟ .. استشير العيال ؟ ! » … وقد سار أبى على سنة أبيه …

رأت والدتى أن يكون لها مستقر دائم فى بلدها الاسكندرية ، وهى قريبة من دمنهور ، فتستطيع التنقل بغير مشقة للإشراف على أرضها . . . فلما صح عزمها على ذلك انطلق والدى خلف السماسرة للبحث عن المنزل المناسب … وانتهى بهما الأمر إلى موقف الاختيار بين منزلين كانا معروضين للبيع بنفس الثمن وكانت لهما تقريباً نفس المساحة … إلا أن أحدهما يشرف على

البحر … والآخر بعيد عن البحر … وكان هذا الأخير لبعده عن البحر قد ازدهرت حديقته المتسعة وأثمرت فيها الفاكهة والخضر والنخيل بأنواعه … فى حين أن الأول على اتساع حديقته لم ينبت فيها غير الحشائش وبعض الأزهار ولم تزرع فيها فاكهة لقربها من ماء البحر المالح … ولم يطل تردد الوالدين … واختارا فى الحال المنزل البعيد عن البحر … كان فى محطة الرمل يسمى « شوتس » … وخلفه عزبة تسمى « عزبة غبريال » غاصة بالعشش والقذارة وصخب الأطفال المشردين فى حاراتها ، مما سبب لأهلى فيما بعد متاعب كثيرة طول حياتهم … لقد أعمتهم ثمار البرتقال الحمراء فوق الشجر عن موقع المنزل السيء الذى لم يزده المستقبل إلا سوءاً … أما المنزل المطل على البحر … فقد كان هو صاحب المستقبل السعيد . . . ولو أنهما اختاراه لأصبحا من الأثرياء … لكن من كان يظن فى ذلك الوقت أنه سينشأ أمامه « كورنيس » … وأن هذا الكورنيش سيجعل للأراضى والمنازل المطلة عليه هذه القيمة الكبرى ! … لقد كان المصطافون أنفسهم فيما مضى يتخيرون المواقع البعيدة عن

البحر ... لأن الشاطىء كان قفراً وحشياً تتخلله الصخور الناتئة ولا يؤمه إلا القليل من الناس فى بعض المواضع . . . لقد قال والدى للسماسرة عندما عرضوا عليه هذا المنزل :

« هل نحن مجانين حتى نشترى منزلا يطل على البحر القفر ؟! ... » .

قبل أن يموت بعام أدرك الحقيقة . . . وقال آسفا بمرارة :

« ليتنا كنا مجانين ! ...

ومع ذلك فلم يكن ثمن المنزل الذى اشتروه فى يدهم جميعه ... فلجأوا إلى الطريقة المعهودة : اقتراض باقى الثمن ورهن المنزل ...

فى هذا المنزل بعد شرائه نزل أعمامى هؤلاء ضيوفا علينا مدة الصيف . . . فكنا نمرح جميعاً فى الحديقة ونلهو ونضحك . . . فلما قبل الاقتراح واستقر الرأى على سفرى معهم آخر الصيف ، والإقامة عندهم فى القاهرة ، عامى الدراسى ، قام أهلى بتجهيزى للسفر واتفق والدى مع عمى المدرس على أن يرسل إليه أول كل شهر مبلغ ثلاثة جنيها ، نظير معيشتى بينهم ، أى مقابل الإقامة

الكاملة ! ... هذا خلاف مصروفى الشهرى المسلم ليدى وقدره خمسون قرشاً ، انفق منها على كل لوازمى وحاجاتى ... من الكتب الإضافية إلى النزهة الأسبوعية إلى السميطة وقطعة الجبن اليومية ... وأحياناً إذا احتاج الأمر إلى رباط عنق أو رباط حذاء ومسحه أو بلية أو قميص أو مناديل أو جوارب أو زر طربوش وكيه ... وأحياناً أكلة كباب عند الحاتى أو كوارع فى المسمط ... وغير ذلك من الأبواب العديدة المنظورة وغير المنظورة : ...

لم يخطر على بال أهلي ولا شك أنهم قذفوا بي إلى الحرية الواسعة وإلى الجو الفني الرحب يوم قذفوا بي إلى القاهرة .. حقاً لم أضع قدمي قط في دار سينما .. برأ بقسمي . ولكني اتجهت إلى المسرح بكل مايحتمله وقتي وجيبي . . كان جورج أبيض قد انفصل عن جوقة الشيخ سلامة حجازي الذي بدأ بالانضمام إليه ... واستقل بفرقة خاصة تمثل التراجيديا بغير قصائد ولا ألحان . . التمثيل من أجل التمثيل ... لا التمثيل من أجل الغناء ... وكان هذا شيئاً جديداً . . لم يجرؤ عليه إلا جورج أبيض وحده .. كان يعرض رواياته (كلمة مسرحية أو مسرح لم تكن مستعملة في ذلك الوقت) في تياترو الأوبرا، أو في مسارح أهلية مثل «تياترو برنتانيا» إلى أن أنشأ فيما بعد لنفسه مسرحاً خاصاً هو : «تياترو جورج أبيض» في شارع فؤاد سابقاً في المكان الذي تقوم فيه اليوم عمارة «جراند أوتيل» ... وما من شك أن تأثير جورج أبيض على الشباب المثقف كان قوياً ... فسرعان ما انضم إلى فرقته محام شاب هو «عبد الرحمن رشدي» . أثار احترافه

التمثيل وهو المحامي ضجة ونقاشاً ... شاهدته في دور «تيمور» في مسرحية «لويس الحادي عشر» فبهرني ... ثم انفصل هو أيضاً وانشأ فرقة خاصة به مثل فيها أنواعاً من الدرام والميلودرام الإيطالية والفرنسية مثل «الموت المدني» و«الضمير الحي» و«المرأة المجهولة» الخ ... أما جورج أبيض فكان قوام عمله وفنه التراجيديا في أرقى أنواعها : «أوديب الملك» و«هملت» و«عطيل» الخ ... كان مسرح جورج أبيض أقرب إلى الثقافة الجادة بحكم دراسته الجدية في فرنسا في حين أن عبد الرحمن رشدي كان من الهواة الذين لم يتلقوا التمثيل في الخارج عن دراسة أو ثقافة ... لكنه كان يؤثر في الجمهور بعواطفه المشتعلة، ويبكي بكاء حقيقياً، ويذرف دموعاً سخينة وهو يؤدي دوره ... كان هو في التمثيل من جانب والمنفلوطي في الأدب من جانب آخر ... أحدهما بصوته المتهدج الباكي، والآخر بأسلوبه النثري المبلل بالعبرات، يستنزفان مدامع الناس ويعتبران عند الكثيرين مثالاً للفن الصادق ... ولئن جاز أن نصف هذا المثال بأنه رومانتيكي؛ فإن جورج أبيض باعتماده على سلامة الأداء الفني ورسوخ القدم فيه والاتزان الذي يحول

دون فيضان العواطف فى بحار الدموع يمكن أن يوصف بأنه كلاسيكى ... لقد ظهرت «التراجيديا» فى مصر بظهور جورج أبيض واختفت باختفائه ... ولم يبق إلى يومنا هذا سوى الدرام والكوميديا ، ذلك أن الطبيعة قد حبته بكل ما يلزم للتمثيل التراجيدى : الصوت الجهورى والقامة الضخمة ... هذا إلى الموهبة والاستعداد الفطرى ... وعلى الرغم من نجاحه والاعتراف بفنه ، فقد كان يثير فى أول عهوده سخرية الصحف الهزلية ... وكان يحتل فقرة دائمة فى كل عدد من أعداد جريدة «السيف والمسامير» فى صفحتها المعنونة «باب اللدع» ... وهو باب تنشر فيه النكات والقفشات والقوافى المضحكة واللمسات الكاريكاتورية بالكلام لا بالرسوم — لم يكن الرسم الكاريكاتورى شائعاً وقتئذ — فكانت النكت اللفظية تقوم مقامه فى تصوير شخصيات المجتمع المعروفة ... كانت «تجعيرة الخواجه جورج» كما كانوا يسمونها — هى التى تدور حولها القفشات فى كل عدد ...

أما أنا فكنت كغيرى من هواة الفن الكثيرين شديد الإعجاب بجورج أبيض . . . أحفظ صفحات بأكملها من عطيل

وأوديب ولويس الحادى عشر ... ألقيها بطريقته مع بعض الهواة من الزملاء فى أوقات الفراغ ... ولم يكن يعوقنى عن حضور حفلاته بدار الأوبرا إلا النقود ... فما أن أعثر على خمسة قروش فى جيبى أصعد بها إلى أعلى التياترو ، حتى أسابق الريح إلى هناك ، وأعود فى منتصف الليل ماشيا على قدمى من الأوبرا إلى شارع سلامه بالبغاله .. ولم تكن عودتى المتأخرة تستلفت النظر فى بيت أعمامى العزبان ... فما من أحد فيه يملك سلطة حقيقية يهيمن بها على تصرف الآخرين ... ما كان أحد هناك يخيف أحداً أو يأمره أو ينهاه ... كل واحد فى ذلك البيت كان حراً فى أمر نفسه ... ورب البيت بحكم السن والوظيفة وهو مدرس الحساب ... كان لطبعه الوديع وقلبه الطيب وروحه المرحة وشخصيته اللينة الهينة لا يستطيع السيطرة على بعوضة ... وكان هذا من حسن حظى ! ...

وعشت هكذا فى حرية تامة . . . ما كان يمكن أن تتاح لى فى كنف والدى ووالدتى ، وتحت ضغطهما المستمر ، الذى كان سيحول قطعاً دون ارتياد المسارح والانغماس فى الحياة التى أريدها ... على أن هذه الحرية وهذا الانغمار فى مثل هذه الحياة ، كان من

الممكن أن يكون خطراً على حياتى الدراسية ... ولست أدرى على التحقيق ما الذى أنقذنى؟... أهو ستر من الله؟... أهو وازع من نفسى؟ ... أهو توازن غريزى ورثته بدأت بوادره عندى مع السن؟ ... كل الذى أعرفه أن الهواية لم تطغ عندى الطغيان الخطر الذى يجرفنى كما جرف غيرى بعيداً عن مجرى المدارس والتعليم ...

على أنى سرعان ما أدركت أن التعليم نفسه عامل مساعد للهواية ...

فقد وجدت مسرحية هاملت لشكسبير مما يقرر فى المدارس الثانوية... وقد قرأتها وقتئذ بالانجليزية، وأنا فخور معتز بأن هذه الرواية التى تمثل على المسارح قد اعترف بها رسميا فى المدارس ... كما أن نصوص المحفوظات هيأت لنا الفرصة لإشباع هوايتنا، فقلبناها إلى إلقاء تمثيلى ... وأدى بنا ذلك إلى الإقبال على الشعر العربى إقبالا شديداً ... فجعلنا نتبارى فى حفظ المئات من الأبيات ونتنافس فى المطارحات الشعرية ... ويباهى بعضنا البعض بكميات محصوله الشعرى . . . كانت الذاكرة فى قوة شبابها النضر، تحوى الكثير . . . وإنى لأدهش حقاً كيف تبخر كل هذا فيما بعد، وخلت الذاكرة من بيت واحد من الشعر . . .

وإذا ذكرت بيتا فإنها غالباً ما تذكر المعنى فيه دون اللفظ! ...

وصرنا بعدئذ إلى نوع عجيب من اللعب التمثيلى ... انتقيت اثنين من زملائى المبرزين فى الالقاء، وجعلنا نجتمع فى أوقات فراغنا لنلق تمثيلية ارتجالية... نلقيها أمام من؟... أمام أنفسنا نحن الثلاثة... كنا نحن الثلاثة المؤلف والممثل والجمهور فى وقت واحد... نبدأ بالاتفاق فيما بيننا على موجز لموضوع قصة ... ونوزع أدوار شخصياتها علينا، بغير نص مكتوب ولا معروف سلفاً ... ثم نأخذ فى المحاورة والإلقاء والتمثيل بكلام مرتجل للساعة والتو، يعبر بلغة عربية فصيحة عن مواقف أبطال القصة... وهكذا بدأنا المسرح نحن أيضاً كما بدأه الأقدمون بمرحلة الإرتجال... ثم انتقلنا إلى مرحلة التأليف... نحن أيضا... اتفقنا نحن الثلاثة على أن نجتمع عصر كل خميس فى منزل أحدنا... كان له «منظرة» للضيوف منفصلة عن بقية البيت، جعلنا منها مسرحا صغيراً، وتطوعت أنا بتأليف الرواية: أى المسرحية... وكنت أحرص على أن أفصل دور البطل فيها على مقاسى، واحشد له المواقف الهامة وأضع على لسانه العبارات الفخمة الضخمة... وعرف تلاميذ الناحية والجيرة

بأمر مسرح المنظرة هذا وما يمثل فيـــه ؛ فجعلوا يتوافدون للمشاهدة ... وبذلك أصبح لدينا الرواية التى تؤلف والممثل الذى يمثل والجمهور الذى يشاهد ...

على أن الخلاف التقليدى على الأدوار كان يدب بيننا نحن أيضاً ... حدث ذات يوم أنى ألفت مسرحية عن قصـة « النعمان ابن المنذر » واحتفظت فيها لنفسى طبعاً بدور النعمان ... وجاء يوم التمثيل فإذا بزميلى صاحب المنظرة قد أحضر عباءة أبيه ولبسها وأعلن أنه هو الذى سيقوم بدور النعمان بن المنذر ... فصعد الدم إلى رأسى من الغضب ... هذا الدور الذى فصلته لنفسى يأتى هذا ويرتديه ؟! ... فلما صحت به أن هذا الدور لا يصلح له ، أجابنى أنه أصلح أهل الأرض لهذا الدور : أولا لأنه يرتدى العباءة ... وأين لى أنا بعباءة ... لم يكن لى إلا معطف ... وهل يعقل أن يظهر النعمان بن المنذر بمعطف عصرى ؟! ... حجة قوية ... ولـكنى سألته : لماذا لا يعيرنى العباءة عند التمثيل ؟ ... فقال : ولماذا أعيرك إياها وأنا أصلح للدور كما تصلح له أنت ... بل إنى أقرب إلى الدور منك لأن اسمى « النعمان » فعلا ! ... كان اسم زميلى هذا حقيقة « عباس حلمى

النعمان » ... (رحمة الله عليه ... توفاه الله بعد أن أصبح طبيباً ناجحاً وعمل طويلا مفتش صحة بالأقاليم) كانت حجة الإسم دامغة ... وربما لم تـكن دامغة ، ولـكنى أمام إصراره والبيت بيته والمنظرة منظرته والمسرح مسرحه والعباءة عباءته ، لم أر بداً من النزول مكرهاً على إرادته وإن كنت لم أغتفر له هذا الاغتصاب لدور صنعته ودبجته بعناية لنفسى ! ... لم نتفق بسهولة على توزيع أدوار رواية مثل اتفاقنا على رواية « لويس الحادى عشر » ... كان يترك لى دور « لويس » عن طيب خاطر ، مرحباً بدور « الـكونت دى نيمور » ... ولن أنسى يوم جمعتنا فيما بعد مصادفات القدر فى أحد أقاليم الريف ، وكان هو مفتش الصحة هناك ، وكنت وكيل النيابة ... فما أن وقع نظره علىّ أول يوم تلاقينا حتى استقبلنى بعبارة « لويس » المشهورة التى يوجهها إلى « الـكونت دى نيمور » ... فاجأنى رحمه الله ونحن فى زحمة أعمالنا الرسمية الجدية بقوله فى لهجة تمثيلية : « إياك واللعب بالنار يا كونت ! ... » فلم أتمالك من الضحك ... وعجبت أنه لم يزل يحمل لتلك الأيام أجمل الذكرى ...

أقبل آخر ذلك العام الدراسى ، الذى قضيناه فى الإلقاء ومطارحات الشعر وتمثيل الروايات ، وعرضوا علينا اختيار القسم الذى نلتحق به بعد شهادة الكفاءة ... فاخترت أنا بلا تردد القسم الأدبى ... إذ لم أتصور نفسى طبيباً ولا مهندساً ... فأنا أتقزز من رؤية الدم ، ولا أحب النظر إلى المرضى ... أما الهندسة فلا يمكن أن أفهمها وأنا لا أفهم شيئاً فى الرياضيات ... وحاولت أن أغرى صديقى عباس حلمى النعمان بالقسم الأدبى فأبدى ارتياحه فى أول الأمر ... ثم عاد فسجل اسمه فى القسم العلمى ، نزولا على إرادة أبيه المصر على أن يراه طبيباً . . . أما والدى فقد وجد اختيارى طبيعياً ومتفقاً مع إرادته : أن أسلك مسلكه فى القضاء...

ونجحنا ... وحصلنا على شهادة الكفاءة ... منذ ذلك الوقت وقد يممنا بوجوهنا شطر « البكالوريا » — أخذت تبدو علينا أمارات الجد والإحساس بالمسئولية ، والميل إلى كل ما يشعرنا برجولتنا ... ظهر ذلك فى نوع مطالعاتنا ... كما ظهر من نوع عواطفنا ... فقد حدث فينا مزيج عجيب متناقض ... فإلى جانب إحساسنا بالحب الرفيع ، بدأنا نعرف المرأة كما كان يتاح لأمثالنا

مقابلتها وقتئذ ، فى تلك الأماكن المظلمة « بحى وجه البركة » و « كاوت بك » ، كلما استطعنا تدبير عشرة قروش فى ليلة جمعة ... قبل ذلك ما كنا نعرف غير العادة السرية ... ولكننا منذ عرفنا تلك البيوت المرخصة وقتئذ عرفنا الاتصال الجنسى المباشر بالمرأة ، للتسلل إليها فى الستر دون خشية فاضح أو رقيب ... ولقد حدث ذات مرة أن جاءتنا خادمة شابة أرملة لاحظت أنها تحاول الاختلاء بى وإغرائى ... وكدت أضعف وأهم بها لولا أنى جعلت أفكر فى الأمر ومغبته وما يمكن أن يترتب عليه من فضيحة فى الأسرة ... فتمالكت نفسى بسرعة وتماسكت وتغلبت إرادتى على نزوتى ... على أنه فى ذات الوقت وإلى جانب الكتب الجنسية الماجنة التى كانت الأيدى تتنازعها خفية فى الفصل ... مثل كتاب « رجوع الشيخ » ، فإننا كنا نقبل بتفاخر على المطالعات الجادة العميقة ... أذكر أنى اشتريت من مصروفى كتاباً ترجم حديثاً إلى العربية للفيلسوف « سبنسر » فى الأخلاق ... وكنت أشعر بالزهو أنى أقرأ فى الفلسفة وإن كنت لا أصدق الآن أنى فهمت شيئاً يذكر من هذا الكتاب وأمثاله من الكتب

الجادة الجافة ، إلا أنها كانت نزعة تلك المرحلة ؛ فقد انتهى اهتمامى بقراءة الروايات وقصص المغامرات ... بل لقد انتقل حديثى مع الزملاء من شئون التمثيل إلى المناقشة والمجادلة فى موضوعات فكرية وفلسفية ... على أن هذا الميل إلى التفلسف لم يمس بعد منطقة المعتقدات أو ماوراء الطبيعة ، بل كان يدور كله حول مسائل عاطفية ... فما من شىء وقتئذ كان يهز عقائدنا أو يجعلنا نصدق أن هناك تفكيراً يمكن أن يثار للتشكيك فى الدين ... حقيقة كنا نسمع عن وجود رجل اسمه « شبلى شميل » يتحدث عن داروين والتطور وأصل الأنواع وأن الإنسان أصله قرد ، وأنه ينكر وجود الله . . . ولكن المجتمع فى ذلك العهد كان عجيباً حقاً فى احتماله وتسامحه . . . وربما فى ثقته بقوة إيمانه . . . فقد كان يعلم أن شبلى شميل ملحد ، وأنه يجاهر ويباهى بإلحاده . فما كان أحد يزيد على أن يبتسم أو يسخر أو يمطره بالنكات ... من ذلك تلك النكتة التى تواترت يومئذ عن الشاعر حافظ إبراهيم . . . قيل إنه كان يستمع إلى إحدى المطربات فى ملهى من الملاهى وإلى جواره «شبلى شميل» الملحد الذى لا يؤمن

بغير الطبيعة ... فلما أجادت المطربة فى الغناء صاح حافظ ابراهيم مع الصائحين : « الله !... الله !... » ثم التفت إلى شبلى شميل وقال له : وأنت كيف تصيح عند الطرب والله عندك غير موجود؟!... هل ستصيح : « طبيعة !... طبيعة » ؟!..

كان مثل هذا التسامح الساخر يجعل المؤمن لايصدق أن الإلحاد شىء جاد ... لذلك ما كان تفكيرنا الذى أخذ يتجه إلى التفلسف يصدق أن فى الإمكان مد التفكير إلى منطقة البحث فى وجود الله ولم يكن فى أيامنا قد ترجم إلى العربية كثير من الكتب الفلسفية أو نشر فيها ما يغذى ميولنا الجديدة ويرضى غرورنا الناشىء ... ولم يكن علمنا باللغة الانجليزية يرقى إلى مستوى الاطلاع فى الكتب الفلسفية الانجليزية ... وربما لأننا لم نكن نعرفها أو نسمع بأسمائها وأسماء أصحابها ... وحتى لو علمنا لما وجدنا أثمانها فى جيوبنا ... أما الفلاسفة العرب من أمثال الغزالى وابن رشد وابن سينا ... فلم نجد من يرشدنا إليهم ... ولم تكن كتبهم الصفراء مما يسهل على أمثالنا الحصول عليها ، ولم يفكر المسئولون طبعاً أن يضمنوا البرامج الدراسية بعض صفحات قليلة مختارة

كنماذج للفكر العربى أو الإسلامى ... فقد كانت البرامج الدراسية مقصورة على النصوص الأدبية البحتة ... ويختار لنا منها ما هو فن زخرفى تجريدى ... فالأدب العربى فى بعضه ربما كان من حيث الشكل هو أول أدب تجريدى فى التاريخ ، يقوم على القيم الجمالية اللفظية فى شكل المقامات والسجع والبديع والجناس إلخ ... على نسق الفن التشكيلى التجريدى فى الزخرفة العربية الإسلامية ... لذلك كله ضاعت علينا فرصة التكوين الفكرى الفلسفى الحقيقى فى تلك المرحلة التى يريد فيها العقل أن يتفتح للتفكير بل إن أمهات الكتب الأدبية نفسها التى كان يجب أن نطالعها فى تلك المرحلة لم تكن فى متناول أيدينا ... كان يجب فى تلك السن أن نكون قد أحطنا علما بروائع الآداب العالمية أو على الأقل بعض نماذج لها ... لم يكن قد ظهر فى الترجمات وقتئذ غير الجزء الأول من البؤساء لفكتور هوجو ... ترجمه حافظ ابراهيم بأسلوب عربى جزل ... كنا نترنم به ترنما ... ثم ظهرت ترجمة رديئة لرواية تولستوى « حنا كرنينا » لم تكن تصلح للإيحاء إلينا بأنها من الأدب الخالد ... كان فتحى زغلول حقاً قد ترجم لمونتسكيو ،

لعله كتاب « روح القوانين » ... وكانت لدى والدى نسخ كثيرة منه كذلك لتوزيعها ... ولكن الكتاب لم يجذبنى إليه وقتئذ ... ربما كان ذلك لموضوعه أو لارتفاعه عن مستوى إدراكى ... على أنى وجدت من كتب والدى بعض مؤلفات قيمة فى الأدب العربى ... أذكر منها « العقد الفريد » لابن عبد ربه بأجزائه العديدة ... و « الكامل » للمبرد و « الأمالى » للقالى ونحو ذلك .. وقد طالعت « العقد الفريد » بشغف شديد أكثر من مرات وفى مراحل كثيرة من حياتى ... ولم أزل محتفظاً بمجلداته تلك فى الطبعة القديمة ذات الورق الأصفر والغلاف الجلدى السميك حتى يومنا هذا ... والعجيب أن والدى الذى أمرنى بمطالعة المعلقات وضربنى من أجلها ، لم يأمرنى بقراءة العقد الفريد ، وهو أبسط وأمتع وأنفع لمن كان فى سنى ... ولعله لم يفطن إلى وجوده فى صناديقه وصحاحيره ... أنا الذى اكتشفت وجوده بنفسى وأنا أنقب فى تلك الصناديق والصحاحير التى لبثت أعواما طعاماً للصراصير ! ... فقد كانت والدتى تضيق بها أشد الضيق وتقذف بها فى أى مكان تلقى فيه المهملات

والكراكيب ... ذلك أنها منذ تزوجت والدى ورأت فقره وخافت على مستقبلها وأرعبها شبح الفاقة أرعبته معها ... فإذا به ينسى الشعر والأدب والفكر ، ويمضى يهتم بمشاغل العيش والكفاح من أجل تدبير مورد إيراد ثابت .. وظل طول حياته لاهم له ولا كلام إلا فى الأرض والأطيان ، السماسرة ، والبيت الذى اشترى فى الرمل ، والبنك والأقساط ، والرهنية ، والفوائد المستحقة ، ومضى شبابى وأنا لا أسمع منهما إلا الحديث فى هذا الموضوع ... ولم يصبح لوالدى من الوقت ولا من فراغ البال حتى ما يمكنه من سؤالى عما أقرأ ... وأحمد الله على ذلك ... فلو أنه دفعنى دفعاً إلى مطالعة ابن عبد ربه والجاحظ وابن المقفع وغيرهم ممن قرأت لهم بنفسى ، وأمرنى أمراً وضربنى ضرباً من أجلهم كما فعل من أجل المعلقات ، لكرهتهم وما رأيت فيهم غير أشباح مخيفة ... على أن الذى كنت أشتاق إلى مطالعته كل الاشتياق فى تلك السن هو تلك المسرحيات التى كنا نشاهدها فى دار الأوبرا وغيرها من المسارح ... بحثت عنها كثيراً وسألت عما إذا كانت قد طبعت فى كتب ؟ ... فقيل لى إنى قد أعثر على بغيتى فى بعض

مكتبات شارع محمد على أو شارع عبد العزيز ... لكنى بعد البحث الطويل لم أجد غير القليل منها مطبوعا طبعاً رديئاً مثل مسرحية « بوريدان أو البرج الهائل » و « شهداء الغرام » بقصائدها و « عطيل » ثم « لويس الحادى عشر » التى فرحت بها فرحاً كبيراً ، وحفظت منها دور « لويس » بأكمله ... غير أنى لم أجد « هاملت » وكنت تواقاً إلى قراءتها كما مثلت فى العربية ... بل إنى لم أجد مسرحية واحدة من مسرحيات موليير التى ترجمها زجلا « عثمان جلال » ... كنت أتألم ألماً حقيقياً لحرمانى من هذه المؤلفات التى كنت أحس بحاجتى الشديدة إليها فى تلك المرحلة المتحمسة المتوثبة من حياتى ... أدركت فيما بعد ما هو المعنى الحقيقى للحضارة والبلد المتحضر : هو أن توضع كل آثار الذهن وتراث الفكر فى متناول الأيدى بلغة البلد لكل مراحل السن ...

كانت مصر فى تلك السنوات تعيش خلال الحرب العالمية الأولى ... وإذا كررت عائداً إلى الوراء لأتلمس مشاعرى فى ذلك الوقت ، لوجدتها هى نفس مشاعر كل مواطن إذ ذاك ... كنا بقلوبنا مع الألمان والأتراك ... وقد كانوا فى جانب واحد ضد الانجليز الذين كنا نمقتهم ونتمنى الخلاص من احتلالهم ... كان الشعور بكراهية الإنجليز شيئاً طبيعياً كالهواء الذى نتنفسه ، ولا نجادل فيه ولعل الفضل فى إثارة الشعور العام ببغض الإنجليز هو للمجاهد مصطفى كامل ... فقد كان رمزاً فى قلوبنا لمناهضة العدو البغيض الذى يسمى «الإنجليز» ... غير أن مصطفى كامل قبيل وفاته كان يبدو لعينى الصغيرة بطلا من أبطال القصص مثل أبى زيد الهلالى والزناتى خليفة ، بل إنه قد أصبح فعلا بعد ذلك أسطورة من الأساطير فى نظر العامة ... فقد كنت أسمع عنه كلاما من هنا ومن هناك وأرى صورته فى بعض الصحف فأتخيله فى صورة من تلك الصور الخيالية ... ويوم مات وقامت قيامة

الناس لموته سمعت أخبار جنازته ممن حولى ، ولم نكن يومئذ فى القاهرة ... كنا بالأقاليم فكان يصل إلى أذنى وقلبى الكلام عن وفاته وحداد الأمة عليه ، فأشعر أنا أيضا بالألم يحز فى قلبى الصغير ... وتواترت إشاعات لم أزل أذكرها حتى اليوم ... قيل إنه مات مسموما ... سمه أعداؤه الإنجليز ... وكنت أسأل فى سذاجة : كيف سموه ؟ ... فقيل لى : وضعوا له السم فى مقبض عصاه المحلى بالذهب ... وكنت استفسر عن كيفية ذلك ... فيقال لى : دهنوا مقبض العصا بالسم فلما أمسك به سرى السم فى جسده ... وكنت أصدق ذلك الكلام ويسرى فى نفسى ويختلط بدمى حاملا الكراهية لأولئك الذين فعلوا به ذلك ... قال لى أبى فيما بعد إن مصطفى كامل كان فى السنة الأولى بمدرسة الحقوق يوم كان والدى وزملاؤه بالسنة الرابعة ... وما كانوا يرون فيه إلا شاباً ثرثاراً ، يترفعون عن الاهتمام بكلامه الكثير أو أخذه مأخذ الجد ، وكانوا هم أيضا مهتمين بسياسة البلد ودائبين على مطالبة الخديوى بالدستور ولم يكونوا أقل منه وطنية ولا ثقافة ، كما قال لى .. وهذا جائز ... غير أن الذى فاتهم

إدراكا من أمر ذلك الشاب هو أنه كان يملك مالا يملكون : قدرته على تحويل كلامه إلى حركة عملية ثورية ، وموهبته فى الإثارة الشعبية ... وهذا استعداد خاص لا يتأتى لكل شخص ...

أما شعور حبنا للترك وقتئذ ، فلعله فى أغلبه من تأثير مصطفى كامل أيضا ... فقد كان اتصاله بالأستانة والباب العالى شيئاً معروفا ... وكان الناس ما عادوا يشعرون بوطأة حكم الترك شعورهم بالاحتلال البريطانى ... فالحكم التركى كان قد زال فعلا أثره من النفوس ، ولم يكن يربطنا به إلا خيط شبه رمزى ... وما أن أعلنت الحرب ، وكان الخديو عباس قد سافر إلى اسطنبول للاصطياف حتى قطع ذلك الخيط أيضاً ، وأصبحت مصر تحت حكم بريطانيا المطلق مباشرة عملا ورمزاً ... كنا طول مدة الحرب نتطلع إلى ناحية القنال ننتظر مجىء الأتراك والألمان لينقذونا من الاحتلال البريطانى ... وكانت الأخبار تتواتر كل يوم عن رؤية جيوش قادمة عبر قناة السويس ... بهذا الأمل كنا نعيش طول الحرب الأولى ... ولم نكن نحن سكان المدن نشعر بوطأة الحرب كثيراً ... اللهم إلا تحمل رزالة الجنود

الاستراليين والسكارى من الانجليز ... وخطفهم ما فى جيوب المارة ليلا ومافى أيدى الباعة نهاراً .. فما من مظاهر واضحة أخرى للحرب سوى أن النوافذ المطلة على البحر فى الأسكندرية كنت أراها مطلية باللون الأسود أو الأزرق بأمر الانجليز ، حتى لا يتسرب الضوء ليلا إلى غواصات الألمان .. أما القاهرة فلا أذكر أنه اتخذت فيها احتياطات هامة لأن الطائرات لم تكن كثيرة الاستعمال فى تلك الحرب .. وخاصة فى مدائنا .. لست أذكر أنه كانت تطلق صفارات إنذار .. ومضت الحرب دون أن يحدث فى مصر غير حادث واحد التحليق طائرة ألمانية فوق القاهرة ... ألقت بضع قنابل «شرابنل» . أذكر اسم القنابل جيداً لأن هذا الحادث الوحيد من نوعه كان موضع حديث الناس والصحف وتصوير مجلة «اللطائف المصورة» أشهر مجلة مصورة فى ذلك الوقت ... نشرت صوراً لمكان الحادث الذى وقع على ناصية شارعى عماد الدين والمغربى «عدلى باشا» .. ولم يكن فيما أذكر لهذه القنابل ضحايا بشرية . كل ما نتج عنها إصابة عربة حنطور وحصانين ، وقد قتل الحصانان ... هذان الحصانان هما كل ضحايا الحرب الجوية فى بلدنا فى ذلك العهد ... وفى ذات يوم ساعة

العصر بينما أنا فى الشارع إذا بى أرى الناس تتجمع وتتصايح ويخرج أصحاب الدكاكين مهللين ويقذف الخواجات بقبعاتهم فى الهواء فرحين راقصين هاتفين ، وكأن الناس جميعاً قد جن جنونهم فجأة ... فسألت عن الخبر ، فسمعت من يصيح بجوارى « الهدنة ... الهدنة » ...

وهكذا انتهت الحرب الأولى ... ولم يمض قليل حتى قامت ثورة ١٩١٩ واشتعلت مصر ... ويدهشنى أنى لم أتجه يومئذ إلى الخطابة أو كتابة المنشورات ، مثل بعض زملائى ومعارفى . فقد كان اتجاهى هو إلى تأليف الأناشيد الوطنية الحماسية . وأحياناً كنت ألحنها بنفسى مسترشداً فى التلحين بأنغام تلك الموسيقى الجنائزية التى كانت تعزفها فرقة حسب الله « الأصلى » أمام نعوش ضحايا المظاهرات ... علمت فيما بعد أنها فى الأصل لبعض « مارشات » شوبان وفاجنر ، ولكن حسب الله — عافاه الله — قد قلبها رأساً على عقب ، فإذا هى شىء لو سمعه شوبان وزميله فاجنر لأغرقا فى الضحك ، وعجبا لما صارت إليه ألحانهما ! ... ذلك أن فرقة حسب الله كما كنا نراها فى الجنازات كانت تتكون من عشرة أفراد على الأقل ... ولكن الذى يعمل منهم حقيقة لا يتعدى الثلاثة .. أما السبعة الباقون فلا يعزفون شيئاً

كل مهمتهم أن يحملوا آلات نفخ مسدودة أو من الخشب المطلى لإيهام الناس أنهم موسيقيون ، وما هم إلا نوع من الكومبارس يمثلون الأداء بالإشارة لزيادة العدد ... كان يكفينى اللحن الأساسى الذى أعرف منه إيقاع « المارش » لأستخرج منه لحناً آخر حماسيا يتمشى مع كلمات الأناشيد التى أضعها فى مناسبات الثورة ... وقد انتشرت بالفعل بعض تلك الأناشيد إلى حد أدهشنى ... سمعت يوما بعضها يردده المتظاهرون فى حى بعيد ، دون أن يعرف أحد من مؤلفها وملحنها ؟! ... ما كان هذا يهم أحداً فى ذلك الوقت ... كان المهم هو التقاط أى نشيد يلهب الحماس أينما وجد ... بل إنى علمت فيما بعد أن من تلك الأناشيد ما كان يردده شباب الإسكندرية ، فإذا سئلوا عن مصدره قالوا لا نعرف ، إنما هو نشيد جاء من القاهرة ... لا أحتفظ مع الأسف بنص واحد منها ... ولا أذكر لحناً واحداً ... لكن زميلى عباس حلمى النعمان رحمه الله ظل يذكرها وينشدها أمامى كلما تقابلنا فى الحياة بعد التوظف ، فنضحك ونعجب ... يخيل إلى أنى نظمت أيضا بضع قصائد من الشعر فى الحركة الوطنية ضاعت هى الأخرى ... وقد نسيتها فى حينها ... إنى لأتساءل أحيانا

لماذا لم أتجه إلى الشعر للتعبير عن عواطف الشباب ... كما فعل والدى فى شبابه ... كنت أستطيع ذلك أنا أيضاً على نحو ما ... لم تكن القدرة على النظم تعوزنى ... ولا العجز عن الأداة اللغوية ... فقد كنا فى أهم مراحل حفظنا للكثير من النماذج الشعرية ... وكان غير قليل من زملائى ينظم الشعر بسهولة ... لا أقصد عن موهبة ... بل لمجرد المحاولة ... إن عدد الذين كانوا يقرضون الشعر فى الحركة الوطنية من مطربشين ومعممين وطلاب فى الأزهر ودار العلوم والمدارس العليا والثانوية والمعاهد الدينية لم يكن يعد ولا يحصى ... ما من شاب وقتئذ لم يدبج القصائد فى حب الوطن ... وربما فى غيره أيضاً ... ما الذى أقعدنى أنا ؟ ... ليس عندى سوى تعليل واحد : هو أن الشاب يلجأ إلى الشعر تلبية لنداء الفن فى أعماقه ... فبعض النفوس الى يستيقظ فيها شيطان الفن تحاول أن تجد له مخرجاً وثياباً ... والشعر أقرب تلك الأثواب تناولا للشاب ... فالنموذج أمامه فيما حفظ من شعر الشعراء وما عليه إلا أن يسير على الدرب ... هذا إذا لم يكن هناك ثوب آخر كالموسيقى أو الرسم أو التمثيل حل فيه الشيطان من قبل ... وتلك كانت حالتى ... فشيطان الفن عندى كان قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل أن

يلتفت إلى ثوب القصيدة الشعرية ، ولما حل فيها كمن واستقر ولم يعد يفكر فى الخروج إلى غيرها من أثواب وأشكال ... حتى عندما فكر فيما بعد فى اتخاذ ثوب الرواية والقصة ونحوهما فإنه اتجه إلى ذلك بدافع العقل الواعى والحاجة الماسة ، حاجة المواطن إلى التعبير عن حماسه لبلاده وعن رؤيته لتطور مجتمعه . وحاجة الأدب وقتئذ إلى إقرار هذه القوالب الجديدة على نحو جاد ، لتحمل موضوعات جديدة ، ما كان يمكن أن تحملها غير الرواية والقصة ، وقد كانا يومئذ فى فجر حياتهما ، فى حاجة إلى دفع ودعم من كل من وهب نفسه للفن ، لتطمئن هذه القوالب وتحظى بالاحترام الذى كانت محرومة منه بين غيرها من فروع الأدب العربى .. بل إن اعتبارها فرعا من الأدب العربى لم يكن بعد معترفا به ... إنها كانت كمهنة التمثيل والموسيقى والتصوير والنحت ، أشياء لا يقربها إلا المغامرون المقامرون بسمعتهم ... فلا يستغرب إذن أن تبقى رواية « زينب » للمرحوم هيكل متدثرة بالظلام ، لا يجرؤ مؤلفها على إعلان اسمه أعواما عديدة ... أى إلى أن أعاد طبعها باسمه الصريح ... وكنت أنا وقتئذ فى فرنسا أكتب « عودة الروح » ... كان الأمر إذن — ولم يزل —

فيما يتعلق بكتابتى للرواية والقصة تطوعا قوميا وفنياً ، أقوم به كلما شعرت أن هناك حاجة إلى الإسهام بجهد ، وأن الواجب يدعو إلى المحاولة ... لذلك وقفت طويلا وقفة المتردد أمام محاولة «عودة الروح» ، بعد أن كتبت فيها مائة صفحة ... هل أمضى فى كتابتها ؟. أو أكف وأمزق ما كتبته وأعكف على المشروع الآخر الذى كان يراودنى وقتئذ : كان ذلك المشروع هو تأليف كتاب ضخم عن الفن من ثلاثة أجزاء ... الجزء الأول تعريف بالفن عامة من كل وجوهه وفروعه ... والجزء الثانى عن الفن المصرى فى مراحله المختلفة ... والجزء الثالث عن الفن فى العالم الحديث ... كنت فى أوروبا ورأسى ممتلىء بالقراءات والتأملات والأحلام أيضاً ... لأن القيام بتأليف مثل هذا الكتاب هو حلم لايتراءى لشخص فى تمام يقظته ... ولكنه طموح الشباب ... العجيب أنى كتبت من الجزء الأول نحو خمسين صفحة أو يزيد ... وحدثت البلبلة ... ووقعت فى الحيرة ... أيهما أكتب وأيهما أترك ؟... إنى أعرف نفسى ... إنى شخص لايستطيع أن يسير فى طريقين ... وطاقتى لاتحتمل التشتيت ولا تعمل إلا بالتركيز ... صممت على أن أمزق أحد العملين،

حتى أتفرغ للآخر ... لا بد من إعدام صفحات أحدهما حتى لا تخايلنى وتغرينى وأنا فى منتصف العمل الآخر ... لكن أيهما ؟. وأنفقت أياما أوازن بين الحجج ... وأخيراً انتهيت إلى تمزيق كل ما كتبت فى الجزء الأول من كتاب «الفن» .. كانت حجتى هى أن مثل هذا الكتاب سيأتى من يكتبه حتما ، فقد كنا على أبواب جامعة جديدة بها كلية آداب سيكون فيها ولاشك أساتذة فى تاريخ الفن . سيؤلفون يوما فى هذه الموضوعات بجدارة حقيقية ؛ لأنهم متخصصون أما «عودة الروح» مهما يكن من قيمتها فهى عمل شخصى لحياة إنسان بالذات لن تتكرر ولن أستطيع أن أقول عنها «فلننتظر فسيأتى آخر ليكتبها» ... لأن هذا مستحيل ... فهى انفعالاتى أنا التى لا يحسها غيرى ... إن تأليف كتاب فى الفن يمكن أن تقوم به الجامعات ... لا فى جامعاتنا وحدها بل فى جامعات البلاد الأجنبية فما أكثر ما نظهر فيها المؤلفات عن تاريخنا وحضارتنا وتفكيرنا القديم والحديث ... لكن تأليف رواية مصرية أو إنشاء أدب قصصى مصرى هو عمل لا يقوم به إلا صاحبه ، وابن بلده . لا بد أن ينبت فى أرضه بأيدى أهله . وكل جيل مسئول عن جيله

وعن تمهيد الأرض لمن سيأتى بعده . خاصة وأن هذا النوع من الأدب العربى ـ وهو الرواية الحديثة ـ لم تكن قد استقرت بعد كقالب فنى ... فما كان يجوز إذن تركها للمستقبل ... لأن المستقبل فيها لن يأتى إلا على أساس الحاضر ... والرواية التى تؤلف اليوم إن هى إلا حلقة فى سلسلة النمو الطبيعى للرواية غداً ... وإن أى تأخر فى تكوين هذه الحلقة سيحدث فجوة ويطيل فترة ويعوق حركة النمو . فى وقت كانت بلادنا فى أشد الحاجة إلى قالب الرواية لتصوير تلك الموضوعات الجديدة التى اقتضتها الحياة الاجتماعية والقومية فى تلك المرحلة الهامة من مراحل تطورنا ...

ومزقت الصفحات الخمسين من كتابى عن الفن ... وليتنى لم أفعل ... لأرى على الأقل اليوم ما هذا الذى كنت قد كتبت ؟! ...

وهكذا مضيت فى كتابة «عودة الروح» لا ألوى على شىء ... لا أرجو منها — من حيث الشكل — إلا المساهمة بالجهد الواجب نحو هذا القالب ... على قدر طاقتى الفنية ... أما من حيث الموضوع فإنى لم أرد أن أجعلها سجلا لتاريخ بقدر ما أردت أن تكون وثيقة لشعور .. شعور شاب صغير فى وسط مرحلة خطيرة لبلاده .

ذلك أن رأيى فى الفن ومهمته هو أن يترك تسجيل التاريخ للمؤرخين ، فهذا عملهم وهم أدق ... وأن يترك تفاصيل الأحداث للصحف اليومية التى دونتها يوما بيوم ... وهذا عملها كذلك وهى أشمل وأعم ... ومجموعاتها تحتل المكتبات العامة ... يبقى بعد ذلك شىء لا يستطيعه غير الفن ... هو بعث الانطباع وإبراز الشعور ... وبدت لى أدواتى الفنية أعجز من أن تبرز كل ما كان بنفسى ، وكان ما فى النفس يومئذ أوسع وأعمق مما تتسع له رواية واحدة ، وما كانت «عودة الروح» إلا حلقة من حلقات عمل أضخم تصورته ووضعت تخطيطه فى ذهنى ولم أجد الظروف الملائمة لتحقيقه ... لذلك تركت مخطوطة «عودة الروح» نائمة فى أدراجى طويلا ... إلى أن شاءت المصادفة البحتة وأنا وكيل نيابة لطنطا أن تقع ذات يوم فى يد زميلى فى القضاء : محمد طاهر راشد « رئيس محكمة الاستئناف بالمعاش » وهو قارئ مثقف محب للأدب والاطلاع فأخذها إلى القاهرة وأصر على نشرها وقاوم ترددى : فلم أشعر إلا وهى فى المطبعة ... على أن دوافعى النفسية التى جعلتنى أكتب « عودة الروح » بهذه الصورة ما كان يمكن أن تتكرر ... لأن

الظروف السياسية كانت قد تغيرت... فإن تكوين الأحزاب بعد ثورة ١٩١٩ على ذلك النحو الذى حدث ، وتنافسها على اقتسام واقتناء أصحاب المال والجاه وكبار الملاك لضمهم إلى عضويتها ، جعل قيادات هذه الأحزاب فى أيدى تلك الطبقة ، ولم يسمح للمفكرين والمثقفين الحقيقيين إلا بالمراكز الثانوية التى ليس لها حق التوجيه... ومن هنا ضعف الدور الفكرى والاجتماعى لهذه الأحزاب ، واقتصر نشاطها على الجانب السياسى ... وحتى هذا الجانب أيضا قد تمخض أحياناً كثيرة عن مجرد تطاحن على كراسى الوزارة وتنازع على ثمار شجرة الحكم ... وهو ما كان يهم أكثر تلك القيادات . . . أما الكاتب المفكر المثقف فى نظرها فكان فى الأغلب مجرد قلم يستأجر للدفاع عن وجهة نظرها ، والهجوم على خصومها ... وكان هذا ما نفرنى وأبعدنى عن هذه الأحزاب ، وما جعلنى أقف ضدها جميعاً ، وأرى كل شىء يتحرك من حولى داخل إطار سياسى كاذب مزيف ، وما جعل الصورة التى يمكن أن تكتب عن بلادنا وقتئذ أبعد ما تكون عما كانت تتمناه عواطفى المتحمسة التى دفعتنى إلى كتابة مثل «عودة الروح» ...

كانت أول تمثيلية لى فى الحجم الكامل هى التى أسميتها «الضيف الثقيل» ... أظن أنها كتبت فى أواخر عام ١٩١٩ لست أذكر على وجه التحقيق ... كل ما أذكر عنها — وقد فقدت منذ وقت طويل — هو أنها كانت من وحى الاحتلال البريطانى ... وأنها كانت ترمز إلى إقامة ذلك الضيف الثقيل فى بلادنا بدون دعوة منا ، وبدون رغبة منه فى الانصراف عنا ...

ولم يكن بالطبع من الممكن إظهار هذه المسرحية على مسرح فى ذلك الوقت ... والرقابة على المطبوعات لم تكن لتعمى عن مرامى مثل هذا الموضوع فى وقت لم يكن للناس حديث ولا تهامس إلا عن الاحتلال الثقيل ومتى تنزاح غمته ... على أن السؤال الواجب هنا هو : لماذا بدأت أول ما بدأت بالمسرحية ؟ ... لعل الطبيعة المسرحية : أى خلق الإنسان من الحوار لا من الوصف ، خلقه من واقع كلامه هو ، لا من واقع وصف غيره هو ما يلائم طبعى ... لماذا ؟ ... أهى وراثة ؟ ... أهو روح الجدل والمنطق والتركيز

ووضع الكلمة فى موضعها وحوار النفس وقلق القاضى وميزانه عند والدى ، كل ذلك أقرب إلى روح المسرح . لست أدرى؟... قد يكون هنالك أيضاً سبب أعمق . . . ربما كانت طبيعة ميراثنا الأدبى نفسه... إن طبيعة التركيب والتركيز عند العرب منذ القدم فى الشعر والفكر والأدب والبلاغة — هذه الطبيعة التى هى جوهر الفن المسرحى — تجعلنى دائماً أعتقد أن السليقة العربية هى سليقة مسرحية.. وإذا كانت ظروف مختلفة قد حالت دون تجسيد هذه السليقة بالطريقة المعروفة عند اليونان ، فإن ذلك لم يمنع من ظهور بوادرها فى أشكال أخرى ، فأنا كلما تصورت مشاهد رسالة الغفران للمعرى ، أو قرأت قطعا من حوار فى الأغانى أو للجاحظ ، ورأيت ذلك البناء المحكم للصورة والعبارة ، والإصابة المباشرة للمفصل ، بلا لغو ولا فضول فى التلوين السريع للشخصية أو العاطفة أو الفكاهة ، أوقن وأشعر بالجذور العميقة الخفية لهذا الميل عندى للفن المسرحى... مهما يكن من أمر فإن هذا الميل قد لازمنى وسار معى فى كل خطوة من خطوات حياتى ودراستى.. . وحصلت على شهادة «البكالوريا» والتحقت بمدرسة الحقوق وكانت تتبع وزارة

الحقانية ... ولم تكن وقتئذ تقبل إلا عدداً محدوداً ... كان فى عام التحاق قد وقف عند الثمانين — فيما أذكر — من ترتيب عدد الناجحين فى البكالوريا... وكان ترتيبى فيما أذكر أيضاً السبعين...

لم أكن بالطبع من الطلبة المبرزين من مدرسة الحقوق .. بل إلى رسبت فى امتحان النقل من السنة الأولى إلى الثانية... العجيب فى أمرى أنى كنت أنجح من أول مرة فى الشهادات العامة : الابتدائية ، والكفاءة ، والبكالوريا . وأرسب فى السنوات الأولى . إلى أتعثر دائماً فى الخطوة الأولى... وكان رسوبى فى جملة مواد أذكر منها اللغة الفرنسية ، وقد كانت ضرورية لنا فى دراسة القانون ، لأن المراجع الكبرى كانت فرنسية ، ولم يكن التدريس باللغة العربية معروفا إلا فى حدود ضئيلة ... فقد كان التدريس باللغة الانجليزية فى مواد الاقتصاد السياسى ، والقانون الرومانى ، ومقدمة القوانين ، والطب الشرعى ، على يد أساتذة من الانجليز ... بعضهم لم يكن بالأستاذ الكفء ... وبعضهم كان يأتى فى حالة سكر بيّن ، ولم نكن نفهم منه كثيراً كأستاذ القانون الرومانى « مستر ملفيل» ... وكنا أحياناً نستفيد من سكره ، فنتوسل إليه أن ينقذنا من بعض

الصفحات العسيرة فى الكتاب المقرر ، فكان يستجيب لنا ويقول وهو بين النوم واليقظة : « حسناً ... احذفوا من صفحة كذا إلى صفحة كذا » ثم نعود فى أسبوع آخر بعد أن يكون قد نسى ، فنستعطفه مرة أخرى فيعود إلى الحذف ... وهكذا حتى حذف لنا نصف الكتاب .. ولم نمتحن إلا فى النصف ...

على أن المجتهد فينا كان لا بد له من الاعتماد على نفسه والاطلاع على المراجع الفرنسية ... ولم تكن الفرنسية التى تعلمناها بالقسم الأدبى بالمرحلة الثانوية تكفى لمثل هذا الاطلاع ... لذلك كانت تدرس لنا هذه اللغة فى مدرسة الحقوق على يد أستاذ فرنسى ملم بالقوانين اسمه « مسيو توندير » يلقننا المصطلحات القانونية التى تمكننا من الاطلاع فى المراجع الضرورية ...

كان الأستاذ الأجنبى الممتاز حقاً فى كل المدرسة هو ناظر مدرسة الحقوق نفسه وقتئذ : « مستر والتون » — وأظن أنه ايرلندى — فكتابه فى القانون المؤلف بالإنجليزية كان خير ما أعاننا وأفادنا .

على الرغم من ذلك رسبت فى السنة الأولى ... وكان لهذا الرسوب أثره السىء بالطبع عند أهلى ... فما أن ذهبت إليهم فى

الإسكندرية لتمضية أجازة الصيف حتى استقبلونى بوجوه عابسة غاضبة ، وأنذرونى بأن أجازة الصيف لا ينبغى أن أمضيها فى المتعة التى لا أستحقها ، بل فى الدرس ، وخاصة فى التقوى فى اللغة الفرنسية التى رسبت فيها على نحو فاضح ... وقبل والدى أن يدفع لى أجر دروس خاصة فى مدرسة « برلتس » المختصة بتعليم اللغات الحية ... والتحقت بتلك المدرسة طيلة شهور الصيف ، اتلقى ثلاثة دروس خصوصية فى الأسبوع على يد مدرسة فرنسية أفادتنى كثيراً ... فقد أفهمتنى أن اللغة لا تتعلم حقاً إلا بالقراءة ... ولاسيما لمن هو فى مثل مرحلتى المتأخرة من السن ... فإنى بمداركى المتسعة أستطيع تعلم اللغة بنفسى عن طريق مداومة القراءة أكثر من تلقى تلك الدروس التقليدية التى تلقن لصبية المدارس وأشارت على بشراء كتاب أدبى من صميم الأدب الفرنسى ، وهو فى نفس الوقت سهل الأسلوب إلى حد لن يستعصى على فهمه ... كان هذا الكتاب هو « رسائل طاحونتى » لألفونس دوديه ... جئت بهذا الكتاب وطالعت فيه تحت إرشادها وبمعاونة قاموس « لاروس » الصغير فإذا بى حقاً أجد لغته سهلة ممتنعة ... سهلة للقارىء المبتدىء مثلى ،

ممتعة ولا شك على من يريد محاكاتها من الأدباء ... وشجعتنى
استطاعتى المضى فى هذا الكتاب بلا مشقة تشجيعاً كبيراً . وشعرت
كأن اللغة الفرنسية تفتح أمامى أبوابها المغلقة بالترحاب . فلما فرغنا
من هذا الكتاب أشارت على المدرسة بكاتب آخر له نفس الامتياز
فى الأسلوب السهل الذى لا يستعصى على طفل ، وإن كان تفكيره
من العمق بحيث سيجعلنى أقف عنده حائراً أو متأملا .. وليس هذا
عندها بالمهم ... المهم أن أفهم لغته وأتعلم تكوين عباراته البسيطة
فى مبناها ... كان هذا الكاتب هو « أناتول فرانس » ... فيما بعد عرفت
كيف كان أناتول فرانس يجاهد ويعانى ليصل بأسلوبه إلى هذه
البساطة المضيئة النقية كأنها قطرات الماء السائل من السماء وفهمت
– فيما بعد أيضا – لماذا قيل إن مفتاح « أناتول فرانس » هو « راسين » ...

سرت بعد ذلك على الدرب ... ومضيت وحدى بعد أن انتهيت
من هذه المدرسة بانتهاء الصيف ... وصرت أشترى الكتب الفرنسية
وأقرؤها ... وبمعاونة القاموس الذى بجوارى والرغبة التى فى نفسى
استطعت أن أتقدم فى هذه اللغة تقدما جعلنى أقرأ منها كل ما أريد
وصار همى أن أنظر فى واجهات المكتبات الأفرنجية وأقلب فى

الكتب والمجلات ... وعثرت على مجموعة قديمة لمسرحيات الفريد
دى موسيه ، زهيدة الثمن ، احتملها جيبى فاقتنيتها ... ومجموعة أخرى
« لماريفو » اشتريتها أيضاً ... ثم وجدت مجموعة من نحو عشرة
أجزاء تعرض جملة فى محل لبيع الأشياء العتيقة ، بثمن لا يذكر
الكتاب عنوانه « أربعون عاما فى المسرح » للناقد المشهور « فرانسسك
سارسى » أعاننى على الإلمام بحياة المسرح الفرنسى وما عرض فيه
من أدب مسرحى كلاسيكى ورومانتيكى وعصرى ... وهدانى إلى
ما كنت أجهل من تطورات هذا الأدب ... ثم وقعت آخر الأمر على
أكوام من أعداد مجلة تخصصت فى نشر النصوص الكاملة لأهم
المسرحيات التى تعرض على مسارح فرنسا وأوربا عامة « مع آراء
النقاد فيها ... تلك هى « ملحق الألستراسيون » ... كانت المكتبات
تبيع القديم منها لا بالعدد ، بل بالكوم ... وبثمن بخس .. فاغترفت
منها اغترافا ... وعلى الرغم من سيرى فى دراسة الحقوق بعد ذلك ،
سيراً منتظما إلى أن حصلت على الليسانس ، إلا أنى شغلت عن
القانون والتفرغ له – التفرغ الذى يتيح لى التفوق والامتياز –
بمثل هذه المطالعات التى كانت تسيطر على كل جوارحى ... كانت

الفرق التمثيلية الموجودة فى ذلك الوقت خلاف فرقة « جورج أبيض » هى فرقة « عبد الرحمن رشدى » بالاشتراك مع « عمر وصفى » ... وكان من أنجح رواياتهما مسرحية « دوران ودوران » لمؤلف فرنسى ربما كان اسمه « أنطونى مارس » ... كانت تمثل فى تلك الفرقة بنصها الفرنسى ... إلى أن تناولتها فيها بعد فرقة « الريحانى » ومصرتها ومثلتها باسم « ٣٠ يوم فى السجن » ... على أن الدور الذى لن أنساه لعمر وصفى فى تلك الفرقة هو دور الوصى العجوز فى « حلاق إشبيلية » ... ثم فرقة « منيره المهدية » ، وكانت متخصصة فى الأوبريت ، وانقطع لها مؤلف من هذا النوع هو محمد يونس القاضى وفرقة غنائية أخرى « للشيخ أحمد الشامى » ... ثم فرقة « عكاشه » التى ورثت بعض روايات الشيخ سلامه حجازى ... وكان مسرح حديقة الأزبكية لم يتم بناؤه بعد ، فكانت تعرض حفلات سنوية بدار الأوبرا ... تلك كانت الفرق الجدية القائمة يومئذ ... أما الفرق الهزلية فقد كانت هناك فرقة « عزيز عيد » المتخصصة فى « الفودفيل » المكشوف يمثل بنصه الفرنسى المترجم عن « جورج فيدو » ... إلى أن ظهرت بعد قليل فرقة « أمين عطا الله » ثم فرقة « الريحانى »

بشخصية كشكش بك ، التى نقلها عن أمين عطا الله وفرقة « على الكسار » بشخصية بربرى مصر الوحيد ...

وفى ذات ليلة ذهبت إلى دار الأوبرا أشاهد رواية لفرقة عكاشه ، فوجدت هناك زميلا لى بمدرسة الحقوق ... سألته عما جاء به إلى ذلك المكان ، لعلمى أنه ليس من المهتمين بمسرح ولا بروايات ، فأجابنى أن شقيقه هو مؤلف الرواية التى نشاهدها ... فعجبت لذلك وسررت به وقلت له : « عرفنى بأخيك هذا ! ... » وعرفت من صار بعد ذلك صديقى وشريكى فى مسرحية غنائية هى « خاتم سليمان » مصطفى افندى ممتاز » الموظف بقسم الشياخات والعمد بوزارة الداخلية ...

كان مصطفى ممتاز قد توظف بالبكالوريا ولم يستمر فى الدراسة العليا مثل أخيه زميلى بالحقوق ... لكنه كان فيما رأيت منه أرسخ قدماً فى اللغتين العربية والإنجليزية وأوسع اطلاعا وأمتع حديثاً ... وعلى جانب كبير من الموهبة والإحساس بالفن والحب الصادق للمسرح ... فكنت أجد فيه الصديق الذى ترتاح إليه نفسى ، ولم أحفل كثيراً بأخيه زميل الدراسة ... كان كالغريب عنى فى العقلية

والميول ... كنت أزور مصطفى هذا فى بيته من حين إلى حين ... كان متزوجا وله أولاد ... فكنا نقضى وقتاً طويلا فى حجرة الجلوس نتحدث فى الفن والمسرحيات ... كان يصغى إلى اطلاعى فى المسرحيات الفرنسية ، وأصغى إلى اطلاعه فى المسرحيات الإنجليزية التى كان يطلبها بالبريد من لندن منشورة فى سلسلة مسرحية زهيدة الثمن ... فنحاول أن نستعرض ما نجد هنا أو هناك مما يصلح فى نظرنا للترجمة أو ما يغرينا بالتمصير ... كنت قبل أن أعرف مصطفى ممتاز قد قمت بتمصير كوميديا أسميتها «العريس» عن مسرحية فرنسية ربما كان اسمها «مفاجأة أرتور» وقدمتها إلى جوق عكاشة ... وكان «طلعت حرب» فى ذلك الوقت ـ وهو المعتبر «سعد زغلول» الاقتصاد القومى والمنشئ الأول لأول بنك مصرى ـ قد فكر فى إنشاء مسرح مصرى أيضاً وشرقى ... فشيد مسرح حديقة الأزبكية ، على الطراز العربى ... واشترط أن يكون التمثيل فى هذا المسرح لمسرحيات مصرية وعربية ، فلا تعرض فيه مترجمات بنصها الفرنجى وثيابها الفرنجية كما هو الحال فى فرقة جورج أبيض أو عزيز عيد أو «يوسف وهبى الذى لاح ظهوره فى الأفق بفرقة جديدة على

مسرح رمسيس» ... فإذا لم يكن هناك بد من نقل موضوع أجنبى فليعرض ممصراً أو معربا ... أى «مقتبساً» كما كان يقال وقتئذ . فما يصلح من المسرحيات الأجنبية لحياتنا العصرية أجرى تمصيره ، وما يصلح للعهود التاريخية جعل فى عهد العرب أو المماليك ... وتخصص مسرح الأزبكية فى هذا اللون . لم يشذ عنه . واستخدمت فيه اللغة الفصحى إذا كان الموضوع تاريخياً أو جدياً ، واللغة الدارجة إذا كان الموضوع عصريا أو فكاهياً ... ومهما يكن من أمر اختيار طلعت حرب لفرقة عكاشه كى يحتل مسرح الأزبكية الجديد وتقوم بتلك الرسالة فإن هذه الفرقة قد نجحت بفضل معونة بنك مصر المالية وتشجيع طلعت حرب – فى إبراز الأوبريت والأوپرا وكل ما يحتاج فى إخراجه إلى بذخ وإنفاق .

ووقع اختيارنا أنا ومصطفى ممتاز على موضوع شيق كنت قد طالعته فى إحدى الروايات الفرنسية ، ربما كان اسمها «غادة ناربون» أو شيئاً كهذا ، لست أذكر الآن – استطعنا أن نخرج منه مسرحية غنائية لفرقة عكاشة ... جعلنا هذا الموضوع يحدث فى مدينة شرقية فى عصر قديم ... وأخذنا نستعرض المدن فلم نوفق

إلى مدينة تصلح لجو المسرحية... كنا نريد مدينة شرقية ليست من المدن الكبرى المعروفة حتى لا يضيع الخيال من رؤوس المشاهدين وأخيراً جئنا بخريطة أخذنا نتأمل فيها... وإذا بنا نعثر على مدينة صغيرة فى فارس اسمها «مرو» فصحنا معاً: «هذه هى مدينتنا». وأسمينا المسرحية «خاتم سليمان». وتقاسمنا وضع منظومات الألحان وذهبنا بها إلى فرقة «عكاشه»... فتسلمها منا مدير الفرقة ومطربها الأول والمستولى دائماً شئنا أو لم نشأ على دور البطل، ممثلها المدلل وصاحب الأمر فيها والنهى، أصغر العكاكشة سناً وأثقلهم ظلا — باعتراف القاهرة كلها وإجماعها فى ذلك العصر — «زكى بك عكاشة» صاحب الخاتم الماسى الكبير المتلألىء، الحريص على إظهاره دائماً فى إصبعه؛ ليخطف به عيون المشاهدات المحجبات، خلف ستائر «البناوير» التى تشبه «الناموسيات»، مصراً على الاحتفاظ به وهو فى دور شحاذ فى رواية اليتيمتين، ملوحاً به ليبرق فى أصبعه وهو يترنم مغنياً منشداً: حسنه لله يا أسيادى!... ولم يكن أستاذاً فى كل ذلك فقط، بل كان أيضاً أستاذاً فى فن المماطلة مع المؤلفين المستضعفين من أمثالنا،

مع الملحنين المساكين من أمثال كامل الخلعى ... كنا نذهب إليه الأسابيع تلو الأسابيع وهو يقول لنا: لم أقرأ روايتكم بعد ... كنت مشغولا ... كان صوتى مبحوحا ... كان مزاجى معتلا ... كل هذا ويكون هو فى الحقيقة قد قرأها من أول ليلة وعرف دوره فيها وأعطاها الملحن ... فما أن نعرف بالمصادفة أنها فى التلحين، أى أنها فى مرحلة التحضير، حتى نبادر بإخباره ومطالبته بالثمن أو رد الرواية. فيقول لنا: مروا على غداً. ونمر عليه فى الغد. فيقول: اصبروا أيضاً يومين. وبعد اليومين يقول: إن هنالك عجزاً يستلزم الانتظار قليلا... وأخيراً يقول: اذهبوا إلى هاشم افندى رئيس حسابات الفرقة... فنذهب إليه فيقال لنا إنه مسافر... وهو فى الواقع قد اختفى فى حجرة أخرى... ونظل نتعقب هاشم افندى وهو يفلت من أيدينا كأنه الزئبق، إلى أن نطبق عليه ويصبح فراره عسيراً ... وتفرغ كل حيل المراوغة فى الظهور والاختفاء... فينتقل بنا زكى عكاشة الهمام الذى لا يغلب إلى مرحلة أخرى وميدان آخر: الكلام فى الثمن ... ما كان يعطى المؤلف أكثر من ثلاثين جنيها للمسرحية ... وعلى الأكثر خمسين فى

أحوال نادرة ... لكنه كان يثبت فى الدفاتر أن أجر المؤلف أو الملحن مائتان من الجنيهات ... والفرق بالطبع فى جيبه الكريم ... كان المعروف عنه فى آخر أيامه أنه أنشأ لنفسه ثروة طائلة ، ولم يكن الحصول على الثلاثين جنيها من الأمور الهينة مع ذلك كان دون الوصول إليها مناقشات ومساومات لا تنتهى... ولم أر فى الأفق بادرة أمل فى نجاح قريب لمفاوضات — ولا مفاوضات سعد زغلول يومئذ — يمكن أن تؤدى إلى قبض نقود من زكى عكاشة ، فأصابنى اليأس وتركت الموضوع كله لصديق وشريكى مصطفى ، وجعلت كل همى متابعة الألحان التى كان يضعها كامل الخلعى ... كان هذا الملحن تحفة زمانه فى شخصيته البوهيمية وعلمه الواسع بالموسيقى الشرقية وعندما عرفته بعد تسلمه روايتنا لتلحينها عام ١٩٢٣ كان حوالى الخمسين من عمره ... وكان قد لحن الكثير من المسرحيات الغنائية لمنيرة المهدية ... واشتهر على الأخص بألحانه لروايتها « كارمن » ثم « كارمنينا » ... وكان معاصره فى السن والتأليف الغنائى المسرحى « داوود حسنى » لا يقل عنه براعة هو الآخر فى هذا

اللون من الفن ... كانت المسرحية الغنائية فى ذلك الوقت مزدهرة ازدهاراً كبيراً ... فالأثر الذى تركه الشيخ سلامه حجازى فى تكوين جمهور للمسرح الغنائى لم يكن من السهل أن يزول بعده ... بل إن هذا اللون تطور من مرحلة القصائد الملحنة إلى مرحلة الأوبريت والأوبرا الحقيقية ... وكان سيد درويش قد ظهر منذ سنوات بتلحينه بعض روايات كشكش بك أى الريحانى ... إلا أن ما كان يصنعه فى مثل هذه الروايات لم يكن محل تقدير فنى ، لأن الريحانى نفسه لم يكن محترما الاحترام الذى ظفر به فى آخر أيامه ، فقد كان الإقبال على « كشكش بك » يعادل الإقبال على الكباريهات ... ولم يكن سر رواجه فى الحقيقة إلا تلك الراقصات الجميلات الشقراوات الأجنبيات ، الوافدات علينا من الخارج عقب الحرب الأولى مثل « دينا لسكا » ومثيلاتها ، ممن قذف بهن الجوع من بلاد منهزمة كالنمسا وألمانيا فجئن إلى مصر المفتوحة يومئذ لكل من هب ودب ، فملأن المسارح والحانات وقاعات الليل ... وكان الشباب من الوارثين يقبلون على تلك المحال جميعاً لمصاحبة الفتيات آخر الليل : فكان الواحد

منهم يحضر الرواية الواحدة للريحانى كل ليلة ، لا حباً فى الرواية نفسها التى سبق أن شهدها مرات ، ولـكن من أجل سيقان الفتيات . . . وعلى الرغم من قيمة ما صنعه سيد درويش لهـذا المسرح الاستعراضى ، وما تبين فيما بعد من موهبته فى تصوير أهل الحرف والمهن باللحن الموسيقى المعبر المبدع ... إلا أنه لم يظفر وقتئذ بالتقدير والاحترام إلا عندما لحن روايات جدية مثل « هدى » لفرقة عكاشة ، « والعشرة الطيبة » و « البروكة » و « شهوزاد » — أى شهرزاد — (كانت تكتب قديما بالواو وتنشر فى إعلانات الحائط وما من معترض أو ملتفت إلى شئ ... وباللعجب ...) حتى عندما أسس فرقة غنائيـة خاصة بالاشتراك مع عمر وصفى لتمثل على خشبة « تياترو دار التمثيل العربى » بقرب شارع « وجه البركة » وانتهت بالإفلاس السريع فإن هذا الإفلاس المادى لم يكن قط مقترناً بأى إفلاس أدبى ... على النقيض ... لقد خسر المال وكسب التقدير الفنى من المثقفين والعارفين بقيمة الفن ...

انتهى العام الدراسى ... وجاء الامتحان ... ونقلت — بقدرة قادر — رغم مشاغلى الفنية — إلى السنة الرابعة النهائية ... سنة الليسانس وتركت أمر « عائم سليمان » فى يد زميلى مصطفى ... وسافرت إلى الإسكندرية أقضى عطلة الصيف ... فما كدت أصل وأنظر إلى منزلنا العامر حتى كدت أصعق ... ما هذا الذى أراه أمامى؟ ... إنه ليس منزلا ... بل هو تركيب عجيب لا أعرف له وجها من ظهر ... لقد أزيل جدار وأقيم آخر ، وخلع سلم وبرزت أحشاء قاعة بغير حائط ، وأطبع برأس السطح ، وأشياء أخرى غريبة من هذا القبيل ... وعرفت السبب : كان قد خطر ببال أهلى أن يجروا فى المنزل إصلاحات وأن يزيدوا فيه طابقاً ... كان القطن فى ذلك العام مرتفع السعر ، فاجتمع لهم مبلغ لا بأس به ... لم يروا أن يسددوا به رهن الأطيان أو رهن المنزل ... ورأوا أن ينفقوه فى تحسين المنزل ... ولست أدرى من صاحب هذه الفكرة النيرة ... أهو والدى أم والدتى؟ ... كل ما أدرى هو أن أول ثغرة فتحتها المعاول فى جدران هذا البيت

لم يستطع كل مال الأرض ، لا مرتب والدى الكبير وقتئذ ، ولا الأموال التى اقترضوها من البنوك والمرابين أن تسد هذه الثغرة ... فقد أصبح البناء والهدم فى منزلنا هذا شيئاً طبيعياً مستمراً كالأكل والشرب .. ولا يقف عند شهور ولا أعوام ... ذلك أن والدى أراد أن يكون هو نفسه بنفسه المهندس والمقاول وملاحظ العمل ... فأحضر البنائين والنجارين والحدادين ... وصار يقول لهم : شقوا هنا دهليزاً وأزيلوا من هناك جداراً وسدوا هنا شباكاً وافتحوا هناك باباً ... فما أن يفعلوا ما أمر حتى يجد أن الباب بدلا من أن يفتح على الردهة قد فتح على المرحاض ، وأن الجدار الذى أزيل جعل المطبخ قد أصبح فى الصالون ... وهكذا وهكذا ... فيعود يأمرهم من جديد بسد ما فتحوا وإقامة ما أزالوا ، ويتجه بهم إلى جدار آخر يأمرهم بهدمه فيتضح أن عليه يقوم سقف إحدى الحجرات وأنه آخذ فى الانهيار ، فيبادرون إلى بنائه مرة أخرى ... كل ذلك وهو مصر كل الإصرار على الاعتماد على نفسه وخبرته والامتناع عن إحضار مهندس ... وكنت أتأمل ما يجرى من هدم وبناء ، وأتألم من طول نومنا فى حجرات منزوعة النوافذ ومغطاة بالبطاطين

فأقول له : لماذا لا تحضر أحد المهندسين يتولى ذلك لنرتاح ؟... فيجيبنى ساخراً : انت عبيط ! ... هل يحضر المهندسين إلا العبط !. ما الذى سيصنعه المهندس أكثر من أن يرسم على ورق أزرق بضعة خطوط منمقة بالمسطرة والبرجل ليقول لنا هنا حجرة وهناك صالة ... «ويلطش» كذا جنيه لمثل هذا الكلام الفارغ !... ما سيقوله شئ معروف مقدما ... ونحن أدرى جيداً بما نريد !...

وانتهى الأمر بنا بكل بساطة أن صار البناؤون والنجارون والمبيضون مقيمين لدينا إقامة مستمرة لأن العمل لا ينتهى ولا يمكن أن ينتهى . فاتخذوا لأنفسهم حجرة دائمة قرب باب الحديقة يقطنون بها ... يبيتون ويسمرون ويأتى لزيارتهم فيها الأهل والأقرباء والأصدقاء ، وكان ينزل إليهم فيها من بيتنا القهوة والشاى والغذاء والعشاء بانتظام . وأصبح لهم رأى فيما يطبخ ويقدم إليهم من ألوان يومية . فيقولون : زهقنا من الملوخية والبامية اطبخوا لنا اليوم «كشرى» ، وأحياناً يقترحون : «خللوا لنا خيار وفلفل ! ...» ويصفون الطريقة التى يحبونها للتخليل وصنع الطرشى !... والحديقة حولهم جعلوا يزرعون فى جانب منها بعض الفجل والكرات والجرجير

كانوا متمتعين بهذه الحياة الهنيئة الناعمة . وكنت كلما سألتهم متى ينتهى معمل فى هذا المنزل ؟... وقد أصبحت الحياة فيه بالنسبة إلى وإلى أخى الأصغر لا تطاق ، من الحجرات التى بلا حيطان، والنوافذ التى بلا زجاج ، وضجة الخبط والهبــد فوق رؤوسنا فى الطابق الجديد... قالوا : لن ينتهى !... لأنها ساقية جحا ... ماتبنيه الصبح نهدمه العصر !... أوامر البك الكبير !... وفى الحق كأنى بوالدى قد أصبح أخيراً يجد متعته وهوايته الكبرى فى حكاية البناء هذه ، ويظهر أنه اعتقد حقاً أنه لا ينقصه شىء فى شئون الهندسة والمعمار كان فى بعض الأحيان يستشير صديقه المهندس القديم (يوسف...) إذا قابله بالمصادفة فى القاهرة .. لكن هذه المقابلة ماكانت تحدث إلا نادرا . لأن والدى كان قد أقام واستقر فى الإسكندرية رئيسا لمحكمتها . فكان إذا عاد بعد حضور الجلسة ، لم يتجه إلى الغذاء وهو المتعب المنهك ، بل يتجه مباشرة إلى البنائين والنجارين ليرى ماذا صنعوا وهل نفذوا تعليماته التى شرحها لهم شرحا وافياً فى الصباح قبل ذهابه إلى عمله ؟... تلك كانت عادته : يجمع البنائين والنجارين والمبيضين أمامه كل صباح ويشرح لهم ما هم صانعون فى يومهم ،

ويسمى ذلك «الدرس» الذى لا بد أن يدخل فى رؤوسهم ، موضحا لهم ما يسميه أيضاً « جدول الأعمال » اليومى ... وكان لا يتركهم إلا بعد أن يسألهم بكل دقة : هل حفظتم الدرس ؟ . فيجيبون جميعا حفظناه... فيؤكد عليهم : وجدول الأعمال مفهوم ؟... فيقولون كلهم : مفهوم . ولا يكتفى بذلك . فقد كان من عادته عند إصدار أى أمر أو أى تعليمات لأى شخص أن يطالبه بإعادة المطلوب بنصه منعاً للبس أو سوء الفهم . فلما سألهم : اعيدوا على ماذا قلت؟. وأجابوا قلت كيت وكيت ، مضى مطمئنا . فإذا عاد من عمله قبيل العصر سمعنا منه الصخب والصياح والتعنيف وقوله إن هؤلاء البنائين والمبيضين حمير ولم يفهموا حرفا مما شرح وينزل بيديه على ما بنوه هدما وبقدميه ركلا وهو يصيح : هدوا حالا !... كل هذا لا بد من هدمه !... شغل غلط فى غلط !... وكان يقيس الحيطان بعصاه التى يحملها دائماً فى يده . ولا يلجأ إلى القياس بالمتر فإذا عارضه أحد البنائين أو المبيضين أو النجارين وقال له : قس بالمتر ياسعادة البك ... المتر موجود ! ... صاح به : عصاى أضبط من هذا المتر !... لأنى أنا ضابطها على المتر الهندسى الأصلى فى مصلحة

المساحة!... إنها تسعون سنتى متراً بالتمام!. وبلغ به الاهتمام بالهندسة ان صار يمشى معى أحيانا فى الشارع فإذا بى أراه يقف فجأة أمام أحد المنازل ويقول لى: أنتظر حتى أقيس واجهة هذا البيت!... ويشرع فى القياس بعصاه ... فإذا سألته: لم ذلك؟ ... هل نحن سنشتريه؟ ... قال: أبداً. مجرد معرفة ... وأحيانا نسير فى شارع من الشوارع نتحدث فى شئون هامة وقتئذ، فإذا هو يقطع الحديث ويلتفت نحوى سائلا: «تظن يطلع كم متر عرض هذا الشارع؟... ولا ينتظر منى جوابا. بل يرفع عصاه ويأخذ فى قياس عرض الشارع. وأحمد الله فى سرى أن الشارع خال من المارة. ثم سألته عن حكمة ذلك؟ ... فقال: انت ولد عبيط! ... الحكمة فى ذلك هو أنه يجب أن نكون على علم بكل هذه الأشياء، حتى لا يأتى المجلس البلدى يوما ويدعى أن شارعنا من الشوارع التى قرر لها عوائد كيت وكيت!... وكان يحمل فى جيبه ساعة معدنية رخيصة عتيقة يؤخرها دائماً عشر دقائق، فإذا سئل عن الحكمة فى ذلك قال: كى يكون عندى دائماً عشر دقائق مدخرة للطوارئ»... كان والدى على الرغم من كل هذه التصرفات الغريبة يملك مزية،

لم أرثها عنه مع الأسف، لست أدرى لماذا؟ ... ولو أنى ورثتها لنفعتنى كثيراً وخاصة فى الفن الروائى. تلك المزية هى حرصه على التغلغل فى التفصيلات الدقيقة لكل شئون الحياة. ما يهمه منها مباشرة وما لا يهمه. كانت كمية المعلومات التى جمعها عن كل شئ تثير الدهشة حقاً. فهو يعرف بالضبط كم طوبة تلزم لبناء حجرة كذا مترا فى كذا مترا. وكم كيلة تلزم لزراعة كذا فدانا من البرسيم أو القطن أو الذرة. وكم رية تلزم لرى كذا. فإذا سألته فى القانون وإجراءاته المعقدة وفى أخلاق الناس على اختلاف مهنهم فى الحياة وفى الطب والأدوية، وفى اللغة وقواعدها والشعر وبحوره والحدادة والنجارة وحتى العطارة ... كل شئ كان يلم فيه بتفصيلات عجيبة دقيقة ... فى حين لا أستطيع أن ألم إلا بالخطوط العريضة للأشياء. فى معانيها الكبرى لا فى تفصيلاتها. وأميل إلى التخفف من كل ما أستطيع الاستغناء عنه. فأنا لم أحمل ساعة قط. وأحاول اقتناء طرفة من الطرف أو تحفة من التحف، ولا أتناول إلا ما كان ضروريا صرفا ... لذلك تناسبنى التمثيلية أداة للتعبير ... لأن مجالها المعانى والجواهر أكثر من الرواية التى مجالها التفصيلات.

على أن والدى بمعلوماته الغزيرة فى أدق تفاصيل الأشياء ما أن يقدم على التفكير فى مشروع أو القيام بتنفيذه حتى تبدأ الخيبة المضحكة ... إن العلم عنده شىء والتنفيذ شىء آخر ... أو ربما كان العيب فى اختيار المشروع ... لست أدرى فى الحقيقة أين تكمن العلة ؟ ... أهى مثلا فى التناقض وعدم التناسق بين النزعة الخيالية والنزعة العملية فى شخص واحد ... إن والدى ووالدتى عمليان ، ولكنهما خياليان فى نفس الوقت ... يفكران فى مشروع عملى بعقلية عملية وإذا بالخيال يتدخل ويجرفهما إلى وضع مضحك ! ... أهو ذاك ؟ ... لست أدرى على التحقيق ... فلأكتف إذن بسرد ما حدث بعد ذلك دون تعليق أو تفسير ...

كاد ينتهى البناء فى المنزل ، وتم كل شىء بعد مضى وقت طويل ولكل شىء آخر .. وأخذ البناءون والنجارون والمبيضون المقيمون يعدون عدتهم للرحيل وينهون عهد الاحتلال ... احتلالهم للحجرة وماجاورها من الحديقة وإذا بخاطر يخطر لأهلى ... خاطر جديد : لاحظوا أن بعض منازل الجيران العالية تكشف حديقتنا من الخلف ... فقالوا : نسد عليهم ، بأن نبنى حائطا ... ثم تطورت عندهم فكرة الحائط إلى

شىء آخر وفكرة أخرى : قالوا ما دمنا صرنا إلى بناء حائط - وهذا يكلف مالا - فلماذا لا نتم هذا الحائط بحائط آخر أمامه ، ما علينا إلا أن نسقفه فينتج من ذلك جناحاً قائماً بذاته يصلح للسكن والتأجير ، الفكرة بدت لهم منطقية ... ومصيبة أهلى وخاصة والدى أنه يبدأ دائماً من المنطق ... وشرعوا فى تنفيذ الفكرة ... وعاد البناءون والنجارون والمبيضون إلى حجرتهم من جديد ... وتم بناء الجناح بعد لأى ... فلما تم على خير ... تأملوه ملياً ثم قالوا : حبذا لو وصلناه بالمنزل الأصلى بواسطة جسر أو كوبرى بينهما ، وكان منظراً فريداً عجيباً فى البيوت أن تركب فيها مثل هذه الكبارى والجسور ! ... وتم ذلك ... فنظروا وقالوا : لماذا نترك أسفل الجناح مكشوفاً لتراب الحديقة ؟ ... أليس من الضرورى أن ننشئ رصيفاً يفصل بين جداره والرمل والتراب ؟ ... وتم إنشاء الرصيف ، وكان طويلا بطول جدار الجناح الذى لا يقل عن ثلاثين متراً ... رصفوه كله ببلاط تكلف مبالغ ... وأصبح منظره وهو مرصوف فى طوله وامتداده كأنه - كما قال أحد الزوار - أعد للعبة الانزلاق « الباتيناج » ! ... وتلك أيضاً كانت من عجائبهما فى البناء ! ...

أظن إلى هنا وكان ينبغى أن ينتهى كل شىء ، وأن ينهض البناؤون والنجارون والمبيضون إلى حزم أمتعتهم ليرحلوا … وهموا بالفعل … وإذا البستانى يظهر ليطلب أسمدة للحديقة : زكائب عديدة من سبلة « الخيل » مما تسمد به الفاكهة والنجيل أى الحشائش الخضراء ، ويتحدث عن ضرورة توريد هذا السماد فى أوقات دورية بانتظام لضمان ازدهار الحديقة … وهنا فكر أهلى فى الأمر بالعبقرية المعهودة ! … وجاءتهم الفكرة النيرة : أن يشتروا حصاناً ، لاستخدام روثه سماداً … وبذلك يوفر ثمن الأسمدة المطلوب توريدها … فضلاً عن توفير نفقات المواصلات بالعربة التى سيجرها الحصان .. معقول .. ولكن أين يقيم الحصان ؟ . لا بد طبعاً أن يبنى له اسطبل … وهذا طبيعى … وفى آخر الحديقة مكان يصلح .. لكن هل يبنى الأسطبل كبقية الأسطبلات التى خلقها الله ! . كلا . لا بد من تصميم مبتكر للمهندس العبقرى ؛ الذى هو أبى ! … وفعلا أمر ببناء اسطبل عجيب الشكل يتكون من ثلاثة طوابق : الطابق الأعلى لسكن الحوذى ، لأنه لا بد أن يكون له محل سكن ، والطابق الأوسط لسكن الحصان ، والطابق الأسفل للروث المتخلف

من الحصان ، ينزلق إليه بواسطة فتحة ويتجمع ويتكون منه السماد المطلوب للحديقة … وكان والدى مزهوا بهذه الفكرة الرائعة … وحث البنائين والمبيضين والنجارين على التنفيذ فورا … فبنوا وشيدوا وبيضوا … وقامت الطوابق يعلو بعضها بعضا … وظل هذا البناء قائما شامخا ، عاليا طوال الأعوام ، لم يسكنه قط حوذى ولا حصان ولا سماد … ذلك أن التفكير انتقل بعد ذلك بسرعة إلى فكرة أخرى : استغلال هذا البيت الكبير الذى تضخم بفعل الأفكار المتلاحقة حتى أصبح فضفاضا على الأسرة ، بحجراته العديدة فى كل طابق ، علاوة على الجناح ذى الرصيف ! … لماذا لا يؤجر فى الصيف للمصيفين ؟ … رأى هو عين العقل … وما يأتى به من إيراد يسدد به على الأقل أقساط الرهون … لكنهم فكروا مليا ثم قالوا : ما دمنا قد صرنا إلى التأجير للمصيفين ، فلماذا لا ينشئ طابقا ثالثا … وكانت الفكرة هذه المرة فكرة والدتى ، فما أن سافر والدى متغيباً فى عمل بالقاهرة حتى قامت هى بالتنفيذ … وما دام فن العمارة بهذه الطريقة فلماذا لا تسابق والدى فى المضمار … وفعلا أصدرت الأوامر لفرقة البنائين والمبيضين والنجارين . فما أن عاد والدى من

رحلته ووجد الطابق الجديد يرتفع حتى شمر هو أيضا عن ساعد الجد ، ونشط من جديد يعطى « الدرس » ويحدد للجميع « جدول الأعمال » ويهدم بالليل ما بنوه بالنهار ... كان صيت والدى فى البناء قد انتشر فى المدينة بفضل ما كان يبتاعه من الطوب والبلاط والأخشاب السويد والبغدادلى والكمرات الحديد والجير والزيوت ... وأصبح زملاؤه فى القضاء ممن يريدون بناء منزل فى المدينة أو دار فى الريف يأتون إليه ليتلقوا عنه الدروس ... أذكر مستشاراً ، صار بعدها بقليل وزيراً ، كان يأتى كل عصر يجلس فى الحديقة على كرسى يرشف القهوة التى تقدم إليه ويتطلع مبهوراً إلى والدى وهو يصعد ويهبط على سقالات البنائين ، يقيس الجدران بعصاه ، ويأمر وينهى وينصح ويشير وينهر ويصيح ... كان هذا المستشار ينوى بناء منزل صغير فى أطيان له ، ولا يدرى كيف يصنع ... فلما رأى والدى يصول ويجول هكذا فى ذلك البناء الطويل العريض جعل يهمهم بالإعجاب والإكبار ، ثم التفت نحوى وقال بنبرة صادقة : « أبوك أستاذ لا يجارى فى فن المعمار ! ... »

وأخيراً انتهت عمليات البناء . والله وحده يعلم بعد كم من الزمن .

ولم يصبح فى الجعبة من الأفكار ما يؤدى إلى إضافة شىء أو الإنقاص من شىء ... وهنا ... بدأ أهلى يزهدون هذا البيت ويلعنونه ... خاصة وقد فشلت فكرة التأجير ... لأن المصيفين كانوا قد بدأوا يتجهون إلى البحر ... وكان موقع البيت السىء مما ينفر المستأجرين ... وكانت تكاليف البناء المستمر قد أبهظت أهلى ، والديون أثقلت كاهلهم ، وأسعار القطن أخذت فى الانخفاض ... فاتجه التفكير كله إلى شىء واحد : التخلص من البيت : لكن كيف يتم التخلص منه ؟ ... رأى والدى لذلك طريقتين : إما البيع ... وإما البدل على أطيان .. ولجأ إلى السماسرة ... وكانت حكاية السماسرة لا تقل عن حكاية البنائين والنجارين ! ... لبثت أعواماً طويلة وأنا لا أرى والدى إلا مع السماسرة فى مجيئه وذهابه ، وحله وترحاله ... فقد أصبح مستشاراً ، ثم ترك الخدمة لبلوغه سن المعاش ... أو على الأصح لقبوله عرض وزارة الحقانية فى ذلك العهد ، عندما اكتشفت أنه هو ونخبة من زملائه المستشارين القدامى قد أجادوا خضب وصبغ شعورهم وشواربهم وجلسوا مطمئنين ، فذكرتهم بأن سن

المعاش على أى حساب يريدون قد تجاوزوها بسنوات وهم لايشعرون.. وتم الاتفاق والتراضى...وترك والدى مع زملائه المذكورين الخدمة . . وتفرغ لشئونه الخاصة طول أعوامه الباقية ولاشغل له ولاشاغل إلا مسألة بيع البيت أو استبدال أطيان به .

وفى ذات يوم طلع بفكرة جديدة هى : زيادة إثقال البيت بالرهون ، وكانت فكرته فى ذلك عجيبة : وهى أنه كلما كان العقار مثقلا بالديون — فى زعمه — كان تصريفه أو الاستبدال به سهلا ميسوراً . . . ولم تدخل الفكرة رؤوسنا . . وجعلنا نقوله له : كيف يكون ذلك ؟ ... وهل هذا معقول ؟ ... إن العكس هو الصحيح ... فكان يجيب وكأنه يرثى لجهلنا : المعقول هو ما أقول : إذ من الذى يسعى عادة إلى تقديم أطيانه ليستبدلها ببيت ؟ ... هو ولاشك صاحب الأطيان المرهونة ... وهو طبعاً لا يتوقع أن يقدمها إلا فى نظير بيت هو الآخر مرهون ؟ ! ... إذ مَنْ المغفل الذى يضحى بعقد خالى رهن ليأخذ عقاراً مرهوناً وما دامت المسألة كلها رهنا فى رهن ، فلماذا نترك نحن بيتنا لنقدمه برهنه الخفيف نظيفاً إلى من سيقدم إلينا

طينا محملا بالدواهى الثقيلة ؟! ...

منطق ! ...

ومنذ ذلك اليوم ووالدى لا يرى إلا فى صحبة السماسرة ... فهو إما أن يسير فى الشارع ومعه سمسار ، وإما أن يجلس على قهوة فى حديث مع سمسار ... روى لى بعضهم أنه أبصر ذات يوم والدى جالسا بأحد المقاهى إلى مائدة على الرصيف ، فى انتظار أحد السماسرة ... فكان كلما جاءه الجرسون يمسح المائدة لتلقى الطلب ، قال له : « انتظر يا أخى كمان شويه » ... فينصرف الجرسون قليلا، ثم يعود إلى مسح المائدة ، إلى أن تضايق والدى فنهض تاركا له المائدة ، ووقف ينتظر على حافة الرصيف ... فلما عاد الجرسون ليمسح المائدة ووجدها خالية تلفت ، فوجد والدى واقفاً على طرف الشارع ينظر إليه شزراً ويقول : عاوز منى حاجه هنا كمان ؟! ...

أما أنا فقد أبصرته بنفسى ذات مرة فى الشارع ، وأنا أهم بدخولى مقهى « التريانون » بالاسكندرية ، بعد توظفى . . . استوقفنى وقال لى :

« انت عبيط تدخل هذا المحل ... فنجان القهوه فيه بثلاثة قروش صاغ ! ... » ...

وتركنى ومضى إلى قهوة بجوار البورصة اسمها « قهوة البن » الفنجان فيها بقرش ونصف ... ومع ذلك فقد علمت — ويا للتناقض — أنه ينفق فيها كل يوم ما يقرب من ريال على فناجين قهوة عديدة يشربها السماسرة الذين عرفوا وتسامعوا عن بغيته ، فأخذوا يفدون عليه الواحد تلو الآخر يمنونه بالآمال والأحلام عن تصريف البيت ...

على أن الفكرة قد عاشت من بعده ... فكرة التخلص من البيت ... وتخلصنا منه فعلا بالبدل : أطيان بور لا يصل إليها الماء ... ولكن الله شاء أن لا يحدث ذلك فى حياته ... فقد أكرمه الله بأن جعله يموت فى بيته هذا ... أو على الأصح أن تخرج جنازته من بيته ... وإن كنت أنا قد أوشكت على ارتكاب غلطة لا تغتفر ... كنت فى ذلك الوقت بالقاهرة مدير الإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ... فجاءنى نبأ مرضه ونقله إلى المستشفى الفرنساوى بالإسكندرية ... فذهبت إليه توا ... فوجدته فى حالة متدهورة ، تلازمه ممرضة يهودية عجوز ، اعتادت التردد على المنزل لإعطاء حقن ، فعهدت إليها والدتى بملازمة المريض ... قال لى بصوت ضعيف ، وأنا انحنى عليه :

« أنا غير واثق من نفسى ... »

وهذه الكلمة منه لها دلالتها ... فهو ما اشتكى قط فى حياته من مرض عضال ... كان شديد الثقة بصحته ، لاعتداله فى

الحياة ... فهو لم يكن مسرفا فى شىء ... لا يدخن ولا يسكر ولا يسهر... ربما فى شبابه وقبل زواجه كان بالطبع يفعل شيئاً مما يفعله الشبان ، ولكن باعتدال... حكت لى والدتى فيما حكت من ذكريات أيام زواجها فى مبدئها أن والدى دخل عليها البيت ذات ليلة شتاء فشمت فى فمه رائحة خمر ، فما كان منها إلا أن صرخت فيه قائلة : «انت سكران» ؟! فأذهلته الصرخة ولم يعد قط إلى هذه الفعلة كما قالت طول حياته ... أما التدخين فكذلك قد أقلع عنه ، ربما أيضا تحت ضغط والدتى القوية ... مرة واحدة تقريبا كل عام كنت أشاهد فى يده سيجارا كبيرا يهدى إليه عقب غداء رسمى بمناسبة احتفال سنوى ... فيما عدا ذلك يمكن أن يقال فيه إنه لا يدخن ولا يسكر ولا يسهر ... ويأكل دون إفراط ، ويكثر من رياضة المشى على الأقدام ... كل شىء لديه فى حدوده ... إنه الاتزان الصارم فى أتم صوره . . ولولا هذا المرض العارض التيفوئيد.. أصابه من لبن ملوث كان كل طعامه بعد خلع أسنانه — لولا ذلك المرض الطارىء لعاش طويلا كما عاش زميلاه «عبد العزيز فهمى ، ولطفى السيد» ... وإن كان هو لم يرد التقليد

بأى سن ، فقد كان له أكثر من سن يختار منها ما يريد ... وقد جعلنى مثله فى تفضيل حرية الاختيار... على أن المعروف لنا هو أنه توفى فى الخامسة والستين ، بحساب سنه الرسمية طبقا للتسنين الذى كان قد ارتضاه وتعامل مع الحكومة بمقتضاه ، وفى الثامنة والخمسين بحساب سنه الرسمية الأخرى التى تعامل بها مع شركة «جريشام» للتأمين ... ذلك أن أحد مندوبى الشركة كان قد أغراه وأقنعه بمزايا شروط التأمين التى تبيح الاقتراض على البوليسة بمجرد دفع أول قسط ... فلم يتوان ، وأمن فى الحال على حياته بوليستين : إحداهما بخمسمائة جنيه والثانية بألف جنيه ... ودفع أول قسط لكل من البوليستين ، وبعدها لم يدفع شيئاً كثيراً ... صار يقترض على البوليسة الأولى ليسدد أقساط البوليسة الثانية... ثم يقترض على الثانية ليسدد أقساط الأولى... وهكذا دواليك... وقد تشككنا بالطبع فى جدية مثل هذه المدفوعات ... ولكنى فوجئت ودهشت يوم ذهبت إلى الشركة بعد وفاته بالأوراق ، فقيل لى بعد فحصها : إن الأقساط جميعاً مسددة فى مواعيدها بالكامل والحمد لله ... وتم بذلك صرف المبلغ جميعه، وكان فيه إنقاذنا من

ورطة مؤكدة عندما تكالب علينا أصحاب الديون والكمبيالات المتأخرة لتجار الخشب والطوب والبلاط إلخ... ذهب المبلغ جميعه فى سداد تلك الثغرة... تلك البالوعة التى تسمى «البيت»...

أشار لى والدى وهو على فراش المرض ، فاقتربت منه، فسألنى بصوت متداع عن والدتى ، فقلت له إنها فى المنزل ، وتسأل عن صحته ...فقال هامساً : «سلم لى عليها »... والواقع أنه لم يكن ينتظر وجودها إلى جانبه بالمستشفى ... ولا كان يريده... لقد كان دائما يوصينى فى حياته هامساً : « أمك هذه لا ينبغى اطلاعها على خبر مثير ، ولا إحضارها فى موقف مثير » ! ... فهى بطبيعتها المنفعلة ما كانت تطيق هذه المواقف ، وما كانت تمالك أعصابها فيها ... وأنا نفسى ما من شئ يخيفنى مثل علم والدتى بمرضى ... ذلك أنها تملأ الدنيا صياحا وضجيجاً وشكوى وأنينا ، ولا تترك الطبيب يؤدى واجبه دون أن تنهال عليه بالسؤال الملح والقلق الصاخب وأحيانا بالتقريع والتأنيب لتأخر ظهور الشفاء ، بل ولى أيضاً أنا المريض لتعريضى نفسى لمسببات المرض... كل ذلك فى الوقت الذى يحتاج فيه الموقف إلى الهدوء والتماسك ، والعمل الصامت

الجدى . لذلك حمدنا الله أن بقى والدى وحده مع تلك الممرضة . لكن المرض طال حتى أنهك الجسم وأجهد القلب... كنت أزوره فى المستشفى كل يوم.. فلما اشتدت عليه العلة وساءت حاله ودخل طور الاحتضار ، سألنا الطبيب عما إذا كان يستحسن إحضار « كونصلتو » ... فقال إن هذا لم يعد مجديا ... ولست أذكر هل كان معى فى ذلك اليوم صديق الدكتور حسين فوزى الذى كان يلازمنى أحياناً فى هذه الزيارات بالمستشفى ... كل ما أذكر هو أن إدارة المستشفى اشترطت دفع خمسة جنيهات مقـدما لمجرد السماح لنا بإحضار « كونصلتو » ... وثارت ثائرتى لهذا الإجراء غير المعقول ! ... ورأيت فيه ابتزازاً واستغلالا للموقف ... إن أطباء الكونصولتو على حسابنا نحن بالطبع ... فلماذا وفى نظير ماذا يأخذ منا المستشفى الجنيهات الخمسة ؟.. وفى غمرة هذه الثورة النفسية رفضت ، ولم أزل حتى هذه اللحظة نادما على هذا الرفض . ماذا يساوى مال الدنيا كلها أمام رجل يحتضر ! ... وأى رجل هو ؟!... أمام الموت ما كان ينبغى لى أن أناقش فى المعقول وغير المعقول ... وأسأل عن الجدى وغير الجدى ... ولكنه طبعى

أحياناً لعنه الله ! ...

ومات والدى ... ولم نكن وقتئذ إلى جواره ... كنت فى المنزل أتهيأ للذهاب إليه فى موعد الزيارة ... وإذا جرس التليفون يدق . إنه المستشفى يعلن إلينا الخبر ... وعندما دخلت عليه حجرته ، وجدته مسجى على الفراش وقد غطوا وجهه بالملاءة البيضاء ... وقالت لى الممرضة اليهودية : إنه كان قد أفاق لحظة وطلب منها كوب ماء ، ثم التفت إلى الحائط وكان معلقاً عليه تمثال صغير من الخشب للمسيح وهو مصلوب ، فأشار بأصبعه إلى تمثال المسيح وقال لليهودية بصوته المتداعى ، محاولا أن يحتفظ فيه بنبرة سخريته القديمة :

« إيه رأيك ؟ ... مش انتم اللى قلتم اصلبوه ؟! ... » فضحكت اليهودية ثم استدارت تملأ له كوب الماء ... ولما عادت به إليه لتسقيه وجدت رأسه قد انحدر من فوق الوسادة ... لقد فارق الحياة ... لم تشأ الممرضة أن ترينى وجهه ... ولكنى أصررت على أن تكشف لى الغطاء لأتأمله ... وإذا بى أرى وجها لا يمكن أن أنساه ... إنه الصفاء والتجرد والسمو عن الأرض ... كل ذلك قد ارتسم على

وجه هادىء بلا ملامح ... أو ربما كانت تلك هى ملامح الخلود ...

ولا أذكر أنى ذرفت عبرة ... بل كان الموقف أجل من أى مشاعر عادية لقد تجمدت لحظة وذهلت عن نفسى ثم أفقت فى الحال للقيام توا بمسئوليات الساعة ... وجدت أخى زهير خارج الحجرة ، موفداً من قبل والدتى بمبلغ من المال قال إنها دفعت به إليه لاحتياجات الدفن ثم سافرت إلى العزبة ... لأن أعصابها لا تحتمل الموقف ... وكنت أنا قد احتطت للأمر فجئت معى بمبلغ كاف من القاهرة ... وجعلنا ندبر أمر مراسيم الدفن ... وكانت معالجتنا لهذا الأمر أنا وأخى غاية فى الحمق وقلة الدراية .

قالت لنا إدارة المستشفى :

الجثمان تحت تصرفكم ...

فقلنا :

احفظوه عندكم لحين الطلب ...

فقالوا :

لا يمكن الاحتفاظ به فى الحجرة ، لأنها سوف تخلى وتطهر وتعد لاستقبال المرضى الجدد ، ولكن الذى سيحصل فى هذه الحالة

هو أن الجثمان سينقل ويوضع على رخامة فى قاعة بجوار الباب الخارجى لحين طلبكم ...

فتركناهم يفعلون ما شاءوا بالجثمان ... وانصرفنا نفكر فى أمر الجنازة ... وفى الطريق قابلنا بالمصادفة أحد المعارف ... فلما علم بالخبر قال :

يجب إعلان الوفاة بسرعة وذكر لنا أن أسرع طريقة هى طبع إعلانات يد صغيرة توزع على مقاهى المدينة ، وأن هذا يمكن أن يتم فى ساعتين ... فكلفناه بالمهمة ... وكان الليل قد دخل ... فأوينا إلى منزلنا أنا وأخى ... وكان المنزل خالياً خاوياً بعد سفر والدتى بالخدم فنمنا من التعب ... أو هكذا خيل إلينا ... فقد كنا فى حالة من الأرق والقلق واضحة ...وإذا الباب يدق ... فنهضنا على عجل ونحن نتساءل منذا يكون الطارق فى مثل تلك الساعة من الليل ؟... وفتحنا وإذا به صديق والدنا المهندس « يوسف ... » ... أدخلناه وقد خيمت على وجهه سحابة حزن ... سألنا كيف علم بالخبر ... فقال من الاعلانات ... كان جالساً على القهوة التجارية وإذا إعلانات يد تلقى عليه وعلى الجالسين ،

فظنها — كما قال — إعلانات تياترو ، وهمّ برميها بعيداً ... وإذا بها إعلان وفاة « اسماعيل الحكيم » !!! وختم كلامه الحزين متنهداً :

« لا حول ولا قوة إلا بالله ... إنا لله وإنا إليه راجعون » ...

وطرق فى الصمت لحظة ... وطرقنا معه ، ثم رفع رأسه وجال ببصره فى أنحاء البيت سائلا عن المكان الذى يبيت فيه جثمان الفقيد ... فلما علم أنه فى المستشفى ، وفهم منا أن جنازته ستخرج من هناك مباشرة كاد الرجل يصعق ، وقال :

ما هذا الكلام ؟ ... أليس له بيت يخرج منه ؟ ... يخرج من مستشفى ؟ ... كأن لا بيت له ولا أهل ولا محل إقامة ؟ ... هذا لا يصح أبدا ... جنازته لا بد أن تخرج من بيته ... هذه هى الأصول ...

فقال له أخى : « إحنا ما نفهمش فى الموت ده ! ... »

وأردفت أنا موضحا :

« كل ما خطر ببالنا هو اختصار الطريق ... والطريق أقصر من المستشفى إلى المقبرة » ... فهز الرجل رأسه أسفا ... وسأل عما

إذا كنا قد بلغنا المحافظة ! ... فلما علم أننا لم نبلغ أحداً صاح قائلا :
ياناس هذا رجل له مقامه ومركزه ... مستشار سابق لابد أن ترسل له المحافظة كم عسكرى سوارى بجوار النعش ... فقلت :
والله فى الحقيقة أنا لا أعرف هذه الأشياء ... والحمد لله أنك حضرت فى الوقت المناسب ، والبركة فيك ... فنهض هذا الصديق الوفى النشيط من ساعته وأخطر المحافظة بالتليفون ، واتصل بجريدة الأهرام لنشر النعى ... ولما فرغ من كل ذلك عاد إلينا يقول : وأين هو المستشفى الذى تركتم فيه الفقيد ؟ .. فلما عرف العنوان خاطب الإسعاف بالتليفون ، ثم تركنا وأسرع بالخروج دون أن يلتفت إلينا .. ومضت ساعة أو ساعتان .. وإذا بنا نسمع بوق سيارة الإسعاف على بابنا ... فنزلت وفتحت باب الحديقة الكبير ... فدخل الصديق المهندس وخلفه رجال الإسعاف يحملون الجثمان ... وساروا به فى ضوء القمر فوق ذلك الرصيف الطويل ، بخطى رتيبة وئيدة ذات إيقاع جليل مهيب ، على ذلك البلاط ، فى صمت الليل الرهيب .. تخيل إلىّ أنها جثة « هاملت » فوق أكتاف الأبطال ...

ووضع الجثمان فى إحدى حجرات الجناح ... وكنا قد اتفقنا جميعاً على أن يكون تشييع الجنازة فى الساعة الثالثة من بعد ظهر اليوم التالى ، حتى يستطيع الأهل والأقارب والمعارف الحضور بعد قراءة النعى فى الصباح ... وبالفعل ما كاد الموعد يقترب حتى كان كل شىء قد تم إعداده ... ونصب صوان أمام البيت ... وجىء بالمغسلين ... فهمس لى الصديق المهندس أن من الواجب أن أحضر غسله ... فحضرت ... وكان المنظر لا ينسى .. لقد بدأت الجثة فى التحلل فقد مضى على الوفاة نحو أربع وعشرين ساعة ... وكنا فى مطلع الصيف ... وحاول المغسلون أن يكتموا الرائحة بإطلاق البخور ... واجتمع فى المكان بعض الأقارب والأعمام ، فرأيتهم يبكون البكاء المر أمام المنظر ، حتى أولئك الذين كان بينهم وبين أبى قطيعة خلال حياته .. ولكن دموعى أنا كانت جامدة كالصخر . لأنى كنت فى واد آخر ... كنت أتأمل منظراً عجيباً قلما يتكرر ... منظر وجه أعرفه وأحبه يتحول أمامى تحولات غريبة سريعة ... هذا الأنف الذى أعرفه لأبى قد بدأ يتخذ شكلا آخر ... بدأ يلين كأنه قطعة عجين . والبطن قد انتفخ كأنه بالون يوشك أن ينفجر . معالم والدى

أخذت تتفكك أمامى ، كما يتفكك شكل سحابة فى السماء ويتلاشى .
إن الفناء إذن ليس كلمة تكتب على الورق ويلوكها اللسان ! ...
كنت أتأمل كل ذلك مأخوذاً ، وقد نسيت تماما أن الذى أتأمله
هو والد يجب أن أبكيه ...

شخص آخر أيضاً كان مثلى يراقب الأمور — ولكن من زاويته
الواقعية — محتفظاً بهدوئه : هو الصديق المهندس .. لم يبك مع
الباكين ... ولكنه كان يصدر الأوامر والتعليمات إلى المغسلين ،
ليحثهم على الاتقان ، ويمنعهم من العجلة و « الكلفتة » ... صائحاً
فيهم : « بالليفة والصابون من فضلكم ... الرغوة تكون تقيلة ...
امسحوا الكتف بالراحة ... هنا ناقص غسيل ... الشغل لازم
ياخد حقه » ... وهكذا كان ذلك المهندس يراقب ويدير كل شئ
كأنه أمام عمارة يباشر أعمال بنائها أو ترميمها ...

وخرجت الجنازة أخيراً من بيت الفقيد فى يوم جمعة من شهر
مايو ١٩٣٦ على صورة من المهابة والجلال والوقار لم أكن أتوقعها ،
يحف بالنعش أربعة جنود من السوارى على خيولهم المطهمة ،
وسرت أنا وأخى خلف النعش ، وسار خلفنا خلق كثير ، لم

أنتظر حضورهم ، ولا أدرى من أين جاءوا ؟... لعلهم من معارف
والدى أو من عارفى فضله الصامت .. هذا فقط ، وفى تلك اللحظة ،
غلبتنى الدموع ... وحاولت جاهداً أن أتماسك ، حتى لا أجهش
بالبكاء وأنا وسط الناس ...

وبلغنا المقبرة ... مقبرة الأسرة ... فى ناحية المنارة برمل
الإسكندرية تلك المقبرة التى كان آخر من دفن فيها جدتى سالفة
الذكر ، وأذكر يوم ذهبنا لتشييع جنازتها أن فقهاء «الترب» بعد
قيامهم بمراسيم التلاوة والتلقين ، وكذلك «الترابية» بعد أن سووا
التربة وانتهوا من عملهم تجمعوا حول والدى يسألونه الأجر، فأخرج
من جيبه قروشاً جعل ينفحها هنا وهناك ، وهو يشق طريقه بين
الأيدى الممدودة المتدافعة .. فلما علا التصايح بطلب المزيد قال لهم
بنبرته الجادة الوقورة الممزوجة بالسخرية الخفية : «المرة الجايه ...
المرة الجايه !...» ولم يكن بالطبع يدرى ولا أحد من الحاضرين
يدرى أن « المرة القادمة » سيكون هو نفسه المدفون !...

منذ ذلك اليوم وأنا أحمد الله أن التخلص من هذا البيت
الكبير لم يتم فى حياته ... فقد انتفع به على الأقل فى يوم مماته ...

لم أجد إذن فى الجو الذى يكتنفنى فى ذلك البيت فى ذلك الصيف البعيد من مطالع العشرينات مشجعاً على أى نشاط ، حتى ولا المطالعة... كان فى عزمى أن أنتهز فرصة إجازة الصيف وأبدأ العمل فى مسرحية عن المرأة الجديدة ، التى أخذت تخلع «اليشمك» خصوصاً بعد مظاهرة السيدات المشهورة وتفريق البوليس لهن وعلى وجوههن البراقع البيض ... كان حقا من معالم ثورة ١٩١٩ اشتراك السيدات فيها لأول مرة فى تاريخ مصر ... مما كان يبشر بقرب تحقيق أحلام قاسم أمين فى مطالبته بالسفور ... وكانت لى أفكار معينة عن مستقبل المرأة وسفورها أردت أن أبرزها فى مسرحية... لكن جو بيتنا وخوفى أن يكتشف أهلى ما أفعل ، وهبوط همتى لعدم معرفتى مصير ماسبق أن كتبت من مسرحيات . كل ذلك أقعدنى أياما فى حالة خمول ، فإلى جانب «خاتم سليمان» التى أجهل ماتم فى أمرها كنت قد كتبت بمفردى كما ذكرت تلك المسرحية الأخرى التى أسميتها «العريس» وهى الكوميدية الخالية

من الألحان ، أخذها منى زكى عكاشة ليقرأها منذ زمن ولا أدرى ماصنع بها ... وصح عزمى على أن أكتب إلى مصطفى ممتاز لمجرد الحصول على أخبار.. أى أخبار عن المسرح تنقلنى ولو للحظات إلى جو آخر ... ولم يمض يومان على رسالى حتى وصلنى الرد ... خطاب عادى لم يستلفت نظرى منه شىء ... لكنى ماكدت أفض غلافه حتى طالعتنى من داخله حوالة نقود بريدية صفراء ! ... فاختلج قلبى ... كان الخطاب من الصديق مصطفى ممتاز ... كتب فيه يقول :

«... قد اتفقت نهائياً مع زكى عكاشة فى أواخر يونيو الماضى وأمضيت عقد الاتفاق ، بعد أن كابدت من ألاعيبه وأكاذيبه مالا يمكن أن يقدر بثمن ... ولولا حاجة تدفع بالمرء إلى الأناة وسعة الصدر مما تعلم ومالا تعلم ، لمزقت الرواية وقطعت كل صلة لى بهذا الفن المنحوس .. وقد حصل الاتفاق على ثلاثين جنيها .

هذا ومما يهمك معرفته عن العقد أن فيه بنداً يقضى برد ثمن الرواية إذا لم يقرها قلم المطبوعات ...

كما أن فيه بنداً آخر بدفع غرامة مقدارها مائة جنيه إذا

أعطيت هذه الرواية نفسها إلى أى جوق آخر ... أما عن «الميت الحى» (وهى مسرحية لأحد زملائنا فى التأليف لست أذكر الآن من كان) فقد رأيت إعلاناتها على الجدران ... وأما عن نفسى فيظهر أنى سأشتغل مع عباس علام فى رواية «خالد بن الوليد». وإن كنت أفضل أن أبحث لنفسى عن موضوع آخر مستقل ... هذه هى أهم الحوادث عندى قد أبلغتها إليك ... أما عن تقاعدك عن المطالعة أو عمل أى شىء فهو مالا أراه لك رأياً ... وحبذا لو أنك انتهزت فرصة صفاء الذهن وجمال ما حولك من المناظر لتعمل عملا جديدا ممتعاً ... وعسى أن يصلنى منك قريباً ما تبشرنى به من شروعك فى عمل جديد ... وتفضل بقبول فائق تحياتى ... ودمت لأخيك المخلص — ممتاز».

أعاد هذا الخطاب والحوالة التى بداخله وفيها نصيبى — إلى نفسى الأمل والرغبة فى العمل ... فطويت حوالة البريد بكل عناية لحين الذهاب لصرفها ... ثم قمت أشمر عن ساعد الجد وأشرع فى كتابة «المرأة الجديدة» ... وحدث أنى تصفحت إحدى مجلات ذلك العهد التى تأتى بأخبار المسارح وما نعده لموسمها القادم، فإذا بى

أرى بين روايات الافتتاح لجوق عكاشة إعلانا عن «العريس» وعن «خاتم سليمان» ... فما أن وجدت روايتى «العريس» يعلن عنها فى الصحف حتى أيقنت أنها قبلت، وربما دفع بها إلى البروفات دون انتظار لتوقيع عقد ... فقد كان زكى عكاشة يعامل المؤلفين كما لو كانوا لا وجود لهم ولا شأن ... إذ ما من أحد منا سبق له أن رفض ثمناً عرض عليه أو طالب بسحب روايته ... كنا دائماً صاغرين لقبول ما يقدم إلينا ... وحسبنا أن نرى أعمالنا تظهر على المسرح .. كنا كلنا من الهواة المجاهدين ... وإذا كنا ننتظر أجراً فما ذلك لأنه يسمن أو يغنى من جوع، بل لأنه يشعرنا على الأقل بوجودنا وبأهميتنا فى نظر أنفسنا ... وبأننا نعمل عملا جدياً مطلوباً ! ... على أن هذا العمل كان قبل كل شىء يسرنا نحن ويغمر قلوبنا بالسعادة والمتعة ... ولم يكن لدينا من الغرور أو حتى من الاعتداد بالنفس ما يجعلنا نظن أننا نعمل شيئاً ما فى تاريخ المسرح المصرى .. كلمة «تاريخ» بالحرف الكبير، وكلمة «أدب» وكلمة «فن» بالمعنى الخطير الذى لاكته الأفواه بعد ذلك زهوا أو احساساً بحمل رسالة عظمى ! ... كل ذلك لم يكن معروفا

لدينا وقتئذ ... كان كل شيء يجرى لدينا بسيطاً لا يحمل أكثر من معناه ولا يتجاوز أبعد من حدوده ... على أن الإنتاج المسرحى فى تلك المرحلة ، شأنه شأن الانتاج الأدبى والفكرى كان أغلبه يعتمد على الترجمة والتمصير والتعريب ... وكانت المسرحية الأجنبية الممصرة تسمى «اقتباساً» كما كانت الرواية الأجنبية المترجمة بتصرف ـ كما عند المنفلوطى ـ تسمى «تعريبا» . «التعريب» فى الأدب و «التمصير» فى المسرح . ولم تكن كلمة الاقتباس دقيقة المعنى اللغوى ... لكنها كانت تعنى فى العرف الجارى أن المسرحية ليست تأليفاً خالصاً ... ولا ترجمة خالصة ... بل هى نقل الموضوع من جو إلى جو ، ومن شخصيات أجنبية إلى شخصيات مصرية أو شرقية ... فالاقتباس المصرى كان على غرار روايات الريحانى وبديع خيرى والكسار وأمين صدقى وعباس علام وسليمان نجيب وأنا فى « العريس » ... والاقتباس الشرقى كان على غرار «العشرة الطيبة» للمرحوم محمد تيمور وبعض مسرحيات ابراهيم رمزى وروايتنا «خاتم سليمان» إلخ ... والعجيب فى ذلك العهد هو الشعور الطبيعى بواجب الأمانة الفنية ... فإذا روجعت إعلانات تلك الروايات لوجد تحتها كلمة « اقتباس » فلان ...

إنى أحتفظ حتى الآن ببعض إعلانات اليد ذات الألوان الحمراء الخضراء والصفراء للعريس وخاتم سليمان طبع تحتها كلمة اقتباس بقلم فلان ... ما كان أحد منا يسمح لنفسه أن يكتب كلمة «تأليف» إلا إذا كان هذا قد حدث فعلا ، أو كان ابتكاره أو جهده قد وصل إلى درجة التأليف .. أما إذا كانت الرواية مترجمة فإن اسم المؤلف الأجنبى كان يذكر فى جميع الإعلانات ، مهما تكن قيمة المترجم أو المعرب فالمنفلوطى فى تعريبه للقصص ، وعثمان جلال ومحمد مسعود للمسرحيات كانوا جميعاً يحرصون كل الحرص على إبراز اسم المؤلف الأصلى المترجم أو المعرب عنه ، فإذا لم يتيسر ذلك ـ لما حدث للمسرحية من تغييرات كادت تنقلها إلى شيء جديد ـ فكان يكتفى بذكر كلمة «اقتباس» بقلم فلان ... وحدث أن أراد عباس علام التحلل من كلمة «اقتباس» هذه التى جرى عليها العرف ، فابتدع ـ ولعله أول من ابتدع ـ تلك الكلمة الغامضة التى تحمل شتى المعانى حين تذكر بمفردها وهى كلمة : « بقلم » ... فكان يضع تحت مسرحياته كلمة « بقلم » وحدها حاذفاً كلمة : « اقتباس » التى تسبقها عادة ، وبهذا يترك الأمر معلقاً يفسر كما يفسر ... هل هو تأليف بقلم أو اقتباس

بقلم ؟ ... وأذكر أن النقاد فى ذلك العهد تندروا بهذه الطريقة بادىء الأمر وأطلقوا عليه فيما بينهم اسم : «عباس علام بقلم» إلى أن شاعت هذه الطريقة بين الكتاب جميعاً وأصبحت شيئاً طبيعياً ...

على أن الاقتباس قد خدم المسرح المصرى خدمة مشكورة فى مرحلته الأولى ... فقد مرن كتاب المسرح على أصعب ناحية فى كتابة المسرحية وهى تلوين الشخصيات ... فالموضوع المقتبس لم يكن فى حد ذاته ذا أهمية كبرى ... فشكسبير وموليير وجوته كانوا يقتبسون الموضوعات ... إنما المهم حقاً فى المسرح هو ابتكار الحوار وإعادة خلق الشخصيات خلقاً حياً جديداً مبتكراً ... لكن المقتبس المصرى لم يكن قد وصل إلى هذه المرحلة ... لأنها فى المسرح من أرقى مراحل الابتكار ... كان كل جهده منصرفا إلى ناحية أخرى هامة بالنسبة إلى تكوينه الفنى : هى مجرد نسج جو مصرى وصبغ الشخصية الأجنبية باللون المحلى ... فجهد عثمان جلال فى تمصير «الشيخ متلوف» مثلا عن تارتوف «لموليير» يحسه المشاهد ويلمسه لأول وهلة ... كانت هذه الخطوة لابد منها على كل حال فى التأليف للمسرح المصرى والعربى وإن كان من العجيب أن الاقتباس فى المسرح الأوروبى والأمريكى

أصبح اليوم بدعة العصر ... فكثير من المسرحيات الهامة التى تعرض الآن فى العواصم الكبرى هى اقتباسات يقوم بها كتاب المسرح عن مسرحيات مشهورة ناجحة ... ففى فرنسا مثلا قد يدهشنا أن نرى مؤلفا مثل «سارتر» يقوم باقتباس مسرحية «الممثل كين» عن مسرحية المؤلف الفرنسى أيضاً «اسكندر دوماس الكبير» ... وأن نرى «جان كوكتو» يقوم باقتباس مسرحية أمريكية هى «عربة اللذة» لتنيسى ويليامز ... وإذا تتبعنا المسرح الانجليزى أو الألمانى أو الأمريكى فسنجد مثل هذا أيضا ... على أن الاقتباس فى أوربا وأمريكا وهو المسمى «الإعداد أو التكييف أو النص الجديد» يقف عند حد التغييرات فى النص لاختلاف روح الدعابة والسخرية والتشبيهات والأمثال ونحو ذلك بين بلد وآخر، فالاقتباس أى الإعداد أو التكييف عندهم يقتصر على جعل النص الأصلى ملائماً لذوق البلد المنقول إليه، ولكنه لا يتعدى ذلك إلى تغيير الجو أو الأسماء ... لأن الجو الأوربى والأمريكى متشابه فى الجملة ...

فالاقتباس المسرحى عندنا إذن فى بعض الأحوال أعقد منه عندهم إنه أحياناً يكاد يكون نصف تأليف خصوصا فى تلك الأيام الخوالى

التى كنا نكتب فيها قبل سفور المرأة ... كان علينا فى مجتمعنا الحجابى وقتئذ أن نغير فى العلاقات الاجتماعية الموجودة بين الرجال والنساء فى مجتمع سفورى ... كنا إذا أردنا اقتباس مسرحية أجنبية يلتقى فيها رجل بامرأة وقعنا فى حيص بيص ... كيف نضع فوق خشبة المسرح المصرى وقتئذ رجلا وامرأة وجها لوجه لا تربطهما صلة رحم ... كان من المستحيل أن نجعل زوجة فلان « تنكشف » على زوج علانه ... كنا نتحايل على ذلك بشتى الطرق .. فنجعل هذه المرأة ابنة عم ذلك الرجل أو أنه هو ابن خالتها ، وهكذا ... كان الرجال والنساء فى جميع مسرحيات ذلك العصر تجمعهم صلة القرابة !!! ... ويستطيع أن يراجع ذلك من شاء أن يراجع ... كان تغير هذه العلاقات الاجتماعية حسب مقتضيات بيئتنا يقتضى تغييراً فى الحوار والشخصيات وبعض مواقف المسرحية ، مما يخرجها كثيراً عن الأصل ، على نحو يجعل معنى « الاقتباس » عندنا مغايراً تماماً لمعناه فى المسرح الأوروبى أو الأمريكى المعاصر ... كان هذا العمل إذن بمثابة مدرسة لتمرين كتاب مسرحنا ، وإتاحة الفرصة لمن أراد منهم أن يفرد جناحيه فى المستقبل ليطير بمفرده ...

كان لكل كاتب من كتاب المسرح عندنا كاتب أوروبى يفضله ويقتبس عنه ... كان عزيز عيد مثلا مغرما بجورج فيدو ... عمل على ترجمة أهم أعماله ترجمة حرفية وأظهرها على المسرح أشخاصها الأوروبيين المبرنطين بدون تغيير ... أما أنا فقد كنت أعجب بكاتب آخر من كتاب الفودفيل اسمه : « ألبان فلابريج » اقتبست عنه مسرحية « العريس » ... وظل « فلابريج » هذا علما فى نظرى من أعلام المسرحية الفكاهية ... إلى أن سافرت فيما بعد إلى فرنسا فعلمت لدهشتى أنه كاتب مغمور لا مكان له بين الأسماء الضخمة التى تتألق هناك فى عالم الأدب . وكان قد شاخ وانزوى ... فى ذات يوم بينما كنت أتصفح جريدة « الطان » إذا بى أرى سطرين لا ثالث لهما فى آخر صفحة تنعى « المسيو ألبان فلابريج » كاتب فودفيل كتب بضع مسرحيات وتوفى عن ثمانين عاما » . فقلت فى نفسى : سبحان الله ! ... أهذا هو فلابريج كله ! .. وأطرقت أسفاً وترحمت عليه ... ولعلى الوحيد الذى أسف عليه بين ملايين البشر فوق هذه الأرض ! ... تلك كانت مرحلة الكتابة المسرحية فى مصر ... أما مرحلة تأليفى الفعلى فإنها لم تبدأ عندى على نحو جاد إلا بعد

سفرى إلى أوروبا والارتشاف من منابع الثقافة الحقيقية والتكوين الحقيقى لبنيتى الفكرية ...

لكن العجيب فى أمرى مع ذلك أنى فى باريس لم أواصل السير فى هذا الخط الذى اتبعته فى مصر ... خط الفكاهة والفودفيل والأوبريت والمسرحية الجماهيرية عامة ... لقد كانت كل هذه الأنواع لم تزل قائمة فى فرنسا ، فيما يسمى : مسارح «البولفار» الذى يماثل يومئذ عندنا شارع عماد الدين — بملاهيه ومسرحياته وكتابه المستواين على ناصية النجاح أمام الجماهير الواسعة ... فإن الذى حدث هو أنى زهدت فى هذا الفن السهل ، ولم يغرنى نجاحه الهين المضمون ... وسرت فى اتجاه جديد مع ركب آخر من الكتاب والمؤلفين والمخرجين القائمين بثورة تجديد ضد الطريق الأول الناجح ... ركب « ابسن » و « بيراندللو » و « برناردشو » و « ماترلنك » ... كتاب ومؤلفون وجدوا العسر كل العسر فى الظفر بجمهور واسع وقتذاك ... لأنهم نبذوا وسائل التصفيق المعتادة ليشقوا طرقا جديدة ... وإذا كانوا قد انتصروا بعد ذلك فبفضل جماعات من المثقفين ما وهنوا وما يأسوا من التبشير بفنهم ولم أرهم

ينتصرون فى ذلك الوقت . وقت وجودى بباريس فى تلك الفترة . بل رأيتهم فى مرحلة جهادهم المستميت .. رأيت «ابسن» يمثل فى مسرح صغير أمام جمهور قليل ولأيام معدودات ... ورأيت مسرحية «سانت جون» أو «جان دارك» أحدث مسرحيات «برناردشو» تمثل لأول مرة فى باريس أمام جمهور قليل من المشاهدين نصفهم لا يفهم لها رأسا من ذنب ... ولم يجرؤ على تقديمها فى باريس يومئذ إلا الممثل والمخرج الروسى الجرىء «جورج بيتوئيف» ... وقد قام فينا قبل رفع الستار يعلن ويحذر طالباً منا الصبر قائلا تلك الجملة التى لم أزل أذكرها : إنه فى مثل هذه المسرحيات إنما «يمشى فوق حبل رفيع» . أما «بيراندللو» فكان أحدوثة خاصة المثقفين من أهل باريس يومئذ كذلك : كانت تعرض مسرحياته لأول مرة فتدير الرؤوس بالاستغراب والاستنكار ولا تسمع ممن فى الصالة إلا الهامس :

«هل فهمت شيئاً ؟ ...» «لا» و «لا أنا ! ...»

ما الذى جرفنى الى هذه الفئة ؟. ما الذى أغرانى بهذا البلاء ؟. ما الذى أبعدنى عن أضواء النجاح السهل ؟... النجاح «البولفارى» الجماهيرى لست أدرى ... لعلها نزعة عندى فى الحياة والفن ...

حقا ، أرانى أختار أحياناً الطريق الصعب الذى يتعذر معه النجاح ، وأترك الطريق المألوف المعروف المؤدى حتما إلى نجاح مضمون . ولعلها أيضا النزعة العقلية الفكرية عندى والتى قد وجدت أخيراً البيئة الصالحة لظهورها فى هذه المذاهب المسرحية الجديدة القائمة على الفكر ... ربما ... ومع ذلك فإن هذا الاتجاه عندى لم يجد صعوبة فى أن يستقر داخل بيئتنا الأدبية ... فالبيئة الأدبية فى بلادنا كانت فعلا مستعدة لتقبله . وقد أحسنت بالفعل استقباله ... فى حين أن البيئة المسرحية كانت لاتزال فى واد آخر ... وخاصة بعد عودتى من الخارج ... فقد اختفت حتى المترجمات الجيدة ، وخضع المسرح المصرى وقتئذ إلى تيارين اثنين : التيار الأضحاكى والتيار الإبكائى وكان لا بد إذن من تيار ثالث هو التيار الثقافى ... لذلك أنشئت الفرقة القومية عام ١٩٣٥ وأسندت إدارتها إلى الشاعر خليل مطران ، وعهد بمسئولياتها الفنية إلى المخرج زكى طليمات ، بعد عودته من بعثته فى باريس ... فافتتحت بمسرحيتى « أهل الكهف » ثم « تاجر البندقية » ترجمة « خليل مطران » ، و « أنتيجون » ترجمة الدكتور طه حسين » ، و « الملك لير »

ترجمة ابراهيم رمزى إلخ ... مسرحيات هوجمت بحجة مستواها الثقافى الرفيع ... وقد كان بالفعل ظهور مثل هذه المسرحيات دفعة واحدة وعلى مسرح كبير وفى ذلك الإطار الفنى الجاد الجاف ، شيئا هز الناس وصدمهم ... ونجح الهجوم فى القضاء على اتجاه الفرقة بمساعدة الأحزاب السياسية المتذبذبة ... على أن الخطأ فى حقيقة الأمر كان فى عرض مثل هذه المسرحيات العسيرة على جمهور واسع من البداية دفعة واحدة ، وهو ما لم يحدث حتى فى أوروبا نفسها ... وكان الواجب عرضها على مسرح طليعى خاص يحدد عدد مقاعده ورواده من المثقفين ... ولو أن هذا حدث منذ ذلك التاريخ ... واستمر المسرح الطليعى الصغير فى ركن هادىء ، بعيداً عن العواصف ، حتى رسخ وتطور على مدى تلك الأعوام الطويلة ، وتولدت فيه بيئة مسرحية جادة ممثلة للتيار الثقافى الذى قصدناه ، بمؤلفيها ومخرجيها وممثليها وجمهورها لكنا اليوم فى وضع آخر ... ولكانت مسارح الجماهير الكبيرة نفسها منذ مدة طويلة قد تطورت وصارت فى مستوى آخر ... لكننا جعلنا المعركة فى ميدان أوسع مما ينبغى ... وفى مواجهة الجماهير التى اعتاد أكثرها أنواع

المتعة السهلة التى يقدمها خصوم أقوياء اعتبروا الاتجاه الجديد تحديا لوجودهم ...

نعم ... لقد كان افتتاح الفرقة القومية فعلا بدء معركة ... من دلائل ذلك الخطاب الذى نشرته جريدة الأهرام فى عددها الذى صدر بتاريخ ١٨ ديسمبر ١٩٣٥ بعنوان : «من مؤلف أهل الكهف إلى مدير الفرقة القومية» ربما كان من المفيد أن أنشره هنا ... وها هو ذا نصه :

عزيزى الأستاذ خليل مطران

أحب أن أثبت كتابة تهنئتى إياك بهذا الفوز المبين ... لقد شاهدت رواية الافتتاح فى ليلتها الرابعة ... وتبينت أن الأمر أجل من أن يكون أمر قصة وفرقة ... إنما هو أمر إقرار مذهب من مذاهب التمثيل لم يكن مألوفا فى مصر والشرق العربى ... فلقد كان المعروف لجمهورنا من قبل أن المسارح توءم للمتعة الرخيصة الزائلة ... لا للمتعة العقلية الباقية ... حتى قصص شكسبير وأمثالها ما كانوا يشاهدونها لذاتها ولحوارها ، بل لما أدخل عليها من غناء وألحان أو لما جاء فيها من مواقف مثيرة تهز أعصابهم

دون أن ينال حوارها الأدبى من أذهانهم منالا ... إلى أن أمسك بالزمام إمام الصناعتين ، وكأنما أراد القدر أن يقيمه إمام صناعة ثالثة ، فبين للناس فى موقعة حاسمة أن التمثيل إن هو إلا فصل مجيد من كتاب الأدب العالى ... نعم ... لقد كانت موقعة ... لا بينى أنا وبين الجمهور كما قال صديقنا الدكتور طه حسين (فى جريدة الجهاد) ... ولكنها بينك انت وبين المذهب السابق البائد للتمثيل ... وقد كان لك النصر ... وبانتصارك انتصر الفن الحقيقى ... فأهنئك مرة أخرى ... وأهنىء معاونيك ومحققى فكرتك البارعين ومخرجى وممثلى الفرقة القومية الزاهرة والسلام »

المخلص

توفيق الحكيم

القاهرة فى ١٧ ديسمبر ١٩٣٥

انتهت الأجازة الصيفية وعدت إلى القاهرة حاملا مسودة « المرأة الجديدة » وقد أتممتها ... كان شهر أكتوبر قد أقبل ، فوجدت مسرح الأزبكية قائما على قدم وساق ، يجرى التدريبات على « خاتم سليمان » و « العريس » ومسرحية غنائية أخرى اسمها « الدنيا وما فيها » للشيخ يونس القاضى المؤلف الملحق بفرقة منيرة المهدية ... كان قد تركها واتجه إلى العكاكشة ... ولعل يونس القاضى — وهو أيضا مؤلف الأغنية المشهورة وقتئذ :

« ارخى الستارة اللى فى ريحنا أحسن جيرانك تجرحنا » ...

لعله الوحيد الذى لم يكن يقتبس عن مسرحية أجنبية لجهله باللغات الأخرى ... لهذا كانت مسرحياته عبارة عن مشاهد غنائية لا رابط بينها ولا ضابط ... لكنها كانت صالحة كأطار للموقف الغنائى ... كان اهتمامى الخاص بالطبع متجها إلى مسرحيتى « العريس » وقد قرر لى زكى عكاشه نظيرها ولا مرد لقراره مبلغ عشرين جنيها فقط ، بحجة أنها خالية من الألحان ، وأنى المؤلف الوحيد

فيها لا شريك لى ... أما « خاتم سليمان » فكانت تدريباتها قد انتهت ... وجاءنا كامل الخلعى يسألنى أنا ومصطفى ممتاز :

« هل الألحان أعجبتكم » ؟ ...

فكان ردنا الطبيعى :

« نعم أعجبتنا » ...

فمد يده قائلا :

« يدكم بق على البقشيش » ! ... ووالله ما تركنا إلا بعد أن قبض من مصطفى ممتاز ومنى مبلغ جنيه مناصفة ، وأعطانا إيصالا بذلك قال فيه بالنص :

« استلمت من حضرتى ممتاز أفندى وتوفيق أفندى مؤلفى رواية خاتم سليمان ماية غرش صاغا كمكافأة على حسن الألحان التى وضعتها فى روايتهما ... وهذا وصل بالاستلام » ...

١١ نوفمبر ١٩٢٤ كامل الخلعى

ملحن رواية خاتم سليمان

ولست أذكر لماذا هذا الإيصال ؟ ... ولا من الذى طالبه به ؟ ... إنى لم أزل احتفظ بين أوراقى بهذا الإيصال العجيب بخط

يد ذلك الملحن الكبير الشهير فى عصره ! .. وياله من فرق بين فنان الأمس ذاك ، وفنان اليوم الذى يقتنى العمارة والسيارة ! ...

فاتنى أن أذكر أن «خاتم سليمان» تلك لم تكن فى الواقع أول مسرحية غنائية لى .. فأنى قبل أن أعرف مصطفى ممتاز ، وبعد أن وقع فى يدى ذلك المجلد الذى اشتريته لمسرحيات «الفريد دى موسيه» وكان عنوانه «كوميديات وأمثال» ، اخترت من بينها كوميدية تسمى «كاره وزين» استخرجت منها عام ١٩٢٢ مسرحية غنائية كاملة «أوبرا» جعلتها فرعونية باسم «أمينوسا» نظمت بعضها ثم انصرفت عنها ، فأخذها منى زميل لى فى الحقوق (محمد السعيد خضير وكيل مجلس الدولة بالمعاش) لإتمام نظمها ... ولم أدر ما فعل بها ... إلى أن أخبرنى يوماً أنه سلمها للعكاكشة ... وكان فى شأنها أخذ ورد مع سيد درويش الذى قيل إنه طالب بأجر ضخم لتلحينها ... فسلموها إلى كامل الخلعى ... فكان فى شأنها أيضاً أخذ ورد ، كما هو وارد فى إشارات كتبها كامل الخلعى بخطه على ورقة لم تزل موجودة عندى هى الأخرى ... وهذا نصها :

« رددت هذه الرواية ثانية إلى جوق إدارة شركة ترقية التمثيل

العربى بعد أن ألفت موسيقية نصف فصل منها ... لأننا لم نتحد على ثمنها من جهة ... ولأن أرباب الأدوار فيها لا يؤخذون غناء أدوارهم إلا بعد أن يذهب أغلبه ضياعا لطول الوقت ...

أول مارس ١٩٢٣   كامل الخلعى — الموسيقى بمصر

«وردت إلى ثانية فى ١٠ ديسمبر ١٩٢٤ ... ولكن بعد أن ذهب تلحين ما ألفته تماما ... وسأبدأ بوضعها بإتقان وتؤدة ... وسأجتهد أن تخرج للناس بعد مضى ستة شهور من تاريخه ... لأنها تحتاج إلى تنقيح فى نظمها الشعرى وإبداع فى تأليفها الموسيقى ... »

١٠ ديسمبر ١٩٢٤   كامل الخلعى — الموسيقى بمصر

ولم أعرف ماذا تم فى أمر تلك المسرحية ... ولم أحرص على معرفة شىء عنها ... ولم أقابل كامل الخلعى منذ ذلك اليوم الذى قبض فيه منا مبلغ الجنيه مناصفة بينى وبين شريكى ... ولكن المسرحية على كل حال لم تظهر ... واتجه النشاط إلى إعداد مسرحيات أخرى فقد كانت المنافسة شديدة فى ذلك الموسم بين مختلف الفرق ... ولست أدرى كيف كانت القاهرة وقتئذ تحتمل كل تلك الفرق المسرحية من مختلف الأنواع ، دون إعانة أو رعاية من الدولة ... كان الفنان

فى ذلك العهد يعانى من شظف العيش من الانكار والاستنكار » ولكنه يصمد . . . لأن روح الفن وجذوته الملهبة المضيئة فى أعماقه كانت تدفئه وتنير حياته الشاقة كان يكفيه تشجيع الجمهور الواعى وكان الجمهور يقبل على المسرح لأنه لا يجد غيره . . فالسينما المصرية الصامتة أولا ، وفيما بعد الناطقة ، لم تكن قد ظهرت بعد . . إن السينما حقاً قد أثرت — حتى فى أوروبا — على المسرح فى أول الأمر ، إلا أن الجماهير ما لبثت أن عادت إلى المسرح بعد أن أخذ يجدد فى وسائل تعبيره ليشعر الناس أن خصائصه مختلفة عن خصائص السينما حتى وإن نطقت ...

كان من علامات ازدهار المسرح المصرى فى ذلك الوقت نجاح فرقة رمسيس التى أنشئت حديثاً ، واستطاع يوسف وهبى مؤسسها أن يقف فى الدرام أمام جورج أبيض فى التراجيديا ، وأن يخرج فيها مسرحيات قيمة ممتازة مثل « غادة الكاميليا » أبرز فيها نبوغ الممثلة الكبيرة روز اليوسف ... بل لا أدل على نهضة المسرح وقتئذ من أن تعرض نفس المسرحية على مسرحين مختلفين فى نفس الوقت كان عزيز عيد قد انفصل بعد ذلك عن فرقة رمسيس

وأسس مع فاطمه رشدى فرقة جديدة منافسة تعرض تقريباً نفس منوع ... فرأينا يوما هذا المظهر الفريد فى بلدنا ... كلا الفرقتين يعرض فى نفس الأسبوع نفس المسرحية أظنها « النسر الصغير » أو « يوليوس قيصر » لست أذكر بالضبط ... المهم أن الجمهور ما كان يضيق بذلك بل كان يرحب بهذه المنافسة الفنية الرائعة ... ويذهب إلى الفرقتين معاً ليشاهد ويقارن ... وكان على فرقة عكاشه كى تثبت أمام المنافسة أن تتخصص فى نوع معين . وتخصصت بالفعل فى الأوبريت والأوبرا والمسرحية المصرية واللهجة والشرقية الجو . وتخصص الريحانى والكسار فى الفرع الهزلى الاستعراضى ...

وظهرت « العريس » وكذلك « خاتم سليمان » سنة ١٩٢٤ ...

وقد حرصت أول الأمر على أن أحذف اسم الأسرة من الإعلانات ، حتى لا أستلفت نظر أهلى ... جعلت اسمى — وخاصة فى الإعلانات الأولى — هكذا :

« حسين توفيق » ... فقط ، لا غير ...

وبهذا ظل أهلى إلى وقت ما لا يشعرون بشىء مما أفعل فى هذا الجو والمجال ...

وما كدت أفرغ من تقديم «المرأة الجديدة» لفرقة عكاشه، حتى شرعت فى كتابة مسرحية غنائية «أوبريت» هى «على بابا»، التى عهد بتلحينها إلى «زكريا أحمد»، كما عهد بنظم أغانيها كما رغبت إلى «بديع خيرى»... وذلك بعد أن أتممتها وأرسلتها إليهم من الخارج، ولعلى لم أرسل النظم الذى بدأته، لبعدى عن الملحن... فقد كنت سافرت إلى فرنسا بعد قيدى فى جدول المحامين... لم يكن هناك بالطبع ما يبشر وأنا بالحقوق بأى رغبة عندى فى تلك المهنة مهنة القانون، وأنا الذى ما كان يصاحب إلا أهل الفن. حتى أثناء الدراسة... كنت أوالى حضور التدريبات «البروفات» يومياً... وكنت أحياناً كثيرة لا أكاد أغادر خشبة المسرح. وأود لو ألتصق بها التصاقا طول نهارى، بضوئها القليل وضجيجها الكثير أمام صالة مقفرة نهاراً غارقة فى الظلام... ومع ذلك كان كل شئ أمامى زاخراً باهراً، حتى مشاكل أهل الفن كان يحلو لى متابعتها والاشتراك فيها... كانت ممثلتنا الأولى ومطربتنا فى روايتنا «خاتم سليمان» لا تعرف القراءة ولا الكتابة... فعينوا لها شخصاً يحفظها دورها... فكنت أراها فى ركن بين الكواليس، على

«المرسح» (هكذا كانت تلفظ كلمة المسرح وقتئذ، وهو يحفظها الدور كلمة كلمة، كأنها دجاجة يلقى إليها الطعام حبة حبة... بينما الملحن «كامل الخلعى» يجرى «بروفة» على ألحان المجموعة ويصبح على قائد الموسيقى وشيخها المتمكن وقتئذ «عبد الحميد على»:

«ياسى عبد الحميد!... الموسيقى فى ناحية واللحن فى ناحية!»... ويدب بينهما الخلاف... فيلتفت إلى الخلعى قائلا:

«اشهد بالحق ياتوفيق افندى!»... وكثيراً ما أكون بمفردى فى بروفات الصباح، لأن شريكى مصطفى ممتاز لا يمكن أن يزوغ من أعمال وظيفته بوزارة الداخلية كما أستطيع أنا الزوغان من مدرسة الحقوق!... لذلك كنت أتحمل أنا وحدى نفقات الجنون الفنى للملحن العبقرى، وصياحه بين لحظة وأخرى:

«اعدلوا لى دماغى بسجاره وإلا وشرفكم ابطل الشغل النهارده!»... فكنت أبادر، خوفاً من وقف تدريبات روايتنا، إلى شراء علبة سجاير من جيبى أعدها خصيصاً لمثل هذه الأزمات... أما روايتى «العريس» التى لم يكن بها ألحان، فإن كل شىء فيها كان يجرى بهدوء أثناء تدريباتها... اللهم إلا ذات يوم رأيت

ممثلا قديراً حقاً يقوم بدور حلاق فى الرواية ، لم أكن أبصرته من قبل بين أفراد الفرقة . . . فلما أعجبنى إتقانه لدور الحلاق ، وسألت عنه قيل لى إنه ليس ممثلا ولكنه حلاق حقيقى ، دكانه قريب ... وقد جاءوا به استسهالا فصحت قائلا :

« وافرضوا يوم التمثيل كان يحلق لزبون فى دكانه ، هل يترك ذقن الزبون ويحضر ليؤدى الدور ؟! ... أو افرضوا أن الفرقة سافرت بالرواية إلى الأقاليم ، هل سيغلق دكانه ويسافر معكم ؟ ...

فهدأوا من ثائرتى ضاحكين قائلين :

« ساعتها يحلها ربنا » ! ...

ولا أدرى حتى اليوم أكان ذلك منهم جداً أم مزاحاً ... هكذا كان حضور تلك البروفات من أمتع لحظات حياتى فى ذلك العهد ... وكانت صحبة أهل الفن هؤلاء لا تعدلها عندى صحبة ... حتى وإن لم يوجد عمل أو رواية تربطنا ... لم يكن يمضى على يوم وأنا فى مصر قبل سفرى إلا وأذهب إلى جوق عكاشة ، أجالس الممثلين والملحنين ... أذكر ذات يوم أنى جلست أتحدث مع الملحن المشهور «داود حسنى» ... فى مسرحية «الأوبرا» شمشون ودليلة ...

كانت أول أوبرا كاملة عربية ... وقد لاقت نجاحاً كبيراً ... وإنه لمن العجب حقاً أن تعرض بنجاح وقتئذ مسرحية كلها غناء دون أى كلام . . . كان داود حسنى يصغى إلى حديثى وهو يترنم بلحن دور جديد للمطربة « نعيمة المصرية » ... وإذا هو يلتفت نحوى فجأة ويقول :

« فكر لنا فى كلمتين من كلامك لنعيمة المصرية ! . . .

وظل يغرينى بكتابة بعض الأغانى للتخت ... ولم أتقبل الفكرة بتحمس ، وإن كنت بدأت وأنا فى جلستى معه أنظم مطلع أغنية لمجرد إرضائه على نسق أغانى تلك الأيام . . . ومطلعها على ما أذكر :

« حلو النوام ينسى قوام ، والحب عنده مالوش دوام » ...

فقال لى وهو يهز رأسه :

« حلو ! ... كمل ! ... »

ولكنى لم أكمل ولم استمر ... وفتر اهتمامى وانصرفت به إلى الحديث فى الأوبرا ... وقد كان فى حديثه وسماته وملبسه على نقيض كامل الخلعى — كان يبدو عليه الاتزان والوقار إلى حد

يكاد يخرجه عن طراز أهل الفن ... كان فى هيئته ومظهره أقرب إلى الموظف الكبير المحترم ... ولكن ما أن يأتى ذكر الموسيقى والفن حتى تنفجر من نفسه كل كوامن الفنان ... أخرج لى من جيبه كراسة قال لى إنها أوبرا جديدة عهد إليه بتلحينها ... تناولتها من يده ونظرت فيها فإذا هى أوبرا فرعونية بعنوان « ليلة كليوباترا » تأليف « حسين فوزى » ... وأردف داود حسنى مضيفاً أنها سلمت إليه بعد أن رفض « كامل الخلعى » تلحينها ... فقد كان نظمها لا يسير على طريقة الشعر كما يفهم الخلعى الذى اعتاد القصيدة الغنائية على غرار شعر « فرح أنطون » وعلى نسق :

إن لم أصن بمهندى ويمينى * ملكى فلست إذن صلاح الدين !!

كان نظم « ليلة كليوباترا » أحيانا قصير الأبيات جداً ، لا تتعدى فيه الشطرة كلمتين ، وطويل البحر إلى حد يملأ الصفحة ... فلما رأى كامل الخلعى ذلك صاح منفجراً :

كيف يمكن تلحين ذلك ؟! ... هذا شريط ترمواى وليست قصيدة ! ...

ولم ير كما رأى بعده داود حسنى : أن مثل هذه البحور تتيح

للتلحين أنغاما أكثر تحرراً وتمشياً مع طبيعة الأوبرا ، ويظهر أن كامل الخلعى لم يقلب بقية الصفحات ليرى التنوع فى البحور والقوافى والأوزان ... ومضيت فى قراءتى لمنظومات الكراسة وأنا أعجب لرفض كامل الخلعى مثل هذا العمل الجيد .. ولاشك أن سابق تجربتى وخبرتى الماضية فى نظم الأوبرا الفرعونية « أمينوسا » ، جعلنى أقدر من غيرى على الحكم والتقويم الصحيح لمثل هذه الكراسة ... واستغرقت فيها وطال استغراقى ، فلم أعد أشعر بما حولى ، إلى أن نبهنى داود حسنى وهو يقول :

« جرى إيه ؟! ... انت المطلوب منك تلحينها أو أنا ؟! ... »

فرددتها إليه وأنا أوصيه بها خيراً ... وسألته عن مؤلفها الذى لم أكن سمعت باسمه ، فوعدنى أن يرينى إياه عندما يأتى إلى التياترو ... وحدث بالفعل أن أشار لى داود حسنى ذات يوم إلى شخص يدخل من باب التياترو وقال :

« ها هو ياسيدى المؤلف ! ... » فنظرت فوجدت شابا حليقاً يضع رباط رقبة على شكل أنشوطة عريضة جداً مما يضعه المصورون والموسيقيون « الرومانتيك » ! ... كان مظهره مظهر

فنان حقاً ... أقرب إلى أن يكون رساما أو موسيقاراً ! ... أما أنا فلم يكن لى من مظهر الفنان إلا الشارب الحليق ... تلك كانت علامة الفن وقتئذ ... إذ مامن أحد فى ذلك العهد كان يجسر على حلق شاربه إلا الفنان ... أذكر أن بعض المعارف من غير أهل الفن قابلنى ونظر فى وجهى ثم صاح :

« أين شاربك ؟ ... »

فرد عليه أحد العارفين بهوايتى ! ... »

« عامل فنان ياسيدى ! ... »

ذلك أن إطلاق الشوارب وفتلها أحيانا وتبريمها كان هو الطبيعى المألوف ... أما ذلك الذى يزيل شاربه فهو الخارج على إجماع الناس ، المنخرط فى زمرة أهل الفن والعياذ بالله ! ...

ولست أذكر أنى حادثت « حسين فوزى » فى ذلك اليوم ... فقد مر أحدنا بالآخر عن بعد كما تمر الأطياف البعيدة أو الظلال المنعكسة فوق الجدران ... إلى أن تقابلنا فى باريس ... ونشأت بيننا الصداقة ...

كان الدكتور حسين فوزى متخرجا فى مدرسة الطب ، وينتمى

إلى العلم ... وكنت أنا متخرجا فى مدرسة الحقوق وأنتمى إلى القانون ... وجئنا إلى باريس ... هو للتبحر فى دراسة العلم ... وأنا للتبحر فى دراسة القانون ... وقد استطاع هو الجمع بين العلم والأدب والفن ، وخاصة الموسيقى ... ولم أستطع أنا التفرغ للقانون ، وجرفنى الأدب والفن جرفاً ... حتى انتهيت إلى الانقطاع إليهما كل الانقطاع ...

عندما أصبح امتحان الليسانس على مدى شهرين ، لم أكن قد بدأت فى الاستذكار الجدى ... كنت منذ عامين قد غادرت مسكن الأعمام — لأن العم المدرس كان قد شرع فى الزواج — واتخذت لنفسى مسكناً صغيراً فى حى شبرا ، مالبث أن لحق بى فيه أخى الأصغر «زهير» .جاء والتحق بمدارس الفرير بالخرنفش ، استعداداً للتقدم منها إلى الشهادة العامة ... فهو وإن كان قد بدأ دراسته الابتدائية فى مدرسة محرم بك بالإسكندرية ، إلا أنه سرعان ما اضطر إلى تغييرها . ذلك أن مدرسة محرم بك كانت وقتئذ — وياللعجب العجاب — هى المدرسة الابتدائية الأميرية الوحيدة للإسكندرية كلها بضواحيها !... ولما كان بيت الأسرة فى آخر الرمل ... فقد كان عليه أن يستيقظ كل صباح فى الساعة الخامسة فى برد الشتاء القارس ليصل إلى مدرسته قبيل الثامنة ...

هذا الإرهاق قد اضطره إلى ترك هذه المدرسة والالتحاق بمدرسة قريبة فى حى الرمل بباكوس... كانت بالطبع مدرسة أجنبية

فلما أتم بها المرحلة الابتدائية ، ولم تكن تعد المرحلة الثانوية ، كان عليه أن يلتحق بمدارس فرير الخرنفش بالقاهرة ... وهكذا نزل معى فى ذلك المسكن ... واستأجرنا خادما يعنى بشؤوننا من طبخ وخلافه . لم يكن أحد من أهلنا يستطيع الإقامة معنا بالقاهرة ... لا والدى ولا والدتى ، لما سبق بيانه من اشتغالها بالهدم والبناء والأطيان والرهون . . . عشنا بمفردنا معاً . . . ولم يكن أخى مجداً كل الجد هو الآخر فى دراسته ... فقد اتجه ميله إلى تعلم الرقص وحضور حفلاته ، وكانت تدهشنى جرأته فى ارتياد فنادق كبرى مثل الكونتننتال ليراقص من يراقص وليس فى جيبه أكثر من خمسة قروش . . . فاجأته ذات مساء وهو يقص بالمقص أحد جواربى السوداء ، ويفصل منه شيئاً كالأنشوطة «الفيونكة» ، ومضى هكذا بكل جرأة ليدخل الكونتننتال حيث كانت تقام حفلة راقصة كبرى بملابس السهرة !... قلت له مذعوراً : أنت تدخل هكذا هناك لترقص ، وأنا أنتفض من الرهبة لمجرد سيرى أمام هذا الفندق ؟! ... ثم أين نقودك التى ستدخل بها هذا المكان ؟! ... فكان يخرج لى

من جيبه القطعة الفضية ذات الخمسة القروش ويقول باسما هادئاً :
المسألة فى غاية البساطة ... أجلس على أى مائدة وأضع ساقاً فوق ساق وأطلب «واحد غازوزة» ثمنها مع البقشيش لا يزيد على خمسة قروش وأظل أراقص طول الليل ! » ... إنى دائماً أحسد أخى على جرأته هذه ... وفى فرنسا كان حاله أعجب ... لحق بى بعد انتهائه من المرحلة الثانوية بالخرنفش ، ليدرس الزراعة فى مدينة « تولوز » ... فكان يأتى إلى زيارتى فى باريس فى أجازات رأس السنة أو عيد الفصح وكنت أنا غارقا فى الكتب ... أجاهد فى خضم معركة ثقافية مضنية ، فهالنى يوماً أن أراه هبط علىّ واستولى فى غفلتى على البدلة الجديدة الوحيدة التى جعلت أوفر وأدبر ثمنها عاما كاملا ، ولم أكن لبستها بعد ... ضننت بها على نفسى ، فإذا بى أراها عليه ... وقد جال بها جولة فى «الشانزلزيه» وعاد مصطحباً فتاتين فاتنتين ، طالباً منى أنا القيام بمهمة العشاء ، باعتباره ضيفاً علىّ فى باريس ... فلما غمزته أضيق ذات اليد وهمست له :

« النساء سهل ، ولكن عشاءهن صعب » ...

قال محاولا إقناعى :

وهل أنا أخطأت إذ فكرت فيك ... طبعاً واحد لك ... واختر أنت التى تعجبك منهما ، أما أنا فالكل عندى سواء .. ومع ذلك فأخى هذا لم يعرف الحب فى حياته ... على كثرة ما عرف من نساء ... أقصد الحب كما كنت أفهمه ويفهمه الخياليون والعاطفيون من أهل الشعر والفن ... فكما أنه لم يترنم قط فى حياته ببيت واحد من الشعر ، فإنه لم يلتهب قلبه مرة بهذا الذى نسميه نحن «الحب» ... وهو لم يكن يطيق المقام طويلا فى مدينة واحدة ، على نقيض أنا الذى لم أتحرك من باريس ، فهو قبل « تولوز » ذهب إلى « جرينوبل » ... وبعدها إلى « ستراسبورج » ثم إلى « ليل » ... وفى كل مدينة له مغامراته ... وهو يكثر من التدخين إلى حد مزعج ... وأنا ما وضعت قط فى فى سيجارة ... ويعنى بملابسه عناية فائقة ، وأنا ما حملت قط فى حياتى منديلا حريرياً ... أو لبست قفازاً ولا حتى فى أشد أيام الشتاء برداً ... لم أدلل نفسى قط باقتناء مثل هذه الأشياء البديعة ... وتصادف أن اجتمعنا مرة فى مصيف بأوروبا بعد أن كبر واشتغل بالزراعة ، فلما نزلت من القطار ... وكان هو قد سبقنى واستقبلنى على المحطة ، دهش إذ لم يجد بيدى غير حقيبة واحدة

صغيرة فيها كتب ، وليس معى غير بذلة واحدة هى التى علىّ ... ومضى بى إلى فندقه فإذا بحقائبه تمتلىء بنحو ست بدل على كل لون ، مع عديد من فاخر الأحذية ومجموعة من أربطة العنق الحريرية الثمينة ... إنه كان دائماً يتنقل هكذا بهذه الملابس كلها ... ومنذ كان طالباً فى فرنسا برع فى لعبة « البوكر » . . وكانت فى باريس وقتئذ « شلة » من عتاة المصريين شبه المنفيين اجتمعوا فى شبه عصابة قمار لاصطياد أغنياء مصر القادمين للفسحة . . . كنا نعرف القهوة التى يجتمعون فيها ، أنا وغيرى من الزملاء الجادين فهرب منهم بجلدنا . . . وإذا بأخى هذا قد هبط عليهم — ولست أدرى كيف — ففرحوا به واستعدوا لاصطياد ما معه . . . فلم تمض ساعة حتى كان هو الذى اصطاد ما معهم وتركهم كالمجانين . . . ولقد برع قديما فى السباحة أيضا — وأنا لم أعرف العوم فى حياتى — حتى كاد يصبح ذات يوم من أبطال السباحة لولا إصابته بالربو ... ثم حذق الرماية وكاد يصبح من أوائل أبطالها فى نادى الصيد ، لولا المرض الذى أقعده ... هذا هو شقيق الوحيد ، كنت أتمنى أن تكون لى مثل

هذه الطبيعة المنطلقة ... على أنه فوق هذا حاد الملاحظة ، سريع الفهم ، نافذ الذكاء ... ألمس ذلك من آرائه فى كل ما يتصل بميدان عمله المباشر : الزراعة مثلا أو جماعات الناس المختلفة التى خالطها أو صادفها فى حياته ... إنه هو الذى كان يجب أن يكون الفنان ... وأنا المزارع . . . ولو تم ذلك لظفر الأدب والفن فى بلادنا بإبداع حقيقى ... ومع ذلك لم تجمع بيننا ظروف الحياة كثيراً ... فنحن لا نتراسل ولا نتزاور ... حتى فى أشد حالات المرض ... ولا يؤثر ذلك فى حب أحدنا للآخر ... أطول فترة عشناها معاً كانت تلك التى أتحدث عنها ... أيام ذلك المسكن الصغير فى حى شبرا ... أى عندما كنا فى مطلع الشباب الأول هو يحضر للتقدم إلى الشهادة الثانوية العامة ، وأنا أحضر لشهادة ليسانس الحقوق ... وكان كل منا فى شأنه ... ولست أذكر كيف ومتى كان يراجع دروسه ؟ . . . فى أى حلبة رقص ؟! . . . فقد كنت فى أواخر العام لا أعرف لى رأساً من قدم ... كان الشك قد بدأ يساورنى ... هل أستطيع حقاً الحصول على الليسانس ذلك العام ؟ . . . وقد أضعت أكثر شهوره بين المسارح والفنانين والملحنين !! ...

مادام هذا الزميل ساهراً ما يزال ... فكيف أنام أنا المحتاج أكثر منه إلى ساعة واحدة ! ... لم يكن « حلمى بهجت بدوى » فى الحق محتاجا إلى كل ذلك العناء فى آخر العام ... فقد كان منقطعاً للدراسة من البداية ، لا يشغله شاغل ... ما كانت تربطنا بعد أى صداقة ... كانت مجرد معرفة ، نبعت من مجرد لقاء قديم عابر فى المرحلة الثانوية بالمدرسة العباسية بالإسكندريه ... كان فيما أذكر يستلفت النظر فى المدرسة بصغر سنه ؛ فلم يكن من زمرتنا ولم يكن هناك كذلك من شيء يؤكد الصلة بيننا فى مدرسة الحقوق... على العكس... كانت الحرية التى وجدناها فى المدارس العليا مما يفكك الروابط بين الطلاب... وخاصة الحرية التى منحتها لنفسى فى الحضور والغياب ، لمشاغل الفن !... وما كانت الصداقات و«الشلل» تتكون هناك إلا على أساس التقارب فى السن والطول والضخامة والميول والنزعات والمشارب ... كل ما كنت أعرفه عنه وقتئذ هو ما يعرفه عنه الجميع من أنه أحد الطلاب الخمسة الأوائل المبرزين النابغين المحافظين على ترتيب الأولوية فى كل امتحانات النقل السابقة... وكنت أتطلع إليه من بعد مع رفاقه الخمسة

الأوائل دائماً .وكأنى أتطلع إلى ظواهر خارقة ، ولسان حالى يقول :

« لو تكرموا علينا بعشر ما فى رؤوسهم لننجح به ؟ ». لم يكن قط « حلمى بهجت بدوى » هو التلميذ الصغير العادى الذى صادفته فى المدرسة الثانوية ... ذلك الذى كنت أراه العصر بعد انتهاء الحصص ، يتلكأ فى العودة إلى منزله ، لينضم إلى فريق الكرة « الشراب » !... فى أرض فضاء خارج المدرسة ... لم أكن بطبعى ميالا إلى أى نوع من أنواع الألعاب ... اللهم إلا لعبة « محولجى السيمافور » وأنا غلام ، عندما كنا نقطن فى دمنهور على شريط السكة الحديد... كانت نافذة حجرتى مجاورة لكشك الإشارات... فوضعت عليها من الخارج قطعة خشب طليتها بلون « السيمافور » فكنت إذا رأيت « السيمافور » الحقيقى مفتوحا لمرور القطار فتحت أنا أيضاً سيمافورى ... وتنبه ذات مرة عامل الإشارات «الحقيقى» إلى عملى فضحك... وصار قبل أن يفتح السكة للقطارات ينظر أولا إلى نافذتى ويغمز لى بعينه أن « خذ بالك القطار ظهر ، افتح له السكة » !... تلك هى اللعبة التى كانت تروق لى فى صباى وتملؤنى متعة وسروراً وزهواً أن أتصور نفسى افتح السكة

للقطار... أما ألعاب الجرى المألوفة فى الصغر ، فلم تكن مما يروق لى كثيراً .. ويظهر أن أهلى لاحظوا ذلك... فقد دهشوا إذ رأونى ذات عصر أجرى فى الشارع بخلاف عادتى لاعبا مع بعض صبية الجيران ، فلما تحروا الأمر اتضح لهم أنى إنما أجاريهم توسلا إلى غرض آخر : هو أن أظفر بدعوة منهم إلى حفل فرح أقيم عندهم تلقى فيه الأغانى والفصول الفكاهية من بعض المطربين والمشخصين .

كذلك لم أتعلق بألعاب التسلية مثل الطاولة : ولقد حاول والدى نفسه عندما كبرت قليلا أن يعلمنى الطاولة التى كان يعرفها كما يعرف كل شىء لمجرد المعرفة — فى أحد المقاهى ، لقتل الوقت ، وقد كنت معه مرة وهو فى انتظار أحد السماسرة ، ولكن هذه اللعبة أيضا لم تدخل عقلى ولا مزاجى ... بل حتى أصدقائى فيما بعد لم يستطع تحمسهم للطاولة أن يغرينى ... كنت أتركهم هم يلعبون وأزعم لهم أنى أراقبهم ، وأطلق العنان لأشطح مفكراً فى أشياء أخرى ... ولعل خصلة « السرحان » جاءتنى من هنا ... وكنت أحياناً أحاول أنا إغراءهم بترك الطاولة والدخول فى مباراة أجدى فى صورة جدل حول موضوع من الموضوعات ... وخيل

إلىّ بعد ذلك أنى كدت أتعلق بلعبة « البلياردو » لأن من الممكن أداؤها والعقل يفكر فى شىء آخر ... وهذا خطأ ... فكل لعبة يجب أن تمارس لذاتها بكل الجوارح ، وفشلت فيها أيضا ... وهذا من أكبر أخطاء حياتى أن لا أتعلق بلعبة ... تركت حياتى جافة مجردة ...

أما الألعاب الرياضية أو البدنية فى المدارس ، فما كانت أيضاً تستهوينى ... لذلك كنت أجتاز هذا الفريق المتحمس لكرة «الشراب» عند انصرافى من المدرسة دون أن أتوقف لألقى عليهم نظرة ... إلى أن كان ذات عصر ، وجدت « حلمى بهجت بدوى » قد اعترض طر يق وقال لى :

تعال قف حارساً للمرمى فى فريقنا ، لأنه ينقصنا واحد... فلما اعتذرت بقولى إنى لا أعرف هذه اللعبة ، قال إنها من أسهل الأمور ، وما علىّ إلا أن أقف بين حجرين يمثلان المرمى ، وأمنع الكرة من الدخول بينهما ... وقبل أن أجيب كان قد أحاط بى هو وفريقه ووضعونى وضعاً وسط مرماهم ... ودار اللعب أمامى حامى الوطيس ، وتلاطم موج المتزاحمين من الفريقين ، وجعلوا

يتدافعون بالمناكب ويتقاذفون الكرة بالأقدام ، واحتدم اللعب وعلا اللجب واشتد الضغط على المرمى الذى أنا حارسه ... وانتشر التراب فوسخ الثياب ... وثار الغبار فأعمى الأبصار وملأ الخياشيم ، فتركت المرمى إلى من ينعاه ، ورحت أسب مثل هذه اللعبة السخيفة ... وأسخر من لاعبيها ... وما من واحد منهم قد فطن فى زحمة الهجمة والمعمعة إلى أن المرمى خال خاو لا حارس له إلا الله ! ... على أن عين حلمى بهجت لم تلبث أن لمحتنى فاقترب منى وقال برفق :

أرجوك المسألة جد وتهمنا . . . ولا يصح أن ننهزم أمام الفريق الآخر وأنت حارس مرمانا » ...

فأثر قوله فى نفسى ونهضت قائلا له :

« اطمئن . . . لن ننهزم أبداً ، ولن تدخل الكرة مرمانا أبداً » ...

ووقفت فعلا بين حجرى المرمى ... ولكنى أمام كل هجمة من الفريق الآخر كنت أزحزح الحجرين بعيداً دون أن يشعروا ... وأصبح بذلك مرمانا متنقلا متحركا لا يمكن أن تصل

إليه كرة الخصوم أبداً ... تلك هى الصورة الأولى لصلتى بحلمى بهجت بدوى ... أما صداقتنا الحقيقية فلم تنشأ إلا فى فرنسا ... وفد علينا — بعد شهور من سفرى إليها — فى بعثة تضم « مصطفى القللى » الذى أصبح فيما بعد عميداً لكلية الحقوق وأحد المشرعين لقانوننا الجنائى وأحد محامينا الكبار ، وعبد الحكيم الرفاعى الذى أصبح فيما بعد محافظا للبنك الأهلى ثم للبنك المركزى ... وسرعان ما ربطت الصداقة بين ثلاثة منا بنوع خاص ، حتى أصبحنا فى باريس نسمى بالثالوث الذى لا تنفصل أضلاعه فى نظر الزملاء من مبعوثى الحقوق الذين عاصرونا ولحقوا بنا ... كان هذا الثالوث مكونا من : حلمى بهجت بدوى ، ومصطفى القللى ، ومنى ... ذلك أن ما كان يربطنا نحن الثلاثة من بين طلاب الدكتوراه فى الحقوق هو ذلك الشىء الزائد على القانون ، الذى كان يميز حلمى بدوى ومصطفى القللى : حب الثقافة والرغبة فى المعرفة ... كان القللى شاعراً قديماً ، له قصائد رصينة أيام ثورة ١٩١٩ لكن هذا لم يمنعه من التفوق والتخرج من بين أوائل الليسانس ... وأصبح بذلك له الحق أن يوفد فى بعثة ... وعند ذلك قال قائل :

« إنه شاعر » ...

وكانت هذه كافية وقتئذ لتضيع عليه البعثة لولا عون من الله ... من يومها والقللى يخشى هذا الوصف ... ويكب على القانون يتبحر فيه ... على أن الطبيعة الداخلية لا تقهر ... فهو وإن كان قد قطع كل صلة له بقرض الشعر إلا أن تذوقه لكل ما هو فن وثقافة ظل حياً ينمو ويتطور ... أما حلمى بهجت بدوى فهو شخصية عجيبة ... لم نعرف عنه اتجاها فنياً بعينه ، ولم يمارس بنفسه نوعا من أنواع الفنون ... ولكنه عقلية ممتازة فتحت نوافذها على كل ألوان المعرفة ، وقلب حساس بكل أنواع الفنون ... بينما نراه غارقا فى أشد فروع القانون جفافا — وهو القانون المدنى — ميدان تخصصه، نراه إذا جاء ذكر الشعر أو الموسيقى أو الأدب القصصى أو المسرحى يتحدث فيه ويعيش بوجدانه كما لو كان ميدان اختصاصه أو كانت معلقة عليه أنفاسه ، فإذا خرجنا من هذا إلى علوم الاقتصاد أو السياسة أو الحوادث العامة فى باريس أو الأخبار والأحوال الدولية فى العالم كانت مشاركته فى كل ذلك مشاركة الباحث المتعمق ... إنه كان التكامل العقلى والعاطفى على أتم تكوينه

فى إنسان ! ... وما كان يخفى عنى خطوط المستقبل كما رسمها لنفسه ... لقد كان فى حسابه أن يكون وزيراً ... ولم تكن هذه الكلمة عنده من مطامع الشباب الرخيصة ... بل كان لها معنى عميق ... الوزير أو رجل الدولة فى نظره يجب أن يكون مكونا تكويناً محيطا ، لأنه سيحيط يوماً بكل مستقبل أمة ... فى نواحيها المختلفة ... ومع ذلك ، وبالرغم من هذا التخطيط لمستقبله فإنه لم يسع فيما بعد كما سعى بعض زملائنا إلى كرسى الوزارة ، من أسهل وأبخس الطرق ، بالالتجاء إلى الأحزاب أو الاتصال بالشخصيات السياسية ... على العكس ... لقد ظل متعففاً أنوفا بعيداً عن الصغار السياسى والدجل الحزبى ، عاكفاً على عمله كأستاذ فى الجامعة حيث وضع كتاباً فى القانون المدنى ليس كسائر الكتب التى ألفت فيه فقد كانت شخصيته المتفردة المحيطة تجعل له نظرة خاصة حتى فى القانون ... كانت له فكرة تراوده دائماً من زمن ويفاتحنى بها كأمل من آماله ، وهو أن يؤلف فى القانون المدنى شيئاً على نمط خاص ... لاحظه هو وعجب أن رجال القانون جميعاً لم يلتفتوا إليه ... ووضع كتابه ونال عليه جائزة الدولة الكبرى ... ثم تقلب فى مختلف المناصب الكبيرة والوزارة التى تطلع إليها فى شبابه فى متناول

اليد ، ولا يتقدم إليها ... إلى أن طلبوه وزيراً للمالية قبل ثورة ١٩٥٢ فرفض ... وألحوا عليه فأصر على الرفض ... ذلك أنه لم يكن يريد الوزارة لمجرد أن يكون وزيراً ... لم يقبل إلا فيما بعد عندما أحس أنه يستطيع أن يفعل شيئاً ... وبالفعل صنع أشياء ... عندما كان وزيراً للتجارة وللاقتصاد ... إلى أن احتيج إليه فى منصب أكبر فكان هو أول رئيس لهيئة قناة السويس عند تأميمها . . . حتى اختاره الله إلى جواره والوطن لم يزل فى حاجة إليه ... إنى كلما ذكرته ذكرت معه مراحل العمر كلها : من عهد الكرة «الشراب» إلى عهد باريس والشباب ، إلى عهد الرجولة والوظيفة ... عندما كان أستاذاً بكلية الحقوق ، وكنت أنا مديراً للتحقيقات بوزارة المعارف اتفقنا على السكن معاً فى شقة بالجيزة ... كان يعرف عنى العزوف عن مشاغل السكن وإدارة شئونه . فكان يتولى ذلك عنى ، عن طيب خاطر ، كل ما كان يخشاه منى ، كما كان يقول ، هو أن يستيقظ ذات صباح فيجدنى قد حملت حقائبى وفررت ، تاركا له خطابا أعلنه فيه بسأمى وضجرى من هذه الحياة وعودتى إلى الفندق ، فيتحمل هو وحده أعباء عقد إيجار ذلك السكن الكبير ! ... أدخل هذه الفكرة فى رأسه

يوماً صديقنا الدكتور حسين فوزى ، عندما كان يأتى إلى زيارتنا من الاسكندرية حيث كان يدير وقتئذ معهد الأحياء المائية ... كان يذكره بما كنت أفعله فى باريس ... من التنقل المفاجئ من فندق إلى فندق ، ومن حى إلى حى ، ومن «أسرة» إلى «نزل» ... ويروى له ما حدث معه يوم رجوته أن ينقل لى فى الخفاء أمتعتى وعفشى من منزل أسرة كنت أقطن بينها فى «كوربفوا» ... فذهب صديقى فوزى وهو يتعثر خجلا ، فقابلته ربة الأسرة ... تلك التى كانت تصاحبه على البيانو وهو يعزف على الكمنجة ، كلما زارنى ... حسبته جاء للعزف والتطريب ، وهو ما جاء إلا «للعزال» والتهريب ! ... كان «حلمى» يسمع من «فوزى» أمثال هذه الحكايات فيلعب الفأر فى عبه ويلتفت إلىّ قائلا فى ابتسامته الوديعة :

«إياك تعملها معى ؟ ...»

فكنت أطمئنه وأزيل مخاوفه . . . وبالفعل لم «أعملها» ولم نفض شركة السكن إلا عندما شرع هو فى الزواج ... عندئذ فقط عدت إلى سكنى الفنادق ، وأنا أسأله عما يحب أن أهدى إليه بمناسبة زواجه ، فإذا به لدهشتى وعجبى يطلب شيئاً لا يخطر على

البال ، لـكنه ، على كل حال لا يمـكن أن يخطر إلا على بال من كانت له ثقافة « حلمى بهجت بدوى » وشخصيته ... قال :

الهـدية الوحيدة التى أطلبها هى : المسودة الخطية الأولى لـكتابك « عودة الروح » ! ...

وعندما مرض مرضه الطويل لم أكن أنا مع ذلك من بين عواده العديدين ... كان يعرف شعورى على البعد ، ويعرف طبعى السىء ويغتفره لى . والمرة الواحدة التى لقيته فيها قبيل وفاته استقبلنى بابتسامته الودودة الصافية ... وعندما تدفقت الخطب والكلمات فى حفلة تأبينه لم أكتب عنه كلمة . . . ولـكننى واثق أنه كان فى قبره يحمل لى نفس الود ونفس الحب . . . لأنه كان عظيما . . .

رحمة الله عليك أيها الصديق الوفى ! . . . يامن كان لشبحك ... لمجرد شبحك خلف النافذة أكبر حافز لى على الجلد والمذاكرة . . . وإذا كنت قد نلت ليسانس الحقوق فى ذلك العام الميئوس منه ، فإن الفضل كان لظلك الماثل عن بعـد رمزاً للإرادة والإصرار ! . . .

كان لوجود اسمى بين الحاصلين على ليسانس الحقوق أكبر مفاجأة لى ... فقد ذهبت بعد الامتحان مباشرة إلى الاسكندرية بين الأسرة فى ذلك المنزل الـكبير ، وأنا أبعد الناس عن التفـكير فى النجاح . . . كان كل تفـكيرى متجها إلى إتمام تلك الأوبريت أو « الأوبرا كوميك » « على بابا » كما كنت أسميها... حتى تـكون معدة للموسم المقبل ... وفجأة دق جرس التليفون... فلم ألق إليه بالا .. ولـكن أذنى سمعت صيحة فرح من والدتى وهى تردد فى التليفون قائلة :

« الله يبارك فيكم ! ... الله يبارك فيكم ! ... » .

فقلت لنفسى بغير اكتراث :

« يباركون لمن ياترى ؟! ...

ولم ألبث أن رأيت كل من فى البيت يدخل ويصيح بى :

« مبروك » . . .

فقلت :

لماذا ؟...

فقالوا :

« نجحت فى الليسانس » ...

فلم أصدق... إلى أن جاءوا بالصحف... وطالعت فيها العبارة المألوفه وقتئذ : نجح فى شهادة الليسانس الأفندية الآتية أسماؤهم : وبحثت عن اسمى بسرعة فوجدته قبل الأخير باسمين... فحمدت الله أن قد وجد اثنان أسوأ منى !! ... وكان فرحى عظيما ، فحسبي أنى نجحت ونلت الليسانس والسلام ... ولكنى بعد الفرحة جعلت أتأمل المستقبل بعين الحيرة والتساؤل ... الآن ماذا أنا صانع ؟... المحاماة ؟ ... النيابة ؟ ... لم تكن ميولى متجهة فى هذا الطريق ... لم أفكر طويلا ... فقد شغلت عن التفكير بمجئ جوقة عكاشة إلى الإسكندرية ذلك الصيف لتمثل رواياتها — ومن بينها رواياتى — على مسرح كان يسمى « تياترو زيزينيا » وانغمرت بالطبع وسط الممثلين والمطربين . كنت ليل نهار بينهم ، وكانوا قد نزلوا فى فندق متواضع بشارع البورصة ، مملوء بحانات البيرة ... كان الممثل الكوميدى الأول المرحوم محمد بهجت لا يحلو له إلا النزول من

فندقه إلى قارعة الطريق يجلس إلى إحدى موائد الحانة على الرصيف بالجلباب والقبقاب ! ... وكان مدير الفرقة زكى عكاشة قد نزل فى فندق آخر فاخر يليق بمقامه ، مكتفياً بالمرور كل صباح فى عربة لا ينزل منها ؛ بل يشرف من علٍ بكل تعاظم على أعضاء فرقته.. فما أن كان يرى محمد بهجت فى جلسته تلك حتى يقول له بازدراء :

« جلابيه وقبقاب فى الشارع العمومى ... الكوميديان الكبير بتاعنا ؟! ... »

فيرد عليه محمد بهجت رحمه الله بقوله :

« وانا كنت طلعت بالقبقاب والجلابية فى دور السلطان صلاح الدين أو ريكاردو قلب الأسد ؟! ... أنا هنا فى الشارع سلطان زمانى ! ... بقبقاب ، بصرمة قديمة ... أنا حر ! ... »

فيترفع زكى عكاشه عن الرد ويصعر خده ويكتفى بأن يأمر الحوذى بصلف وعجرفة :

« سوق يا اسطى ! ... »

فما أن تبتعد العربة حتى يبصق محمد بهجت فى أثره بصقة كبيرة وهو يقول :

« رح ... داهيه تسمك فى تقل دمك ! ... »

ثم يلتفت نحوى وأنا جالس إلى المائدة بجواره :

«مش كده فى محله ؟!» فأوافق على كل تصرفاته راضياً ضاحكا .

لست أدرى من الذى أبلغ أهلى بانغماسى فى وسط «المشخصاتيه» أهو أحد المعارف أو الأقارب لمحنى بينهم ؟! ... كل ما أعلم هو شعور داخلى بأنهم بدأوا يرتابون فى أمرى . وفى ذات يوم جابهنى والدى بأمر مستقبلى ... وقال لى إن التحاقى بالنيابة العمومية متعذر الآن لأنه لا يلتحق بها غير أوائل الدفعة وأنا من الأواخر . فلا مفر إذن من اشتغالى بالمحاماة فترة ، وإنه بادر بالفعل وأدرج اسمى فى جدول المحامين المشتغلين ودفع عنى الرسم والاشتراك ، واختار لى المكتب الذى أعمل به . فلما رأى عدم تحمسى وانصرافى ، صارحنى بقوله :

« تعال قل لى ! ... انت غرضك تشتغل بالتشخيص ؟ ... »

فقلت له ملطفاً العبارة :

« أنا أحب الأدب ، وأريد الاشتغال بالأدب ! ... »

فقال بلهجة خوف ونصح وتحذير :

« انت تريد أن تفعل كما فعل لطفى ؟ ... »

فسألته :

« لطفى من ؟ ... » فقال :

« لطفى السيد ، كان زميلنا فى القضاء فجعل يقول الأدب الأدب إلى أن ترك القضاء واشتغل جرنالجى ، ولم تنفعه شغلة الجرائد فعاد إلى الوظيفة ... وساعده الزملاء القدماء من أمثال ثروت باشا وصدقى باشا فوضعوه فى النهاية فى مخزن اسمه دار الكتب ! ... » — شاء القدر الساخر فيما بعد أن أترك الوظيفة أنا أيضاً بعد وفاة والدى لأشتغل فى الصحافة «جرنالجى» ثم أعود إلى الوظيفة فى نفس هذا «المخزن» المسمى دار الكتب ! ... ومن عاب ابتلى ! ..

والواقع أن الأدب أو الاشتغال به وحده لم يكن من الأمور التى تؤخذ على سبيل الجد فى مجتمع لم يكن يمنح الاحترام والجاه والمال إلا للباشوات أو لأصحاب السلطان والمناصب فى الحكم والإدارة والقضاء ... ولولا أن «شوقى» الشاعر كان له منصب هام فى السراى ، وكانت له ثروة لنظر إليه المجتمع وقتئذ نظرته إلى زميله حافظ ابراهيم : لا أكثر من صعلوك أو مهرج فى أعين

كبار رجال الدولة ، يتعطفون عليه بوظيفة يلقون بها إليه فى منّ وترفع ... لم تكن هنالك أمثلة مشجعة فى الأدب ... كان الأعلام المتربعون على عرش الشعر والنثر ، هم : شوقى ، وحافظ ، والمنفلوطى . على أن اهتمامى الخاص بالمسرح جعلنى أكثر التفاتاً إلى محيط كتابه الأعلام من أمثال محمد مسعود ومحمد تيمور ولطفى جمعه وابراهيم رمزى ... لم أعرف «شوقى» شخصياً إلا فيما بعد ... عندما اتجه إلى المسرح ، وتهيأ لتأليف « مصرع كليوباترا » ... كنت وقتذاك فى باريس ... وجاءها هو ذات صيف ... وتلاقينا فى مقهى « دار كور » الذى كنت أتردد عليه بالحى اللاتينى . . . قال لى إنه كان يحضر تدريبات كثيرة لمسرحيات جوق عكاشه ، ومن بينها فيما يظن مسرحية لى ، إذ قيل له يومئذ إن مؤلفها غائب فى باريس . . . وسألنى قائمة بكل المسرحيات الفرنسية التى تناولت كليوباترا ليطلع عليها ...

أما قبل سفرى فكنت أسمع من حين إلى حين أن شوقى بك الشاعر الكبير ضجر من هجوم بعض شباب الأدباء والشعراء عليه وعلى شعره ... كما بلغ مسمعى أن شابا أزهريا مكفوفا نابغاً يهاجم بمقالاته

العنيفة علماء الأزهر المتجمدين — دون أن يخطر لى على بال أنه بعد نحو عشرة أعوام ستنشأ بينى وبين هذا الأزهرى النابغة صداقة ... وسنمرح معاً على جبال الألب ونسجل معاً مرحنا فى كتاب — لكن كل ذلك لم يكن صداه وقتئذ يتعدى بيئته ، ولم يكن قد اتخذ الدوى الذى يصل إلى كل الآذان ، ولا اتخذ من الإتساع والأهمية ماسمى فيما بعد بمدرسة التجديد ... على أن هذا كله قد تغير بعد أعوام قلائل تغيراً سريعاً مذهلا . . . إذ ما كدت أعود من فرنسا حتى وجدت أوضاع مصر السياسية فى تطورها السريع ، وما نتج عنه من برلمانات وأحزاب تنفق الأموال بغير حساب على ألسنة حالها من الصحف والكتاب ، قد رفعت من شأن الصحافة وكتابها ، فى الوقت الذى تدهور فيه المسرح وكتابه ... عدت فلم أجد جوقة عكاشه ... لقد أفلست واختفت ... ومسرح رمسيس آخذ فى الترنح والاحتضار . . . وأسماء : محمد مسعود وعباس علام ولطفى جمعه وابراهيم رمزى وغيرهم ... قد انطفأت بانطفاء أضواء المسرح ... ولمعت أسماء جديدة مع التماع نجم الصحافة ... برزت أسماء طه حسين وهيكل

والعقاد والمازنى ... لم تعد هذه الأسماء تذكر غامضة باهتة ضائعة بين الأضواء الكبيرة التى كانت تسيطر على سماء الشعر والأدب والمسرح قبل مغادرتى مصر ، بل هى الآن بدورها مضيئة واضحة بارزة فى أفق السياسة، ثم الأدب ... ذلك أن أولئك الشباب بدأوا فى الصحف السياسية ونموا بنموها ، ولما كانوا بحكم تكوينهم وميولهم شعراء وأدباء فقد انتهزوا الفرصة وجعلوا يقررون لشعرهم وأدبهم مكاناً ... كانوا يكتبون المقال السياسى المطلوب ، ثم يحتفظون لهوايتهم الأدبية بصفحة أو بضعة أعمدة ، قد لا تهم أحياناً رجال السياسة ولا أصحاب الصحف من أعضاء الأحزاب ، ولكنهم يحتملونها منهم كرامة للمقالات السياسية ... وهكذا استطاعوا أن يتابعوا تجديدهم فى النقد والشعر والأدب ... فى حين أن كتاب المسرح قد انتهوا بانتهائه ... وقد فجعت حقا بما حدث للمسرح ... فى الوقت الذى عدت فيه حاملا فى جعبتى محصولا غزيراً لمختلف ثقافاته ... وخطر لى أن أبحث عن صديقى القديم مصطفى ممتاز ، اتنسم منه روائح عهدنا الغابر ... فوجدته قد انصرف انصرافا تاماً عن الكتابة

على الاطلاق ، وقال لى فى نبرة حزن وأسى :

« المسرح مات » ...

وسألته عما يفعل إذن ؟ ... فقال بهدوء وجد :

« أشغتل بتحويل النحاس إلى ذهب » ...

وخلته يمزح ... وإذا به يؤكد لى أن هذه هى هوايته الآن ... وأنه يطالعها فى الكتب القديمة ، وأنه غارق لأذنيه فى تلك الكتب وقد أحاط ببعض ما فيها من عجائب وعلوم وأسرار ... ولما سألته عما إذا كان قد استطاع فعلا أن يحول شيئا من النحاس إلى ذهب ؟ ... — وقد كادت تغرينى أنا أيضا الهواية — أجاب أنه قد تم له ذلك بالفعل ... إلا أنه بعد أن جمع كل ما وصلت إليه يده من أوانى البيت النحاسية وصهرها وأطلق عليها البخور وقرأ التعاويذ لم ينتج منها إلا قطعة صغيرة جداً من الذهب ، لا يساوى ثمنها نصف ثمن النحاس الذى صهر ... وتلك كانت المشكلة التى تشغله ويحاول أن يجد لها حلا ، هذا فضلا عن صعوبة استحضار الجن بالبخور والتعاويذ ... لأن هذا مرهق غاية الإرهاق ... فلما رأى فى وجهى الدهشة جعل يشرح لى

حقيقة عالم الجن وما يحدث فيه ، وصلته بعالمنا الآدمى ، شرحاً مستفيضا بحديثه الطلى المقنع الممتع ، ودراسته المفصلة الطويلة لهذه الشئون ، حتى خلت نفسى آخر الأمر محاطاً من كل جانب بـ «بسم الله الرحمن الرحيم» اخواننا «أهل تحت» ووجدت صعوبة كبرى فى أن أعود إلى نفسى وأطفو على سطح الحياة اليومية التى جئت منها ... وغمرنى الموضوع غمراً ، وأنا دائماً أصدق أعاجيب القوى الخفية ، سواء أطلق عليها اسم الجن ، أم اليوم اسم الألكترون ... فلما أفقت قليلا أردت تغيير الجو ، والعودة بصديقى القديم إلى الحديث فى المسرح ، فأبديت له الرغبة فى معاودة الكتابة للمسرح بطريقة جديدة واتجاه آخر وتأليف حقيقى بعد الاطلاع والخبرة والدراسة التى اكتسبتها من الاتصال الثقافى بالفن والأدب فى الخارج .. فقال لى بإخلاص وصراحة :

« اسمع كلامى لا تتعب نفسك ! ... هذا مجهود ضائع .. المسرح المصرى كعهدنا به قد انتهى ! ... »

وقد صدق ... فالمسرح فى مصر وقتئذ كان فعلا قد مات ولم أحاول مرة أخرى الحديث مع ذلك الصديق القديم فى أمر

المسرح ولم أقابله بعد ذلك إلا عرضا منذ سنوات ، وكان قد تقاعد واستبدل بمعاشه أطيانا من مصلحة الأملاك ، مثل كثيرين غيره من الموظفين السابقين الذين وقعوا تحت الإغراء ، وتسلموا من المصلحة أرضا محتاجة إلى استصلاح فى نظير جنيهاتهم المضموتة نقداً وعداً أول كل شهر ... فلما رآنى صاح بروحه المرحة قائلا :

هذه المرة قد نجحت فى تحويل الذهب لا إلى نحاس فقط بل إلى تراب ! ... »

رحمة الله على ذلك الصديق العزيز والمسرحى الممتاز ...

على أن موت المسرح فى تلك الفترة أمر يدعو حقاً إلى التساؤل عن أسبابه ... وما من شك أن تطاحن الأحزاب السياسية كان قد صرف الأذهان عن الفن وأهله ... كما أن الأزمة المالية التى احتاجت العالم عامة ومصر خاصة حوالى عام ١٩٣٠ — ولعل هذا أهم سبب — قد أثرت فيما أثرت على المسرح .. لم أجد إذن أمامى أى مجال لتمثيل ما كنت قد كتبت فى ذلك الحين من مسرحيات منوعة ... لم يبق على نشاطه الأول إلا فرق

الهواة مثل جمعية أنصار التمثيل ... فوجدت فيها حلقة الاتصال بالماضى فكتبت لها خاصة مسرحية « رصاصة فى القلب » ... وسلمتها للزميل القديم سليمان نجيب وأردت بها أن تخرج عن الكوميديات المقتبسة الكاريكاتورية المعتمدة على النكتة اللفظية ومواقف المفاجآت الهزلية التى كان بطلها كشكش بك وبربرى مصر الوحيد ... وأن أجعل الحوار فقط بين شخصيات طبيعية هو الذى ينبعث منه كل الأثر ... ولكن الخمول لم يلبث أن دب أيضا فى جمعية أنصار التمثيل فبقيت هذه المسرحية أيضاً بلا تمثيل ... إلى أن قامت الصحافة الجديدة الناهضة بتخصيص مكان لى كان هو بمثابة « مسرح خاص بى » على الورق ، أعرض عليه ما يحلو لى من صور الحياة والمجتمع غير مقيد باضطراب أحوال الفرق المسرحية من حولى وأزماتها المتكررة فى ذلك الحين ، مما حال دون انقطاع حبل اتصالى واهتمامى بالمسرح والتأليف المسرحى ...

لم يكن إذن من السهل — بعد حصولى على ليسانس الحقوق — أن أقنع والدى بجدية العمل للأدب ، وما يمكن أن يكون له من مستقبل ... والأسماء اللامعة فيه وقتئذ ، كما ذكرت ، لا تشجع على الاحتجاج بها ... فلطفى السيد لم يكن قد أصبح بعد مديراً للجامعة أو وزيراً ... وشوقى بك الشاعر لو ذكرته لوالدى لرد على بأن مكانته فى المجتمع مستمدة من وظيفته السابقة فى السراى ومن ثرائه الواسع ... أما حافظ ابراهيم المسكين فحجته ضدى لا لى ... فقد أدى به الأدب إلى التسول فطلب الوظيفة فعينوه وكيلا لدار الكتب ... والمنفلوطى كان دائماً موظفاً هو الآخر ، وكذلك محمد مسعود ، وابراهيم رمزى أما لطفى جمعة محاميا ... لا بد إذن فى النهاية من الوظيفة أو ما فى حكمها حتى يمكن حمل كارثة الأدب فى بلادنا ... وحتى أولئك الذين استطاعوا حمل هذه الكارثة بمعاونة الوظيفة ، لم يسلموا من لعنة تلاحقهم فى وظائفهم وأعمالهم الأخرى بسبب الأدب ... ومع ذلك لم يكن والدى يكره الأدب

فى حد ذاته ، أو يزدريه فى قرارة.. نفسه فهو مازال يحتفظ بحبه القديم له... ولطالما سمعته فى خلوته يترنم بأبيات من شعر الجاهلية يدلل بها على أمر من الأمور ، أو تصرف من التصرفات أو يصف بها شخصاً من الأشخاص... حقاً لم ينظم بيتا واحداً من الشعر منذ تزوج... فقد كان كل نظمه وهو شاب أعزب ... ولست أدرى لماذا لم أهتم بجمع ما نظم ... ربما لأنى لم أكن أعلم أنى سأكتب عنه يوما أو عن نفسى... على أن الذى يخيل إلى هو أن شعر والدى ربما كان يتجه فى أكثره إلى الحكمة ، ليس لأن العواطف لا تهمه... على العكس ... لقد كان رحيما انسانيا تحت مظهر جاد من الرزانة والاتزان... لم يكن فياضا بالعاطفة جياشا بالشعور المتفجر كزبد البحر العاصف مثل والدتى ... فقد كانت له القدرة على أن يفصل عاطفته عن عقله ... كان كل شىء عنده — حتى أحب الأشياء وأقدسها — يخضع لميزان عقله وفحصه ويعطيه ماله وما عليه بالحق والعدل... على عكس والدتى التى تملكها العاطفة ولا تعرف الفحص ولا الميزان... فهى الانطلاق والإغراق إما حب فياض وإما كره ماحق... لا وسط عندها ولا اعتدال... لكن نفس والدى مع ذلك

كانت شيئاً صافياً مستقراً مختفياً تحت سطح بحر هادئ... لم يكن يكثر الضحك... لم أره مرة يقهقه... بل لم أسمع منه ضحكا أو صوتا مما يندرج تحت هذا الوصف... كل ما رأيت وسمعت منه فى تلك المواقف التى تستدعى الضحك هو الابتسام والهمهمة الخفيفة... إنه كان مدققا حقاً فى المال والكلام وفى كل أمر... على نفسه وعلى غيره... يخرج من جيبه القرش والكلمة بحرص وفحص. على نقيض والدتى السخية دائماً بطبعها... تخرج النقود والكلمات بيسر جارف وكرم صاخب... وأمام هذا التناقض بين الوالدين ورثت أنا فيما أعتقد الحيرة بينهما... فأنا فى الغالب أميل إلى الاقتصاد والإمساك عن كل إنفاق... سواء فى نقود أو كلمات... ولعل هذا من أسباب تفضيلى المسرحية... فهى فن اقتصادى بخيل... الكلمات فيها محسوبة بدقة... والوقت فيها مقيد والحيز فيها محدود... لا محل فيها للإسراف والانفلات... غير أنى أحيانا تظهر على نوبة انفلات خاطفة أو إسراف فى القول والمال مفاجئ. لا ألبث أن أفيق منه فأمسك ثم أنطلق ثم أمسك ... وهكذا ... كما تنطلق منى أحيانا غضبة مفاجئة أو انفعال ملتهب مباغت أو تدفق كلامى متحمس فأفطن

أحداً فى تواضعه وقلة احتفائه بنفسه فى ملبس أو مأكل أو مجلس ، ولا سمعته قط افتخر أمامنا بعمل له أو قول ... ولا شاهدت قط أحداً مثله فى نزوعه إلى الظلام والاختفاء بعيداً عن الأضواء ... ولا فى ميله إلى الانزواء عن المجتمعات الصاخبة أو السمر مع السامرين فى الحفلات والنوادى ... ولا عرفت قط أنه سهر ذات ليلة فى ملهى من الملاهى ... كانت حياته جافة صارمة ... لا يعرف من وسائل الترفيه غير المشى على الأقدام طويلا .. فإذا قابله أحد فى شارع وسأله إلى أين ؟ ... أجاب بإشارة غامضة من يده ، لا يستطيع أحد أن يفهم منها شيئاً ... وإجاباته دائماً فيما يتعلق بشخصه لا يمكن أن تنير سائله ... فهو لا يحب أن يلقى ضوء على شخصه ، أو يريح الناس فى أمره ... تلك كانت طبيعته ... أما والدتى فهى على نقيضه ... معتدة بنفسها ، تحب الضوء وتكره الخمول والظلام ... وبين هذين النقيضين ورثت كذلك حالة حيرة بين الرضا بالضوء والنفور منه ... دون أن أدرى أحياناً لماذا أرضى ولماذا أسخط ... بل لماذا أبتعد عن المآدب العامة والحفلات والدعوات والاجتماعات ... حتى ليالى عرض مسرحياتى ذاتها قلما

آنس اليوم من نفسى الرغبة والدافع لحضورها ... إلى حد جعل البعض يعتقد أنى أتكلف ذلك تكلفا ... والحقيقة أنى أضيق بهذا الطبع وأتأذى منه لأنه يحرمنى الكثير ... على أنى لا أدرى بعد أهو طبع ثابت عندى أم هو إحساس طارىء الدواعى الحالة الصحية والسأم النفسى ... لست أدرى بعد ... لكن المؤكد عندى هو أنى فعلا أنزعج وأنفر من أى اجتماع عام وخاصة إذا تعرضت فيه إلى إلقاء كلمة أو طلب إلى فيه الكلام ... فقد شعرت بعد أول مرافعة لى فى كرسى النيابة أمام محكمة الجنايات أنى لا أصلح لمثل هذه المواقف ... فأنا لست سريع البديهة ولا حاضر الذهن ... مما يجعلنى أبحث سدى عن الكلمات والمعانى الهاربة من رأسى فى اللحظة المفاجئة ... ويستولى على نوع من الفزع والارتباك ... وحتى القراءة من ورقة أتلعثم فيها إذا سلطت على عيون وأضواء وأحسست من حولى بمستمعين ورقباء ... ولا أعرف من أين جاءتنى هذه الكارثة ... فوالدى — كما علمت — كان من أبرع المتكلمين والمترافعين منذ كان وكيلا للنيابة ... إلى حد أن فاوضه يوما أحد كبار المحامين وكانوا يومئذ لا يحملون شهادات — على

أن يعمل معه محامياً وشريكا نظير مرتب ما كان يتقاضاه يومئذ إلا المستشار ، لكنه اضطر إلى الرفض ... لأن أباه أراده فى سلك القضاء ، كى يخيف به المحضرين الذين كانوا يفدون للحجز عليه ... هذا هو والدى ... أما والدتى فهى الجرأة والذلاقة والانطلاقة بعينها ... لا تعرف الارتباك فى أى كلام ولا الاضطراب فى مواجهة أى موقف ... أنا إذن المسئول وحدى عن هذه العلة ... ولست أدرى سببها ... إلا أن تكون حالة الوحدة والصمت التى لازمتنى شطراً كبيراً من حياتى ...

شىء آخر كان يتصف به والدى : هو روح السخرية والفكاهة التى تنبعث من أقواله وأفعاله ، دون تعمد ، ودون أن يبدو على وجهه الرزين أى تغير ... كانت جلساته فى المحاكم — كما قيل — ممتعة مليئة بالمفارقات التى تبدر منه وهو جاد هادئ لا يبتسم ...

كان هناك رواة — كما علمت — يتذاكرون نوادره ...

منهم المرحوم المستشار زكى خير الأبوتيجى الذى قيل إنه كان متخصصاً فى نوادر « إسماعيل الحكيم » ! ... فقد بدأ حياته القضائية تحت رياسته ، ويقول إنه عندما عين قاضيا بمحكمة

أسيوط ، ذهب لاستلام عمله بها فرحاً نشيطاً ، وإذا رئيس المحكمة وكان والدى ، يستقبله بنظرة فحص وارتياب ويقول له :

« هل عندك ما يثبت أنك حقيقة القاضى الجديد ؟ ... » .

فارتبك القاضى الشاب إذ لم يكن يتوقع أن يشك فيه ويطالب بإثبات شخصيته ...

ومضى والدى يقول له :

« من يدرينا أنك لست إلا نصابا محتالا جاء يزعم أنه هو القاضى المعين بمحكمتنا ؟ ... كيف نجلسك معنا فى الجلسة لمجرد ادعائك أنك القاضى الجديد ؟ ! ... إذهب باحضرة إلى حال سبيلك ! ... » .

وحار القاضى الشاب الخجول ... ولم يدر ما يصنع ؟ ... وكيف يذهب إلى حال سبيله وهو معين فى هذه المحكمة ؟ ...

فالتفت إلى والدى مستعطفاً قائلا :

« هل يعقل أنى اقتحم المحكمة وأجلس معكم فى الجلسة وأنا غير معين فى الوظيفة ؟ ... هل يبدو على وجهى أنى محتال أو أنى قاض ؟ ؟ ...

فنظر والدى إلى وجهه ملياً ثم قال له :

« من هذه الجهة يصعب الحكم ... فأنت من وجهة يمكن أن تكون هذا أو ذاك ! ... لكن على كل حال ادخل واجلس معنا ولنجازف ، على عهدتى والسلام » ...

لا أظن والدى كان جاداً فى هذا التصرف... ولكنه أحياناً كان يمزح فى صورة الجد... وعندئذ يختلط جده بهزله ، دون أن يبدو الفرق للعيان... لم تكن شخصية والدى تلك ولا ميوله الدفينة إذن مما يحمله يتجنب الأدب... على العكس... إنه فيما يخيل إلىّ كان يود فى دخيلة نفسه أن تتاح له الفرصة للإنطلاق على سجيته ، واتخاذ الشعر والأدب مجاله وميدانه... تلك ولا شك كانت رغبته المكبوتة ، كبتها فى نفسه مجتمعه وظروفه العائلية والمالية ... هذا الترف المسمى يومئذ « الأدب » لم تكن تسمح به حالته المالية بالتأكيد ، لا قبل الزواج ولا بعده ، وخاصة بعده ، والرغبة المكبوتة عند الآباء ربما كانت هى التى يورثونها للأبناء . . .

ولو أن والدى تمكن من إفراغ كل ما فى نفسه من رغبات وميول أدبية لأعفانى أنا وحررنى من « نزعة الأدب » ، ولكنت

أنا قد انصرفت طليقاً إلى شئ آخر ... ان أبناء رجال مثل لطفى السيد أو أحمد شوقى لم ينزعوا إلى الأدب لأن آباءهم لم يكبتوا تلك النزعة ، بل أفرغوها وأطلقوها بكل طاقتها وقوتها فى حياتهم ... لقد ألقى والدى إذن على كاهلى أنا مالم تهيئه له ظروفه هو أن يحمله ... فما أنا إلا سجين رغبته هو التى لم يحققها بل إنى سجين أشياء كثيرة أورثنى إياها ، فيها الطيب وفيها الردئ كما ورثت عن والدتى خيرها وشرها ... فهى طيبة القلب ولكن فيها روح شر ، خصوصا مع المعتدى ... غير أنها لا تعرف الخبث إطلاقا فهى صريحة ، صراحة متحدية ... أحياناً ... ولا تطيق أن تخفى فى صدرها شيئاً ... أما والدى فهو طيب نادر الشر ، لكنه كثير الخبث ، قليل الصراحة ... وقد ورثت أنا من كل هذا بنسب متفاوتة ...

هذا السجن الذى أعيش فيه من وراثات كأنها الجدران ، هل كان من الممكن الخلاص منها ؟ ... حاولت كثيراً كما يحاول كل سجين أن يفلت ، ولكنى كنت كمن يتحرك فى أغلال أبدية .. وبدت المأساة لعينى عندما خيل إلىّ يوما وأنا أحلل نفسى ، أنى

لا أعيش حياتى إلا فى نسبة ضئيلة . . . أما النسبة الكبرى فهى تلك العجينة من العناصر المتناقضة التى أودعت تلك النطفة التى منها تكونت ... والنسبة الضئيلة التى تركت لى حرة من حياتى قضيتها كلها فى الكفاح والصراع ضد العوائق التى وضعها أهلى أنفسهم فى طريقى ،ومن خلفهم المجتمع كله فى ذلك الوقت ...فوالدى الذى أورثنى حب الأدب هو نفسه الذى يصدنى عن الأدب ... ووالدتى التى أورثتنى الإرادة تقف بإرادتها دون رغباتى الفنية ... حريتى الباقية لى إذن هى فرصتى الوحيدة وسلاحى الوحيد فى مقاومة كل تلك العقبات .. وحريتى هى تفكيرى ... أنا سجين فى الموروث ؛ حر فى المكتسب ... وما شيدته بنفسى من فكر وثقافة هو ملكى . وهو ما أختلف فيه عن أهلى كل الاختلاف . هاهنا مصدر قوتى الحقيقية التى بها أقاوم ...

نعم ... تفكيرى وتكوينى الفكرى .. هنا كل حريتى ... الإنسان حر فى الفكر سجين فى الطبع . . . ولست أدرى أهى مجرد مصادفة أن أكتب عن تكوين الفكر فى « زهرة العمر » قبل أن أكتب عن تكوين الطبع فى « سجن العمر » ؟! . . إن

زهرة عمرنا الفكر ، وسجن عمرنا الطبع ...

غير أن والدى أمام إصرارى على تكريس حياتى للأدب — رغم الصعوبات والنصائح والعقبات التى تحاول صدى — بدأ يفكر فى أمرى جدياً ... فجعل يعرض علىّ مخاوفه بصراحة ... قال إنه لا ينكر علىّ الأدب إلا باعتباره عملا أساسياً فى الحياة . فواجبه كأب أن يوجه ابنه إلى الطريق المأمون ... والأدب ليس بالطريق المأمون الذى يكفل العيش لمن لا ثروة له ... وهو يعلم أنى لن أرث ثروة يمكن الاعتماد عليها ، حتى يصح لى الانقطاع إلى الأدب كما يفعل شوقى الشاعر ، أو حتى لطفى السيد الذى سيرث يوماً عن والده الثرى السيد باشا أبو على مايغنيه عن الارتزاق ... لا بد لى إذن فى عرف والدى من وظيفة تعولنى ولا بأس معها من إشباع هوايتى للأدب ... وختم والدى حديثه معى بقوله « ومع ذلك فها هو ذا لطفى السيد ... إنه موجود ... تعال معى نعرف رأيه » ...

وقادنى إلى زيارة صديقه وزميله القديم ... وكأنى به تذكره فجأة ... فما من شك عندى فى أن والدى ما كان قد التقى بصديقه

القديم هذا منذ أعوام وأعوام ... فهو بطبعه يزهد فى إنشاء أو إحياء الصلات المفيدة ، حتى مع أصدقائه الأقدمين ممن لمعوا فى الحياة ... وقد ورثت أنا عنه هذه الخصلة السيئة وزدت عليها ، إلى حد ضيق وعجزى عن مراعاة أبسط قواعد المجاملات أحياناً من تهنئة وتعزية وسؤال عن الصحة ، حتى بالنسبة إلى أعز الناس ... كما أنزعج أيضاً من سؤالهم عنى ... وقد عرف ذلك المتصلون بى ... ففهمونى ، وتركونى لطبعى هذا . أما عن دائرة اتصالاتى فهى أسوأ .

فأنا لم أحاول عقد صلات ، حتى مع من كان يجب أن أتصل بهم من أدباء وفنانين ، وخاصة ممن كتب عنى أو مثل لى فى الخارج ... لقد كنت فى باريس أخيراً على مقربة من بعضهم فلم أقابل أحداً منهم ... ولقد سئلت هناك عمن تربطنى بهم الصلات من أدبائهم فلما أجبت :

« لا أحد » ...

قوبلت إجابتى بدهشة ، ثم وجهت إلىّ دعوات للالتقاء بالبعض فتقاعدت ، لا زهداً بل انزواء جثمانياً غريزيا غير مفهوم ... إنى أجفل دائماً من أى صلة جديدة ... لا افتح باب

نفسى بسهولة لأول طارق .. وهذا التصرف الغريب يتكرر كثيراً فى حياتى ويضايقنى ... وكلما لمت نفسى عليه وعزمت على تغييره أقع فيه مرة أخرى ... قلة نشاطى وحركتى هى دائى العضال ... وقد أضاع هذا الداء علىّ كثيراً من الفرص والمتع فى الحياة والفن ... إنى أعمل وأقعد عن السعى لإنجاز العمل ... أنشط إلى العمل وأكسل عن النجاح ... وإذا كان قد صادفنى فى الحياة نجاح فإن كثيراً منه قد هبط على رأسى من حيث لا أدرى ولا أتوقع ... إنى فى أغلب أحوالى قاعد هامد ... فى حوار دائم مع نفسى ... فى حركة دائمة داخل عقلى ... أفك الكون وأركبه ... وكل شىء فى العالم والمجتمع يهمنى ويهزنى ويحركنى . . . ولكن جسمى لا يتحرك كثيراً ... إن لدى القدرة على أن أجلس الساعات بمفردى لا أصنع شيئاً . . . وكثيراً ما يدهش الداخل علىّ إذ يرانى أحياناً قاعداً جامداً ، ليس أمامى كتاب أو ورق أو قلم ، ولا حراك بى كأنى تمثال من حجر ... على أنى ما انعزلت قط ولا انزويت إلا بالجسم وحده ... وإنه لمن الغريب أن أعيش دائماً بكل روحى وجوارحى وتفكيرى فى كل مشكلات عصرى ،

ولا أجد من جسمى مثل هذه الحركة وهذا النشاط ... عرضت لى مناسبات كثيرة للحركة والنشاط ... دعيت إلى السفر فى كل مكان، وهيئت لى فرص لمشاهدة ما كان يجب أن أشاهد ومقابلة من كان يجب أن أقابل . . . لكن قدرتى على إضاعة الفرص أكبر من قدرتى على انتهازها ... ولكأنى بالقدر يمنحنى الفرصة وهو مطمئن لوجود الجهاز الذى يستطيع عندى أن يضيعها ... إنى لم أستطع حتى أن أنتهز فرصة وجود لطفى السيد نفسه على مقربة منى ، رئيساً للمجمع اللغوى ، وأنا عضو فيه ، لأتصل به الاتصال الذى يتيح لى التزود بالمعلومات التى لا يعرفها غيره عن والدى وشبابه وجيله ومعاصريه ... حتى ما سطرته هنا فى هذا الشأن كان الذى جاء به مشكوراً هو صديق كريم كالعقاد رحمة الله عليه ورضوانه ... نقلا مباشراً عن « عبد العزيز فهمى » الذى لم أتصل به هو أيضا إلا عرضا ... على أن همودى المادى وقعودى الجثمانى إلى هذا الحد ليس فى الواقع نتيجة وراثة ... فمن الإنصاف القول إن والدى ، رغم زهده فى أشياء كثيرة ، كان كتلة حركة ونشاط فى محيطه ... لا يقعد مثلى عما يرى فيه نفعاً لعمله ... ولا يضيع

فرصة لمجرد هموده أو قعوده ... أما والدتى فهى الحركة الدائبة بعينها . . . لا تعرف القعود أو الإنزواء حتى وهى مريضة . . . فحص الطبيب قلبها مرة وأمرها بملازمة الفراش ، فلم تطق الرقاد يوماً واحداً ، وفضلت الموت على القعود ، ونهضت تحمل مظلتها وتسرح فى الغيط ، تراقب البذر والحصاد وتطهير المصارف وعلف المواشى ، ثم تعود إلى الجرن تقف على دراس القمح أو الأرز ، أو وزن القطن ونحو ذلك من الأعمال الشاقة ... أنا إذن المسئول وحدى عن كسلى وفشلى ... ولا أدرى العلة ... وعجزت عن العلاج . . . مع أن رأيى دائماً أن الحياة قيمة فى ذاتها وحركتها . . . وإذا كان أحد أشخاص « أهل الكهف » عندى قد قال :

« إن أية حياة منحة ، وأثمن منحة تعطى لمخلوق هى الحياة » ...

فإنى أنا نفسى مع الأسف لم أستطع الانتفاع بهذه المنحة كما ينبغى ... لقد ضاع منى الكثير من قدراتى ومن موهبتى — إذا كان لها وجود بسبب طبيعتى المثقوبة كالغربال بمائة ثقب من القعود والتردد والإهمال ، بل إن السبب الرئيسى فى عرف الطب

— لما يتهدد اليوم صحتى — هو قلة نشاطى وحركتى ... إنى دائماً أحاسب نفسى على كل ذلك ... وأسائلها :

هل كان من الممكن أن أكون أفضل مما أنا فى مجال الخلق الفنى مع مثل هذا الطبع ؟ ... هذا الطبع الذى سجننى وفوت علىّ الكثير من الفرص الفنية !؟ ... يضاف إليه طبيعة الظروف المحيطة بالأدب ذاته والفن فى مجتمع معين فى زمن معين ... تلك الظروف التى اقتضت من مثلى إضاعة الكثير من الوقت والجهد لتعرف مواضع الخطى فى فنون جديدة لم تكن أرضها وقتئذ معبدة ؟ . . . لا أدرى . . . كل الذى أدريه هو أنى سأموت وأنا أتساءل :

لماذا لم أكن أفضل مما كنت ؟ ... وماهو هذا السجن الذى يحبسنى فيما أكون ؟ ...

كذلك ساءلت نفسى :

ما هو هذا الفن الذى نتجشم من أجله هذه المتاعب ؟ ... مامن شك أنه شىء محبوب . . . لأنى أشعر نحوه بحب منذ فجر الطفولة . . . إن كل إنسان يولد وهو محب للفن فى صورة من

صوره ... فالإنسان إنسان لأنه يحب أن يتأمل ذاته ويعجب بها أو يضحك منها أو يفكر فيها ... إن الفن هو أداة الإنسانية لتأمل ملامحها ومعرفة نفسها ... وهذا مادفعها إلى التفكير والتطور ... ولو أن الحيوان تأمل ذاته وعرفها وحللها لانقلب إنساناً فى التو واللحظة ...

وأعود إلى والدى فأقول إنه قادنى إلى صديقه أحمد لطفى السيد ... كان يومئذ مديراً لدار الكتب ... دخلنا عليه فرحب بنا ... وأجلسنا إلى جواره ... كان جالساً إلى ذلك المكتب الذى ظل على حاله بعد ذلك سنوات وسنوات ... عين المكتب هو هو لم يتغير ... وفى نفس الموضع من نفس الحجرة ...

قال له والدى : « هذا ابنى توفيق ... حصل على ليسانس الحقوق وقيد فى جدول المحامين المشتغلين ، لكن ميله متجه إلى الأدب » ...

فبدا على وجه لطفى السيد الرضا والارتياح ... وبادر يؤيد رأيا سبق أن خطر لوالدى وتردد فيه ... قال لوالدى :

« أرسله إلى أوروبا ، يحضر الدكتوراه ، فإذا عاد بها عين

أستاذاً فى الجامعة التى تزمع الحكومة إنشاءها وفتحها قريباً ، أو فى القضاء المختلط حيث الإقامة فى مدن كبرى كالقاهرة أو الإسكندرية أو المنصورة مما يتيح له إشباع هوايته للأدب » ...

فالتفت والدى نحوى قائلا :

أظن هذا هو الحل ...

ونهضنا منصرفين شاكرين ... وشيعنا لطفى السيد إلى الباب ونحن نحمل نسخة من كتاب ترجمه عن أرسطو أهداه إلينا ... وما كدنا نخرج إلى ميدان باب الخلق حتى كانت فكرة السفر إلى أوروبا قد تأكدت لدينا ... وجعل والدى يحسب ما سيكلفه ذلك من نفقات ... لكنه لم يحجم ... لقد كان سفرى هذا فى نظره إنقاذاً لى من هذا الوسط الفنى الذى علم بأمر انغمارى فيه ، دون أى أمل فى اهتمام جدى بمحاماة أو غيرها من الأعمال المحترمه ...

وعدنا إلى الإسكندرية وفاتحنا والدتى فى أمر السفر ... فوجمت قليلا ... ولم تتحمس أول الأمر ... لأنها كانت قد وضعت فى رأسها خطة أخرى : هى أن تزوجنى من عروس غنية وارثة ، مما يؤمن حياتى ، فى رأيها العملى ، ويحيطها بالضمان ... فقد

كتبت بالفعل ذات يوم خطابا لوالدى تقول له فيه :

« اليوم حصل خبر غريب مفرح ولكن الخوف ثم الخوف من الحمار توفيق وعليك أن توضع له عقله فى دماغه ويقبل هذه العروسة الهدية وأنا منتظره حضورك لاجل تتوجه للمجلس الحسبى قبل كل شئ وتعرف ماهو متحوش للعروسة وكام إيرادها بالظبط ... إلخ ... إلخ ... »

هذا ما خطته والدتى ...

لكنى أنا ووالدى لم نزل بها حتى اقنعناها برأينا ... ولست أدرى كيف لم يخطر ببالها وقتئذ أن زواجى إذا حدث يوماً فإنه يكون على غرار زواج والدى نفسه ، من حيث بعده عن التفكير فى مثل هذا الاعتبار ... فالأساس عندى هو كما كان عنده : التوافق فى العقلية والتفاهم فى الحياة ... ولا شئ غير ذلك .. وقد تزوجت فيما بعد بالفعل خير زوجة ...

وبادر والدى يهئ وسائل السفر ... ويسأل البنك عن طريقه تحويل المبلغ الشهرى اللازم لى هناك .. ويتحرى عن أقل مستوى للمعيشة فى فرنسا ... ثم حجزنا مكانا لى بالدرجة الثانية على باخرة

فرنسية قديمة اسمها « الجنرال متزنجر » ...

وفى يوم السفر عانقت والدتى وجدتى ودموعهما تنهمر ... وذهبت بحقائبى مع والدى إلى الميناء ... وصعدت إلى الباخرة ... ووقفت على ظهرها ، أتطلع إلى والدى على الرصيف ، وهو واقف تحت شمسيته البيضاء يلوح لى بيده ، ثم بمنديله ، والباخرة تتحرك ... كان منظره ، منظر هذا الأب الرزين وهو يكتم شعوره تحت قناع وداع هادىء ، مما أسال دمعتى على الرغم منى ... وابتعدت مصر واتجهت أنا نحو المصير المجهول ...

* * *

وقضيت فى باريس تلك الأعوام الموصوفة بالتقريب فى كتابى « زهرة العمر » ...

وعدت إلى بلادى ... عدت بالحقيبة ذاتها التى كنت قد حملتها معى ، وكان بها بدلتان وأربع فانيلات وأربعة قمصان وستة مناديل ... عدت بها جميعاً لم ينقص منها شىء ... كما عدت بصناديق خشبية مملوءة بما جمعت من كتب على مدى تلك الأعوام ... كل ذلك عدت به ... ما عدا شيئاً واحداً لم

أعد به ... وهو ماذهبت للحصول عليه : الدكتوراه فى القانون ... فإن بطء الفهم عندى ، وواعيتى الضعيفة ، بالإضافة إلى أعباء الجهاد الثقافى الشامل الذى ألقيت بنفسى كلها فى لجته ، مع النهم الفكرى الذى استولى علىّ أمام موائد الحضارة الكبرى ... كل هذا لم يترك لمثلى القوة ولا القدرة على حمل عبء آخر ...

عدت فاستقبلنى أهلى كما يستقبل الخائب الفاشل ... وتصادف أن سمعوا أصوات فرح على مقربة من منزلنا ، فلما سألوا عن الخبر قيل إن سرادقا أقيم وأكواب « شربات » تقدم ابتهاجا بجار زميل لى عاد من الخارج ناجحاً فالحاً ظافراً بشهادة الدكتوراه ، فازداد مركزى سوءاً ... ورأيت الهم والغم والأسى فى عيون أهلى ... وسمعتهم من حولى يتهامسون : « ياخيبتنا ! ... يا خيبتنا ! ... »

وبعد :

هذه مرحلة من حياة ... لم أرد منها قص حكايتها ... فلم التزم فيها بالطريقة المألوفة فى سرد تاريخ الحياة حسب الترتيب الزمنى لتتابع الوقائع ... ولكنى مزجت الأزمان والأحداث فى أكثر

الأحيان كى أصل مباشرة إلى لب المقصود هنا وهو : محاولة كشف شىء عن تكوين هذا الطبع الذى أتخبط بين قضبان سجنه طول العمر ...